

تأليف : نيل دى. ماكنزى
ترجمة : عثمان مصطفى عثمان
المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة
دراسة طبوغرافية
القاهرة الأيوبية
1091





خريطة منشآت القاهرة فى العصر الأيوبى، هذا هو الهدف من الكتاب.

غاص المؤلف فى كتب الرحالة والمؤرخين، والدراسات التى أجريت عن القاهرة؛ ليستخرج منها خريطة بمواقع المنشآت فى العصر الأيوبى. والواقع أنه خرج بثلاث خرائط وقع عليها تلك المنشآت فى القاهرة والفسطاط؛ لتعطينا صورة أقرب ما تكون للحقيقة عن مرافق القاهرة والفسطاط، ومبانيها واستخداماتها، خلال ثمانين سنة، هى عمر الدولة الأيوبية فى مصر.

قسَّم المؤلف كتابه إلى فصول يختص كل منها بنوع من تلك المنشآت، فناقش استخداماتها وتطورها، ثم أورد النصوص الدالة على موقع كل منها، وتاريخ بنائه، وما قد يتعلق به من معلومات تفيد فى تحديد موقعه أو استخداماته.



تصميم الغلاف: هند سمير

القاهرة الأيوبية

دراسة طبوغرافية

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٩١
- القاهرة الأيوبية – دراسة طبوغرافية
- نيل دى . ماكنزى
- عثمان مصطفى عثمان
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب

Ayyubid Cairo

A Topographical Study

By : Neil D. Mackenzie

113 Sharia Kasr el Aini Cairo, Egypt

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

المشروع القومى للترجمة

القاهرة الأيوبية

دراسة طبوغرافية

تأليف : نيل دى . ماكنزى

ترجمة : عثمان مصطفى عثمان



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

ماكنزى ، نيل دى
القاهرة الأيوبية – دراسة طبوغرافية
تأليف : نيل دى . ماكنزى ، ترجمة : عثمان مصطفى عثمان .
– القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧
٣١٦ ص ، ٢٤ سم المشروع القومى للترجمة
١ – مصر – تاريخ – العصر الأيوبى (١١٧١ – ١٢٥٠ م).
(أ) عثمان ، مصطفى عثمان (مترجم)
(ب) العنوان ٩٥٣,٠٧٣٩٣

رقم الإيداع ٨٢٨٤ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977-437-283-2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

مقدمة المترجم

أهمية العصر الأيوبى

على قصر فترة حكم الأيوبيين التى كانت أقل من قرن بعشرين سنة، فقد تركوا لنا أثرًا، هو الأضخم من بين آثار مصر الإسلامية، أثرًا أصبح مقر سلطة الحكم فى مصر منذ عصر الأيوبيين حتى زمن الخديو إسماعيل فى القرن التاسع عشر، ألا وهو قلعة صلاح الدين.

كذلك لعب الأيوبيون دورًا مفصليًا فى تاريخ مصر الروحى والدينى، من ناحيتين؛ فهم أولاً قضوا على أى وجود للدعوة الشيعية وأعادوا لمصر المذهب السنى، الذى لا يزال مذهب أهلها حتى يومنا هذا. وثانيًا، لعب مذهب صلاح الدين، الشافعى، دورًا بارزًا فى ترسيخ قدم التصوف فى مصر. فكما نعلم، ظهر التصوف فى مصر بعيد فتحها فى رأى معظم مؤرخى التصوف وأهله. ولكن انتشار الطرق الصوفية، وانتشار المتصوفة فى مصر، بدأ توسعه، فى رأينا، مع صلاح الدين لكونه شافعى المذهب. فالإمام محمد بن إدريس الشافعى يعده معظم المتصوفة من أركان التصوف. لذلك كان من الطبيعى أن يكون لحاكمٍ على مذهب الشافعى دور مهم فى نشر التصوف؛ والتصوف الذى نقصده هنا هو التصوف العملى بصورته الجمعية المتجلية فى الطرق التى لا نزال نراها حتى يومنا هذا. وفى تاريخ ذلك التصوف يقول عامر النجار: "هذا التصوف العملى بصورته الجمعية لم ينشأ فى مصر قبل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى، وقد سجل المقريزى تاريخ نشأته بعام ٥٦٩ للهجرة، وهو تاريخ إنشاء أول الخانقاوات

في عهد صلاح الدين الأيوبي."[1] يؤيد المقريزى إذن والمؤرخون المحدثون ما ذهبنا إليه من دور صلاح الدين في نشر التصوف.

وعلى ذلك، ففترة الحكم الأيوبى لمصر، على قصرها، لعبت دورًا مهمًا على أصعدة شتى. وسوف يحاول هذا الكتاب أن يلقى الضوء على دورها في منشآت القاهرة والفسطاط ومرافقهما. وعلى الرغم من أن الكتاب يناقش وظائف تلك المنشآت وتاريخها، فإن مدلولاتها وأبعادها الأخرى، الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، والدينية، تخرج عن مجال بحث هذا الكتاب. على أنى أرى لكتابنا هذا استخدامين؛ فهو يمكن أن يُستخدم كمرجع عن المنشآت الأيوبية في القاهرة، يلجأ إليه الباحث عند رغبته في الوقوف على نوع معين من المنشآت في ذلك العصر، ليوفر عليه وقت وجهد البحث في مختلف المصادر القديمة عنه. كذلك يمكن أن يُستخدم مدخلاً لقراءة حياة أهل القاهرة والفسطاط فى هذا العصر من شتى جوانبها. وأقول مدخلاً؛ لأن الكتاب لم يتوسع فى هذا الجانب، ولكن تصنيف تلك المنشآت وجمع كل صنف منها معًا، ثم توقيعها على خريطة للقاهرة والفسطاط يمكن أن يوفر للباحث الجاد مدخلاً لقراءة جديدة لأحوال الناس فى هذا الزمان، قد لا تشى بها المصادر القديمة وحدها، وسوف أزيد تلك النقطة إيضاحًا فى الفقرات التالية.

العمارة تشى بأهلها

للعمارة أبلغ دلالة على نشاط الناس، ونوعيته، وتوجهاتهم، بل لا نبعد عن الحقيقة إن ذهبنا إلى أننا نستطيع أن نقرأ من العمارة الكثير مما سكتت عنه المصادر، ونستشف منها روح العصر.

---

(١) عامر النجار: الطرق الصوفية فى مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٩٦.

فلننظر مثلاً إلى آثار مصر الفرعونية، والعمارة في أى دولة خليجية، والعمارة فى المملكة المتحدة. وقد اخترت تلك الأمثلة الثلاثة؛ لأنها جميعًا تشترك فى الثراء الشديد الذى تستطيع أن تنفق منه بسخاء على عمائرها، مع تباعدها زمانيًا ومكانيًا. فى مصر الفرعونية، عمارة ضخمة مكرسة للمعابد، واحتفاء قريب من ذلك بالمقابر، بينما بيوت الناس، وحتى قصور الملوك شيدت من الطوب اللبن. فهل لذلك من دلالة؟ لو أجلنا الفكر قليلاً لوصلنا إلى نتيجة واضحة وضوح الشمس، مؤداها أن هؤلاء قوم يحتفون بالدين وبالحياة الآخرة، ويرون فى الحياة الدنيا مرحلة قصيرة، يرونها سبيلاً لا غاية. لذلك كان احتفاؤهم بمعابد الآلهة وبقبور موتاهم، لارتباطها بالخلود والحياة الأخرى الأبدية، فشادوها بالحجر الباقى؛ أما الحياة الدنيا فبناء الطوب اللبن، الفانى، يكفيها.

فإذا ما انتقلنا إلى العمارة الحديثة في دول الخليج، فسنقرأ فيها البذخ والتباهى بالثراء. وهو أمر طبيعى جدًا لقوم تفجرت فى فيافى صحاريهم آبار الذهب الأسود، فنقلتهم من البداوة إلى التمدن. رد الفعل الطبيعى أن يظهروا هذا الثراء ويبالغوا فيه.

والمملكة المتحدة، نجد في الكثير من مدنها تمسكًا بالطرز العريقة، واعتزازًا بها. وهو أمر طبيعى أيضًا؛ فهى بلد، رغم ارتباطه بالتاريخ الأوروبى، كان يؤكد دائمًا على تمايزه، ويعتز دومًا بملكيته، ربما بقدر اعتزازه بديمقراطيته، العريقة أيضًا. فكان من الطبيعى أن نرى تمسكًا بالعراقة حتى فى المنشآت الحديثة فى بعض مدنه.

الأمر نفسه ينطبق على قاهرتنا وفسطاطنا. قاهرة المعز الفاطمية، تشى بفكر بانيها وتوجهات قومه؛ فهم شيعة، لأئمتهم العصمة، لذلك كان من الطبيعى أن يكتسوا بتقديس يحجبهم عن الناس، فكانت عاصمة ملكهم مدينة مسورة لسكناهم وحاشيتهم. العمارة تشى بأهلها، كعادتها.

أما فى عهد الأيوبيين، فكان من الطبيعى أيضًا أن تشى عمارة القاهرة فى عهدهم بهم. فهم سُنَّة، كانَ مشروع رأس أسرتهم وهمه الأول إخراج الصليبيين. هم إذن سُنَّة، وقوم حرب. فكان من الطبيعى أن يحولوا كل المظاهر الدينية الشيعية فى مصر إلى مظاهر سنية، وأن يقيموا للعاصمة سورًا وقلعة للدفاع عنها.

هذا عن النظرة العامة للعمارة. على أن هناك أمورًا أخرى تتضح أكثر إذا ما نظرنا إلى نوعية المنشآت وتوزيعها.

فمسألة إنشاء الخانقاوات فى عهد صلاح الدين، ثم السير على هذا النهج فى عصور خلفائه ومن جاء بعدهم، وعلاقتها بانتشار التصوف التى أشرنا إليها فى السابق، مثال آخر على ما يمكن أن تفصح عنه المنشآت من دلالات جديدة حول أهل القاهرة وحكامها وأحوالهما.

كذلك يمكن أن يشى توزيع نوعيات معينة من المنشآت بحقائق تاريخية كثيرة؛ فوجود سوق فى مكان ما، على سبيل المثال، يشى بكثافة سكانية فى تلك المنطقة و/أو قربها من أماكن العمل. والأمر نفسه يمكن أن ينطبق على بقية المنشآت.

البحث فى أسباب إقامة منشآت ما فى مواقع معينة يمكن أن يشى بالكثير من الحقائق التاريخية التى صمتت عنها المصادر المعاصرة، أو أشارت إليها إشارة عابرة.

وقبل أن أنهى تلك المقدمة، يتوجب علىَّ أن أشير إلى بعض الملاحظات المتعلقة بترجمة اقتباسات المؤلف التى أخذها عن مصادر عربية.

ملاحظات حول ترجمة اقتباسات المؤلف

في كل اقتباسات المؤلف التى أخذها عن مصادر عربية وأوردها بنصها لا بمعناها فقط، رددتها إلى أصلها العربى بنصها.

ولكن، عند رجوعنا لاقتباسات المؤلف عن المقريزي وغيـره، وجـدنا أن المؤلف يختصر أحيانًا بعض الألقاب أو سلسلة نسب أحد الحكام، ويستعيض عنهـا بنقاط ثلاث، كما هي العادة، تخفيفًا منه على القارئ. بيد أننـا استحـسنا عنـد رد الاقتباسات إلى أصلها العربي إيراد سلسلة النسب والألقاب كاملة، حتـى لا نقطـع سياق النص الذي اعتاده القارئ العربي، خاصة من تعـوُّد منًـا علـى مطالعـة النصوص القديمة، وأحسب أن معظم قراء هذا الكتاب من هذه الفئة.

بالنسبة لاقتباسات المؤلف عن تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، فقـد أثبـتُ في الحواشي أرقام صفحات النسخة العربية، وليس النسخة الإنجليزية التـي رجـع إليها المؤلف وأوردها في حواشيه؛ لأنها لن تفيد القارئ العربي إذا أراد الرجـوع إلى الأصل.

وفي النهاية، أرجو أن تكون ترجمة هذا الكتاب إضافة إلى المكتبة العربية، تفيد القراء والباحثين.

عثمان مصطفى عثمان

مقدمة المؤلف

الهدف من هذه الدراسة هو تحديد التغيرات التي شهدتها مدينة القاهرة خلال العصر الأيوبي. وتشمل تلك المنطقة، طبوغرافيًا، المنطقة التي أحاط بها سور القاهرة الفاطمي وكل أجزاء العاصمة المصرية التي طورها الأيوبيون أو استحدثوها، وتشمل تلك المنطقة تحديدًا:

(أ) مدينة القاهرة المسورة.

(ب) الفسطاط.

(ج) كل الأرض الواقعة بين الفسطاط والقاهرة، خاصة تلك التي أحاط بها سور صلاح الدين.

(د) المناطق الواقعة إلى الشمال والشمال الغربي من القاهرة، بما في ذلك المقس والحسينية.

(هـ) القرافة، وهي منطقة الجبانة الواقعة إلى الشرق والشمال الشرقي من الفسطاط.

(و) جزيرة الروضة.

(ز) بعض مناطق الجيزة التي كانت لها علاقة بالبناء في القاهرة، خاصة قناطر قراقوش والجسور.

الفصل الأول

القاهرة فى أواخر العصر الفاطمى

تأسست الفسطاط، أول عاصمة إسلامية لمصر، سنة ٢٠ هـ/٦٤٠ م على يد الجيوش العربية التي كانت قد حاصرت حصن بابليون البيزنطى، المعروف الآن بقصر الشمع[*]. وكانت الفسطاط تمتد من النيل إلى تلال المقطم، وتنقسم إلى خطط للقبائل العربية تتشعب جميعها من جامع عمرو بن العاص. ومع استيلاء العباسيين على الخلافة سنة ١٣٢ هـ/٧٥٠ م انتقلت العاصمة إلى العسكر، شمالى الفسطاط، فيما يعرف حاليًا بحى السيدة زينب، ثم أفل نجم العسكر بتأسيس أحمد ابن طولون سنة ٢٥٤هـ /٨٦٨ م للقطائع (وتعنى القطع المخصصة لكل فرقة). وتقع القطائع إلى الشرق من العسكر، وكانت تمتد حتى الموقع الحالى للقلعة، وكان مركزها هو جامع أحمد بن طولون الذى لا يزال قائمًا حتى الآن. وعقب سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ /٩٠٥ م حل الدمار بجانب عظيم من القطائع، ثم اندمجت المنطقة التى تضم المدن الثلاث وأظلها اسم واحد هو الفسطاط.

أما مدينة القاهرة الفاطمية التى أنشأها جوهر الصقلى سنة ٣٨٥ هـ /٩٦٩م، وتم العمل بها سنة ٣٦١هـ /٩٧١ م، فقد كانت رابع العواصم الإسلامية لمصر.

(*) مازالت تسمية حصن بابليون مستخدمة أيضًا حتى الآن. وهو يقع فى حى مصر القديمة الحالى، وقد بقى منه أطلال برج، وبرج آخر كامل تحول إلى كنيسة مار جرجس، وأحد الأبواب وبعض الممرات المشيد عليها كنائس : المعلقة، وأبو سرجة، والقديسة باربرا. وعلى بعد خطوات منه يقع المسجد الجامع للفسطاط المعروف بجامع عمرو بن العاص. (المترجم)

وقد تأسست تلك المدينة المسورة إلى الشمال من الفسطاط أيضًا في منطقة قليلة السكان متناثرتهم، لم يكن بها إلا دير وقصر صغير وبستان لكافور الإخشيدي وقرية أم دنين على شاطئ النيل (عرفت فيما بعد باسم المقْس).[1] وكان السور الغربي للقاهرة يطل على الخليج، وهو قناة تمتد من الفسطاط إلى الشمال والشمال الشرقي، يمدها النيل بمائه في موسم فيضانه.

وقد أنشئت القاهرة لتكون مقرًا ملكيًا ودينيًا به ما يلزمه من خدمات عسكرية وتموينية. وكانت منطقة "بين القصرين" هي مركز المدينة، وهي عبارة عن ساحة لمسير المواكب تقع بين القصرين الفاطميين الشرقي والغربي. وتختلف حول القصرين أصناف الأسواق ومصانع السلاح والمطابخ والخدمات الأخرى للأسرة المالكة والحاشية وكتائب الجند. وقد خصصت حارات لفصائل الجيش الفاطمي داخل السور وخارجه مباشرة إلى الشمال والجنوب. وإلى الجنوب من القصرين كان يقع الجامع الأزهر، مركز الدعاية الدينية الفاطمية، ودار العلم، وكذلك العديد من المنشآت الإدارية والخدمية.[2]

ضمت قاهرة جوهر الصقلي داخل أسوارها منشآت تقوم بخمس وظائف مختلفة:

(أ) مقار سكن ملكية وغير ملكية، مختلطة في العادة بأماكن الإدارة.

(ب) توفير لحتياجات الدفاع وتجهيز الجند.

(ج) الأسواق ومصانع السلاح لخدمة المنشآت المذكورة في النقطتين السابقتين.

(د) مراكز دينية.

(هـ) مناطق الجبانات.

مقار السكن ومراكز الإدارة

تتبع رافيس Ravaisse، بدقة، مواضع القصور الفاطمية كما وصفها المقريزى، فتوصل إلى أن تلك القصور، إلى جانب كونها مقارًا للأسرة المالكة والحريم، كانت مراكز لمظاهر الأبهة والاحتفالات فى عهد الخلافة الفاطمية.[٣] وكانت تحيط بها قصور صغيرة ومناظر للعائلة المالكة وكبار رجال الدولة، كما أنشئت قصور ومناظر أخرى فى أنحاء القاهرة خاصة فيما يطل منها على الخليج (مثل منظرة لؤلؤ التى أنشأها العزيز).[٤]

توفير الاحتياجات الدفاعية وتجهيز الجند

شُـيِّد السور الأصلى للقاهرة من اللبن، وحُفر إلى الشمال منه خندق كحماية إضافية ضد غارات القرامطة. وداخل جدرانه كانت المجمعات الملكية والإدارية تقع فى قلب المدينة، والتي قُسِّمت إلى حارات خُصص كل منها لفصيل من الجيش الفاطمي، كما أُنشئت حارات للجند إلى الشمال والجنوب من المدينة أيضًا. ويذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن الأسوار الأصلية كانت مهدمة سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦-١٠٤٧ م، نتيجة لتكاثر المـباني عليـها من الـداخل والخـارج على حدٍّ سواء.[٥] وفى فترة مبكرة من العصر الفاطمى أُقيمت إلى الغرب من المدينة، فى المقس، دار لصناعة السفن وترسانة بحرية.

الأسواق ومصانع السلاح

كانت المخازن ومصانع السلاح الأساسية الخاصة بالقصور الفاطمية تقع فى الجنوب والشرق من القصر الشرقى الكبير، بينما تركزت فى منطقة بين القصرين الأسواق التى تمد الخليفة وحاشيته الملكية والدينية والإدارية والعسكرية باحتياجاتهم اليومية، فى حين بقيت الأسواق الأساسية والمنطقة الصناعية التى توفر احتياجات

العامة من الناس فى الفسطاط [٦]، ولم يكن فى استطاعة العامة من أهل الفسطاط الدخول إلى المدينة الملكية إلا بموجب تصريح خاص، فلزموا عاصمتهم التجارية التى كانت لا تزال مزدهرة. وبالإضافة إلى عدد من الآبار غير المعروفة كميات مياهها كان الماء يُحمل إلى المدينة على ظهور الإبل والحمير. [٧]

المراكز الدينية

كان الجامع الأزهر، والواقع إلى جنوب القصر الشرقى، هو مركز السياسة الدينية الفاطمية ودعايتها. وقد اكتمل بناؤه سنة ٣٦١ هـ /٩٧١-٩٧٢ م، فكان أول مسجد جامع فى القاهرة تلاه جامع الحاكم (خارج باب الفتوح مباشرة)، والذى أنشأه الخليفة العزيز[٨] سنة٣٨٠ هـ /٩٩٠-٩٩١ م، بينما انتشرت المساجد الأصغر والزوايا داخل المدينة وخارجها.

مناطق الجبانات

لم تكن هناك مقابر مهمة داخل السور الفاطمى فى سنوات الخلافة المبكرة، باستثناء تربة الزعفران التى ضمَّت أضرحة الخلفاء الفاطميين فى القصر الشرقى. وكانت منطقة الجبانة فى هذا الوقت امتدادًا مستمرًا للقرافة إلى الشرق من الفسطاط. وكان يحدها من الجنوب الرصد والبساتين، ومن الشرق المقطم، ومن الشمال مشهد السيدة نفيسة. وكانت القرافة هى منطقة الدفن الخاصة بالفسطاط منذ الفتح الإسلامى، وحوت مقابر عِلْية القوم من أمثال عمرو بن العاص، وعقبة ابن نافع، والإمام الشافعى. [٦]

ضواحى المدينة الفاطمية المبكرة وامتداداتها (عدا الفسطاط)

شمال القاهرة وشمالها الغربى

أنشأ الفاطميون الأوائل عدداً من الحارات العسكرية إلى الشمال من القاهرة، وكان أهمها حارة الحسينية، والتى انقسمت بدورها إلى عددٍ من الحارات الأصغر لمختلف الوحدات العسكرية. ويقسم المقريزى الحسينية إلى قسمين: أولهما خارج باب الفتوح ويمتد حتى الخندق، ويسكنه الجيش فى عصر الفاطميين، والثانى يمتد من باب النصر شمالاً وحتى الريدانية. ولم يحتوِ القسم الثانى إبان الخلافة الفاطمية إلا على مصلى العيد التى أنشأها جوهر. [٧] وقد سكن الحسينية، طبقًا لابن عبد الظاهر، حوالى سبعة آلاف أرمنى، وضمت عدداً من الأسواق. [٨] وبالرغم من أنه لم يذكر تاريخاً لإنشائها، فإنه من المحتمل جداً أن تكون معاصرة لوزارة بدر الجمالى (٤٦٦ - ٤٨٧هـ/١٠٧٣-١٠٩٤ م).

وقد أصبحت المقس دار صناعة السفن وترسانة للبحرية الفاطمية فى عهد المعز (٣٤١-٣٦٥ هـ/٩٥٣-٩٧٥ م). وكانت تقع المقس بالقرب من منطقة باب الحديد ومحطة مصر بميدان رمسيس حاليًا، وقد بقيت ميناءً للقاهرة لأكثر من مائتى سنة. وقد أشار كليرجيه Clerget إلى عدة أمور ساهمت مجتمعة فى تطور تلك الضاحية الشمالية الغربية للقاهرة، وهى بناء جامع فى المقس، وإقامة مناظر وقصور إلى الغرب من الخليج وترميم الخليج نفسه، واستخدام أراضى طرح النهر من قِبَل سكان القاهرة كمتنزهات، والحاجة للإبقاء على طرق اتصال مع الميناء والترسانة. وطبقًا للشواهد التى يسوقها كليرجيه لا تزال الفترة التى أصبح فيها المقس جزءًا من المدينة محلَّ جدال. [٩]

غرب القاهرة وجنوبها وجنوبها الغربي

أما الشاطئ الغربي للخليج جنوب المقس وشمالي الحمراء القصوى (الحدود الشمالية الغربية للفسطاط)، فقد كانت تشغله في الأساس الحدائق والمناظر وبعض البرك مثل بركة بطن البقرة (الأزبكية فيما بعد)، وبركة الفراعين (في منطقة باب اللوق الحالية). ومع تراكم الأراضي الغرينية إلى الغرب تكونت برك وأضيفت حدائق. وكانت هنـــاك مناظر مطـــلة على شـــاطئ الخليج مثل منظرة اللؤلؤ ودار الذهب. واستخدمت معظم هذه المنطقة كمتنزهات لأهل القاهرة، بالرغم من شدة الفيضان الذي يتلو الفتح السنوي للخليج. (١٠)

وأول المباني الفاطمية التي تسترعي الانتباه إلى الجنوب من باب زويلة هو الباب الجديد الذي شاده الحاكم (٣٨٦-٤١١ هـ/٩٦٦-١٠٢١ م). وقد شيد الفاطميون بين باب زويلة والشاطئ الشمالي والشمالي الشرقي لبركة الفيل ثماني حارات عسكرية. بعض هذه الحارات، كحارة اليانسية مثلاً، أنشأها الخلفاء الأوائل، بينما تأخر منح بعضها الآخر لسكنى الفرق العسكرية، كما حدث مثلاً مع حارة المصامدة، التي لم تُسكن إلا في عهد الآمر(٤٩٥-٥٢٤ هـ /١١٠١-١١٣١ م). وطبقًا للمقريزي، فقد امتدت المباني من الباب الجديد إلى المناطق الفضاء بالقرب من مشهد السيدة نفيسة أثناء العصر الفاطمي، غير أنه لا يعطي أي تواريخ محددة لهذا الامتداد. وقد أُنشئت الحدائق على طول الشاطئ الشرقي من بركة الفيل في عهد الفاطميين الأوائل، وكانت شواطئ تلك البركة – التي أحيطت بالحدائق فيما بعد – خالية من السكان حتى حوالي سنة ٦٠٠ هـ /١٢٠٣-١٢٠٤ م. (١١)

وإلى الجنوب الشرقي من باب زويلة، في منطقة الدرب الأحمر الحالية، كانت هناك جبانة ترجع إلى وقت تأسيس الحارة الواقعة بين الباب الجديد وبركة الفيل. وقد امتدت تلك الجبانة إلى التل الذي تشغله الآن القلعة. (١٢) وكان هذا التل قبل ذلك موضع قبة الهواء، وهي جوسق بناه والي مصر العباسي حاتم سنة

١٩٤-١٩٥ هـ /٨٠٩-٨١١ م. وفى العصر الفاطمى حلَّ عدد من المساجد والقباب محل قبة الهواء. [١٣]

الفسطاط وما حولها فى العصر الفاطمى المبكر

يهمنا، فى دراستنا هذه، أن نتناول الفسطاط فى علاقتها مع ثلاث من المناطق المجاورة لها، وهى تحديدًا: جزيرة الروضة إلى الغرب مباشرة منها، وبركة الحبش والبساتين إلى الجنوب، والقرافة، وهى منطقة الجبانة، إلى الشرق. فقد كانت هذه المناطق - ربما باستثناء القرافة - متصلة بالفسطاط تاريخيًا وجغرافيًا، أكثر من اتصالها بالقاهرة، خلال القرون الوسطى.

وبالرغم من إنشاء القاهرة، فقد ظلت الفسطاط هى العماد الاقتصادى للعاصمة، نظرًا لكونها مركز التجارة، والتموين، والصناعة. وتمدنا نصوص ابن حوقل، وناصر خسرو، والمقدسى، مع استكمالها بنصوص المقريزى، وياقوت، وابن دقماق، والقلقشندى بوصف مادى للفسطاط وما حولها، يمدنا - بالرغم من بعض التناقضات الواضحة، حتى داخل النص الواحد - بصورة لا بأس بها للفسطاط خلال النصف الأول من العصر الفاطمى فى مصر.

كان جامع عمرو هو المركز الدينى والتجارى والإدارى للفسطاط منذ إنشائها سنة ٢٠هـ /٦٤١ م. وقد حظى هذا المركز العلمى والفقهى بالكثير من أعمال الترميم والتجميل فى عهد الحاكم. وكانت الأسواق تحيط بالجامع من جميع الجهات، باستثناء جهة القبلة، وكان أهمها سوق القناديل، إلى الشمال مباشرة من الجامع. وقد جذبت تلك الأسواق الانتباه - خاصة انتباه المقدسى وناصر خسرو - نظرًا لنوعية فخارها وتنوع معروضاتها الأجنبية وثراء وتنوع الفواكه والخضراوات المصرية بها. وكان من المثير للانتباه أيضًا عدد سفن التجار فى الميناء، المحلى منها والأجنبى، والمسافرون، الذين كان معظمهم تجارا، من دولة

الإسلام ومن العالم المسيحى أيضًا. وكان أهل الحرف من المصريين ينتجون الخزف والزجاج والمصنوعات المعدنية والجلود والمنتجات الورقية عالية الجودة، وتشهد العديد من الحفائر الأثرية فى العقود الستة الأخيرة على مهارتهم الفنية فى صناعة الفخار والزجاج. (١٤)

ويقدر ابن حوقل مساحة الفسطاط (حوالى سنة ٣٦٧ هـ /٩٧٨ م) بثلث مساحة بغداد؛ حيث كان طولها فرسخًا واحدًا (أربعة أميال)، وكانت عالية الكثافة السكانية، وبها أراض خلاء واسعة، وأسواق عظيمة، ومراكز ضخمة للتجارة، وحدائق خاصة، وحدائق زهور، ومتنزهات خضراء، وذلك على الرغم من ملوحة الأرض بشكل عام. وكانت معظم البيوت مبنية بالطوب الأحمر، وتتكون عادة من خمسة إلى سبعة طوابق، وعادة ما كانت أدوارها الأرضية غير مستخدمة. وكان يصل عدد سكان بعضها إلى مائتى شخص. وكان بها مسجدان جامعان تُقام بهما صلاة الجمعة، وهما مسجدا عمرو وابن طولون. وكانت أطلال القطائع تحيط بجامع ابن طولون. (١٥)

ويقدم لنا المقدسى، الذى زار الفسطاط سنة ٤٥٣ هـ /١٠٦١-١٠٦٢ م، وصفًا مشابهًا لوصف ابن حوقل. غير أن المقدسى - إلى جانب امتداحه للمنشآت التجارية والمراكز الدينية (ويذكر أيضًا جامعى عمرو وابن طولون بوصفهما مسجدين جامعين تقام بهما صلاة الجمعة) - أفاض فى ذكر سلسلة من مساوئ المدينة، بما فيها ضيق الشوارع وقذارة المنازل والمياه وكثرة الكلاب والذباب وبق الفراش والجرب والخوف الدائم من المجاعة. (١٦) ويصف ابن رضوان - طبيب الخليفة الحاكم - الفسطاط بأنها واحدة من أكثر المدن غير الصحية على الإطلاق؛ فوقوعها فى حوض بين النهر فى الغرب وتلال المقطم فى الشرق، يمنع عنها الرياح الشرقية، ويعرض المدينة لعيوب، وكذلك لمزايا الميناء النهرى المنخفض، نصف المغلق. وبينما كانت المناطق الأكثر ارتفاعًا فى الفسطاط - عمل فوق ومنطقة جامع ابن طولون فى الشمال، والقرافة فى الشرق، والشرف فى الجنوب -

بالفعل فى وضع أفضل من الناحية الصحية، فإن ظروف منطقة المركز (المطلة على النهر) كانت بالفعل غير صحية بالمرة. فلم يتوقف الأمر فقط على ارتفاع البيوت وضيق الشوارع، ولكن السكان اعتادوا أن يلقوا بحيواناتهم الميتة فى نهر الطريق حتى تتعفن، وكذلك فى النهر نفسه. وكان الصرف الصحى يلقى فى النيل مباشرة، وهو المصدر المباشر لكل الموارد المائية تقريبًا. وكانت مداخن العديد من الحمامات تنفث دخانها فى المنطقة بأسرها، ويشتد الغبار، خاصة فى الصيف. وعلى الرغم من تمتع سكان الفسطاط ببعض المناعة من تلك الظروف، فإنهم كانوا هم الأكثر عرضة للأمراض من بين كل المصريين. وخلال الشتاء وبدايات الربيع كانت الأسماك السابحة ضد التيار من البحر المتوسط تصل إلى الفسطاط حيث تتعفن، ولكن سكان الفسطاط والقاهرة كانوا يأكلونها بالرغم من ذلك. وكان النيل بين الروضة والفسطاط كثيرًا ما يجف أواخر الربيع وأوائل الصيف، فيتحول إلى مأوى للعديد من المخلفات التى تلقى فيه وتترك حتى تتعفن. [١٧] ومن الواضح أن فسطاط ابن رضوان لم تكن درة الصحة بحال من الأحوال.

وبينما كان وصف ناصر خسرو للفسطاط، التى زارها سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م، هو الأغزر فى المعلومات – وقد أشرنا آنفًا إلى وصفه للميناء ومرافق السوق – إلا أنه كان كثير المديح فى مبالغة. وقد كانت الفسطاط، طبقًا لهذا الرحالة الفارسى، مشيدة فوق أرض مرتفعة، أقيم فى مرتفع منها على طرف المدينة جامع ابن طولون. وهو ما يشير إلى أن الفسطاط فى ذلك الوقت حوت أيضًا العاصمتين السابقتين وهما العسكر والقطائع، على الأقل حتى جامع ابن طولون. وارتفعت مبانيها إلى ما بين سبعة وأربعة عشر طابقًا، ووصل عدد شاغلى المبنى الواحد منها إلى ٣٥٠ فردًا – وهى مبالغة فى الحالتين، وكان بها سبعة جوامع، أهمها ومركزها جامع عمرو. وهو ما يتعارض مع وصف المقدسى وابن حوقل؛ وربما عدَّ ناصر خسرو أيضًا بعض الجوامع إلى الشرق من الفسطاط

كمسجد القرافة. وقد يعود ذلك إلى أن التفرقة بين المسجد والمسجد الجامع كثيرًا ما يختلط فيها الأمر سواء في تعريفات العصور الوسطى أو في العصر الحديث.

كانت هناك العديد من المناظر والجواسق على امتداد شاطئ النيل. وكانت المياه تُرفع وتُنقل بواسطة السواقي والجمال ثم تمر في قنوات حتى تصل إلى الحدائق التي تعلو بيوت المدينة. وقد سهّل الوصول لجزيرة الروضة جسر مكون من ست وثلاثين مركبًا، غير أنه لم يوجد جسر آخر يصلها بالجيزة من الجهة الأخرى. وقد كانت المراكب الموجودة بشاطئ الفسطاط أكثر من تلك التي في البصرة أو بغداد.(١٨)

ثم يستمر ناصر خسرو في مغالاته في تقريظ الفسطاط وصفًا؛ فلا نجده يشير ولو حتى إشارة عابرة إلى المثالب الأساسية التي ناقشها ابن حوقل والمقدسي. وقد كان ذلك قبل الشدة المستنصرية مباشرة. أما وصفه للقاهرة فبالرغم من فائدته العظيمة، فإنه تميز أيضًا بشدة المبالغة. فمن المستبعد أن تكون الظروف الصحية التي كانت سائدة سنة ٤٣٨ هـ /١٠٤٧ م قد تغيرت بشكل ملحوظ للأفضل منذ رواية ابن رضوان، بل على العكس، تشي الروايات المتعاقبة لابن رضوان والمقدسي بأنها كانت تسوء. وربما كان لميول ناصر خسرو الشيعية دورٌ في كف بصره عن مساوئ الفسطاط. ولكن هناك نقطة واحدة واضحة على أية حال؛ فأيًا كانت النقائص الصحية للفسطاط، فإن سرده المكثف للمنتجات التجارية والمصنوعات المحلية يدل على أن التجارة كانت مزدهرة في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وقد كان ذلك قبل الاضطرابات الداخلية والمجاعة التي وقعت في عهد المستنصر مباشرة، والتي جلبت تصدعًا وفوضى بلغت حد الكارثة. لقد نعم أهل الفسطاط بأمن ورخاء لم يرَ رحالتنا مثيلاً لهما في مكان آخر.

وطبقًا لإحدى الروايات، فقد قام محمد بن طغج الإخشيد بإنشاء حوض لبناء السفن في الفسطاط سنة ٣٢٥ هـ /٩٣٦-٩٣٧ م ليحلَّ محل الأحواض التي كانت

قد بنيت في الروضة سنة ٥٤ هـ/ ٦٧٣-٦٧٤ م و سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٦-٨٧٧ م. وقد شيد هذا الحوض الجديد في بستان الجرف بالقرب من مدخل الخليج (إلى الشرق من البرج الباقي من مجرى العيون الذى أقامه الغورى)[١٩].

ويروى المقريزى فى وصفه للروضة أن محمد بن طغج نقل حوض بناء السفن من الروضة إلى الفسطاط وأحل محله بستان المختار، ولكنه، مع ذلك، يذكر فى مواضع أخرى من مؤلفه أن الحوضين كانا قائمين منذ وقت محمد بن طغج وما تلاه من عصور. وفى عصر الخليفة الآمر، أمر وزيره المأمون بن البطائحى بأن تُبنى سفن الحرب (الشوانى)[*] والمراكب النيلية فى حوض الفسطاط الذى وسُعه، فى حين تبنى السفن الحربية (الحربيات)[**] والشلنديات[***] فى الروضة. ويروى المقريزى أن حوض الفسطاط استمر حتى قبيل سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠-

---

(*) مفردها شينى، أو شانى، أو شينية، أو شونة، وهى "السفينة الحربية الكبيرة، وكانت من أهم القطع الكبيرة التى يتكون منها الأسطول فى الدول الإسلامية، ويستدل من النصوص التاريخية العديدة أن الشينى هو الأصل الذى تتفرع منه أسماء السفن الحربية الأخرى ولواحقها؛ فكل سفينة حربية شينى تحمل اسمًا معينًا يدل على وظيفتها، فمنها الغراب، والطريدة، والجفنة، والحراقة ...إلخ" نقلاً عن درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم، مادة شينى، أو شانى أو شينية، أو شونة. (المترجم)

(**) مفردها حربى وحربية، وهى السفن التى "تنشأ لغزو العدو وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة، فتمر من ثغر الإسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما إلى جهاد أعداء الله فى الروم والفرنج...واللفظ ما هو إلا تسمية عامة لأنواع السفن المختلفة المستعملة فى القتال البحرى، والتى قد يطلق عليها أحيانًا اسم (مراكب مقاتلة). انظر درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم، مادة حربى، وحربية. (المترجم)

(***) جمع شلندى، وهى "مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح، وتعادل فى أهميتها والشونة والحراقة، وأصلها فى اللاتينية Chelandium واستعملها العرب فقالوا: صندل، ويستعملها الفرنج لنقل البضائع، وكانت تعرف عند العثمانيين باسم ماعونة، التى يعرفها البنادقة باسم Mahon " انظر درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم، مادة شلندى. (المترجم)

١٣٠١ م عندما تحول إلى حديقة هى بستان ابن كيسان. وقد حدث هذا التحول بالقطع نتيجة لترسب طمى الفيضان على شاطئ الحوض الشرقى. (٢٠)

وكانت جزيرة الروضة، إلى جانب طابعها الحربى، مدينة عامرة فى بدايات العصر الفاطمى لها والٍ وقاضٍ. وخلال عصر العزيز كانوا يتكلمون عن "القاهرة، ومصر، والجزيرة." (٢١) وعندما زار ناصر خسرو الروضة كانت الجزيرة تزدان بجامع وكثير من البيوت والجواسق الفخمة والبساتين غير أنه يذكر أنه كانت هنا مدينة سابقة؛ مما يوحى بأن الجزيرة أصبحت مكانًا قاصرًا على الاستجمام. ولكن الجيزة، من جهة أخرى، كانت مركزًا تجاريًّا كبيرًا ، وكانت منطلق قوافل المغاربة، كما كانت أيضًا من المواضع التى تقصد لجواسقها ودورها البعيدة عن الظروف الصحية الأسوأ فى الفسطاط. (٢٢)

كانت بركة الحبش، الواقعة إلى الجنوب من الفسطاط أكبر البرك التى كونها الطمى فى القاهرة. وكانت تستمد ماءها، جزئيًّا على الأقل، من ماء النيل عن طريق خليج بنى وائل وبركتين صغيرتين. وكانت بركة الحبش موضع العديد من جواسق علية القوم من الفاطميين. (٢٣) وإلى الشمال كانت تقع القرافة التى عرفت فيما بعد بالقرافة الكبرى، تلك الجبانة التى تضم رفات أوائل الوجوه الدينية والسياسية، والتى يشد إليها الرحال لما تحويه من مساجد ومشاهد ومقابر مهمة، للعديد منها حظ وافر من الجمال. هذا إلى أن القرافة كانت فى العصر الفاطمى موضع العديد من القصور والجواسق التى تخص علية القوم القاهريين، وكانت قد أصبحت بالفعل "مدينة الأموات"، وبالرغم من أن كليرجيه يعتبر القرافة فى هذا الوقت "نموذجًا للمدينة الجنائزية الإسلامية"، غير أن ظاهرة كتلك وبهذا الحجم لم يكن لها مثيل فى مكان آخر من العالم الإسلامى على حد علمى. (٢٤)

القاهرة فى أواسط القرن الخامس الهجرى

مصادرنا عن القاهرة فى منتصف القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى، هى مثل مصادرنا عن الفسطاط، أى أنها فى الأساس: ناصر خسرو، والمقريزى، وابن رضوان. ويذكر ابن حوقل، فى وصف مقتضب للقاهرة حوالى ٣٦٧ هـ / ٩٧٨ م أن أسوار جوهر كانت تحيط بمنطقة مفتوحة تماثل ثلاثة أضعاف ما كان مبنيًا منها. وكانت تلك المناطق المفتوحة مخصصة للاحتفاظ باحتياطى الحيوانات فى حالة حدوث هجوم على المدينة. وكانت المدينة مازالت تحتفظ بالكثير من المساحات غير المستغلة بعد ذلك بسبعين سنة. فطبقًا لناصر خسرو، كانت البساتين وأشجارها تفصل البيوت عن بعضها البعض بحيث لا تلمس أشجار أحدها أسوار الآخر، حتى إن أحد البيوت يمكن أن يهدم دون أن يضر بجاره. والقصور التى يصفها بكثير من التفصيل، بالرغم من أنه لا يقترب من تفاصيل المقريزى، كانت شاهقة الارتفاع ولا ملحقات لها. وكما ذكرنا من قبل، فناصر خسرو يذكر أن المدينة لم تكن محاطة بسور محصن، ولكن المبانى والبيوت نفسها كانت أعلى من سور محصن، وبعضها يرتفع لخمسة أو ستة طوابق. وكانت بيوت القاهرة مشيدة من المرمر الثمين، وليس من الجص أو الطوب أو الأحجار العادية. وكان بالمدينة ٢٠ ألف حانوت، كثير منها مؤجر، وكذلك الحال بالنسبة للخانات، والمبانى العامة الأخرى. ويذكر خسرو أربعة جوامع فى القاهرة هى الأزهر، والنور، والحاكم، والمعز (المقص).[٢٥]

ويذكر ناصر خسرو أن الآبار التى كانت تُحفر بالقرب من النيل كانت تمد القاهرة بالماء العذب، بينما كانت تلك المحفورة على مسافات أبعد، ماؤها مالح.

وكانت مياه الشرب تحمل من النيل على ظهور الجمال، بينما يجوب السقائون الشوارع التى لا تستطيع الجمال أن تمر فيها. وكانت الآبار داخل المدينة، والتى أحيانًا ما كانت تدق عليها طلمبات، تستخدم فى رى البساتين والحدائق. وكانت المسافة بين القاهرة ومصر (الفسطاط) تملؤها البساتين وبعض

البيوت." خلال الصيف، كانت الأرض كلها تشبه المحيط الذى تبرز فى وسطه حدائق السلطان التى لا يصل إليها الفيضان لارتفاعها." على أن موضع تلك الحدائق غير مؤكد لنا. (٢٦)

أما ابن رضوان، والذى وضع مؤلفه ربما فى أواسط القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، فقد كان يرى أن القاهرة كانت أفضل بكثير من الناحية الصحية من الفسطاط. فقد كانت القاهرة مفتوحة أكثر للهواء، وبيوتها أقل ارتفاعًا وشوارعها أفضل حالاً، فكانت بشكل عام أقل تلوثًا وعرضة للتدهور، خاصة وأن معظم المخلفات كانت تلقى خارج المدينة. غير أن القاهرة لم تخلُ من نقائص؛ فمعظم الماء كان يأتى من آبار قليلة السعة وضحلة حتى إن المراحيض كانت ترتشح بها. وكانت المنخفضات بين الفسطاط والقاهرة تمتلئ برشح الأرض خلال أيام الفيضان. وبعض مصارف القاهرة كانت تصب فى تلك المنخفضات فتلوث الماء وتخرج منها الأبخرة الكريهة لتهب على القاهرة والفسطاط على حد سواء، فكانت الريح إذا هبت جنوبية تحمل الهواء الفاسد من الفسطاط وهذه المنخفضات إلى القاهرة، خاصة الأحياء الجنوبية منها. هذا بالإضافة إلى أن أهل القاهرة كانوا يشربون مياه الخليج فى موسم الفيضان، بعد أن تكون قد مرت على شاطئ الفسطاط فتلوثت منه. وينحو ابن رضوان باللائمة فى المساوئ الصحية بالقاهرة على جارتها الفسطاط. فعلى مستوى الصحة يرتب الطبيب المناطق التالية من الأفضل للأسوأ: القرافة، فالقاهرة، فالشرف (المرتفعات المتاخمة للفسطاط من الجنوب)، فعمل فوق، والحمراء، فالجيزة، فالفسطاط كأسوئها خاصة حول مسجد عمرو. وهو يصف المقص (التى تقع على شاطئ النيل) بأنها رطبة والخندق بأنه منخفض موحل. (٢٧)

هذا الوصف الذى أورده ناصر خسرو وابن رضوان للقاهرة – حتى مع مبالغات ناصر خسرو وقسوة ابن رضوان، التى ربما تصدق فى نقده للظروف الصحية – تقدم لنا القاهرة فى شكل أكثر جاذبية بكثير من الفسطاط. فالبطائح

(المنخفضات) بين القاهرة والفسطاط ربما تشير إلى بركة الفيل وبركة قارون وبركة الفراعين. [٢٨] والحدائق والقليل من البيوت فى منطقة تلك البرك الغرينية الأرض، بالرغم من أنها ربما كانت تمثل أماكن استجمام جذابة لساكنى المدينتين، فقد كانت مع ذلك معرضة لبعض ما يقلق الراحة والأمراض المنتشرة فى المنطقة. غير أن هناك نقطة ملحوظة؛ فبالرغم من مبالغات ناصر خسرو وأوصاف ابن رضوان السلبية فإن القاهرة والفسطاط كانا مجتمعين مزدهرين سنة ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٧ م. أما الشدة المستنصرية، فلم تكن قد نزلت بعد بعاصمة مصر.

الشدة المستنصرية

(حوالى ٤٥٠-٤٦٦ هـ / ١٠٥٨ - ١٠٧٤ م)

هناك الكثير من المصادر التى وثقت للأزمات السياسية فى تلك الفترة؛ لذا فسوف نتناولها بإيجاز هنا. بداية من عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤-١٠٥٥ م نشب الصراع بين الجند الأتراك والبرابرة للهيمنة على العبيد السودان، واجتمعت لنتائج هذا الصراع سلسلة من الفيضانات المنخفضة للنيل، أسلمت البلاد لعشرين عامًا من الفوضى والمجاعة والأوبئة، ليس فى العاصمة المصرية فقط، ولكن فى كل ربوع الديار المصرية. واستطاع أحد الوزراء وهو اليازورى أن يسيطر على الفصائل المتحاربة. ولكن بعد اغتياله سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨، سادت الفوضى مرة أخرى. وظلت الخلافة بلا وزير قوى، وأصبح المستنصر لعبة فى يد الجند الأتراك حتى تعيين بدر الجمالى فى الوزارة سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م. ومع إقصاء السود إلى مصر العليا وطرد البربر (حلفاء الأتراك فى السابق) إلى الدلتا، وقعت العاصمة

تحت هيمنة الترك منفردين. وبينما وقعت الأقاليم المصرية فى يد قطاع الطرق كانت القاهرة والفسطاط فريسة لسلب ونهب الأتراك. (٢٩)

وكانت أشد فترات الأزمة هى فترة المجاعة ٤٥٧ - ٤٦٤ هـ / ١٠٦٤-١٠٧٢م. فإلى جانب تقلبات النهر، لعبت الفوضى فى الريف دورًا كبيرًا فى تلك المجاعة؛ فالغارات والغارات المضادة بين الترك والبربر والسودان فى كل الأقاليم المصرية أتلفت - إن لم تكن دمرت - نظم الرى فى مصر كلها. وطبقًا للنساب (الجوانى): "استمر النيل يعلو وينخفض، ولكن لم يكن أحد هناك ليفلح الأرض؛ فقد عم الخوف من الجند ومن قطاع الطرق من العبيد كل الأنحاء" . أسفر كل ذلك عن مجاعة وأوبئة فى القاهرة والفسطاط صاحبها ارتفاع فى الأسعار ومجاعة وصلت إلى حد أكل لحوم البشر وارتفاع الوفيات بشكل حاد، مما أدى إلى إهمال عدد لا يحصى من المنشآت وسلبها وتدميرها - مساكن كانت أم لم تكن - فى المنطقة بأسرها. (٣٠)

وفى ذلك يقول المقريزى :

> "وبسبب هذا الغلاء خرب الفسطاط وخلا موضع العسكر والقطائع وظاهر مصر مما يلى القرافة حيث الكيمان الآن إلى بركة الحبش فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى مصر وقام بتدبير أمرها نقلت أنقاض ظاهر مصر مما يلى القاهرة حيث كان العسكر والقطائع وصار فضاء وكيمانا فيما بين مصر والقاهرة وفيما بين مصر والقرافة وتراجعت أحوال الفسطاط بعد ذلك حتى قارب ما كان عليه قبل الشدة." (٣١)

هذه الفقرة تحتاج منا إلى بعض التوضيح والتفصيل. فقد كان تعيين بدر الجمالى، بالإضافة إلى تحسن المحصول فى سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢-١٠٧٣ م، هو الذى رفع العاصمة والبلاد بأسرها بالفعل من غياهب الفوضى والخراب، وتم قمع الفصائل المتحاربة، إن لم يكن القضاء عليها، وإصلاح الاقتصاد. بيد أن القاهرة والفسطاط قد أصابهما تحول أبدى. فبالرغم من أن هجرة السكان والإهمال شملا كل الأنحاء، فإن إعادة الحياة للقاهرة بوصفها العاصمة الحقيقية كانت له الأولوية القصوى. وقد أدت إعادة استخدام مواد البناء فى المدينة إلى القضاء على الكثير من أطلال المبانى فى منطقتى القطائع والعسكر، إن لم يكن القضاء عليها كلها. وكان الوزير البازرى قد أمر فى فترة سابقة ببناء سور ليستر أطلال القطائع والعسكر، فشيد هذا السور بين الأطلال والطريق الذى كان يستخدمه الخليفة إذا أراد السير إلى الفسطاط. وقام البازرى أيضًا بتشييد سورٍ ثانٍ (ربما لنفس الغرض) بالقرب من مسجد ابن طولون. ودليلنا على بقاء الكثير من تلك الأطلال هو رواية المقريزى لما تلا ذلك من أحداث فى عهد الخليفة الآمر (٤٩٥-٥٢٤ هـ / ١١٠١-١١٣١ م).[٣٢]

غير أن أهم عمارة فى عصر بدر الجمالى كانت إعادة بناء وتوسيع أسوار وأبواب القاهرة نفسها. فكما ذكرنا آنفًا، كان السور الذى شيد من الطوب اللبن فى عهد جوهر قد انهار عندما زار القاهرة ناصر خسرو (بالرغم من وجود بعض الأطلال البسيطة التى كان يمكن رؤيتها، والتى سجلها المقريزى فى أواخر القرن التاسع الهجرى). وبينما لم يطرأ على موضع الأبواب تغير، فإن السور نفسه تمت توسعته؛ إذ امتد فى الناحية الغربية ليقترب أكثر من حافة الخليج، بحيث يستطيع أن يضم شارعًا جديدًا يمتد من الشمال إلى الجنوب، وهو الذى يعرف الآن بشارع بين السورين، بينما ضم السور الشرقى الجديد مساحة صغيرة جديدة خاصة فى منطقة حارة الباطلية. أما السور الشمالى، والذى بقى الكثير منه، فيضم الآن حارة الريحانية وجامع الحاكم، بينما يصل السور الجنوبى إلى باب زويلة الحالى.

ويتضح من خرائط رافيس وكريزويل أن المساحة الجديدة التى ضمتها الأسوار لم تكن ذات بال، وربما يرجع ذلك إلى حجم الدمار داخل الأسوار والحاجة لترميم المنطقة الأصلية. (٣٣)

والنقطة الملحوظة هنا هى أن المنطقة التى كانت بالأمس الفسطاط الكبرى (التى تشمل الفسطاط والعسكر والقطائع) تقلصت الآن لمنطقة يجرى حدها الشرقى تقريبًا من النقطة الغربية لبركة الحبش إلى منطقة جامع ابن طولون، ولم تر الفسطاط أقصى حدودها اتساعًا إلا بعد ذلك بقرن من الزمان. (٣٤)

عصر الخليفتين الآمر والحافظ

(٤٩٥-٥٤٤ هـ/١١٠١-١١٤٩ م)

أثمرت وزارة بدر الجمالى ثم ابنه الأفضل (توفى ٥١٥ هـ/١١٢١م) فترة من الاستقرار والازدهار النسبيين للقاهرة. وخلال تلك الفترة وما بقى من حكم الآمر شهدت المناطق المحيطة بالعاصمة عددًا من التغيرات.

القسم الشمالى

كانت المنطقة إلى الشمال من باب النصر غير مستخدمة، باستثناء حدائق الريدان (الريدانية) ومصلى العيد. وكان قبر بدر الجمالى (توفى ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) هو مستهل جبانة باب النصر، وبقيت تلك المنطقة تستخدم فى الدفن حتى بعد سنة ٧٠٠ هـ /١٣٠٠-١٣٠١ م. وإلى الشمال من باب الفتوح كانت هناك بساتين ومنظرة. وبعد سنة ٥٠٠ هـ /١١٠٦-١١٠٧ م بنت طائفة الحسينية عددًا من المساكن خارج باب الفتوح، وامتدت حتى الخندق. (٣٥)

القسم الغربى

اتسعت المنطقة الواقعة بين الخليج وشاطئ النيل الشرقى حول سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦-١١٠٧ م بفعل ترسيب طمى النيل ، وطبقًا للمقريزى فقد انحسر النيل لتظهر منشأة الفاضل (منشأة المهرانى فيما بعد) وبستان الخشاب. وكانت المنطقتان ضمن منطقتى فم الخليج والسيدة زينب حاليًا، وسوف نتناولهما فيما بعد بالتفصيل. كانت هذه الفترة أيضًا هى فترة تكون جزيرة الفيل المواجهة لأرض البعل (شمال المقص). هذه الجزيرة السابقة أصبحت الآن جزءًا من حى شبرا. وقد بقى شاطئ النيل بين منشأة المهرانى وأرض البعل، باستثناء المنطقتين سالفتى الذكر، دون تغيير خلال العصر الفاطمى، وتزايد ترسيب الطمى تدريجيًا، طبقًا للمقريزى بين عامى ٥٠٠ هـ /١١٠٦-١١٠٧ م و ٧٠٠ هـ /١٣٠٠-١٣٠١م. هذه "الجزر الجديدة" أضافت لمناطق سابقة مثل اللوق التى كانت كلها بساتين تنتثر فيها البرك الغرينية. وقد بقيت، كما كانت فى السنين الأولى من العصر الفاطمى أماكن مفضلة للنزهة ولإقامة الجواسق والفرار من زحام القاهرة والفسطاط وظروفهما الصحية السيئة. [٣٦]

المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية

إلى الجنوب من القاهرة بقيت مناطق القطائع والعسكر والفسطاط المتهدمة كما هى خلال وزارة بدر الجمالى. وبالرغم من أن بدر الجمالى أزال كمًّا كبيرًا من مواد البناء لعمل الترميمات اللازمة داخل القاهرة، فإن بقايا المبانى كانت تكفى للوفاء بأمر إعادة البناء الذى أصدره الوزير البطائحى ربما بعد ٥١٥ هـ/١١٢١-١١٢٢ م بفترة قصيرة. وكان مرسومه يقضى بأن من يملك بيتًا أو ملكًا فى المناطق المتهدمة فى القاهرة أو مصر (الفسطاط) عليه أن يعيد سكناه أو يعيد البناء عليه فى غضون ثلاثة أيام، ومن لم يكن يملك تكلفة إعادة البناء كان عليه إما بيع

ملكه أو تأجيره أو التنازل عن حقوق ملكيته. بالإضافة إلى ذلك، فقد شُيِّد سور لإخفاء أطلال العسكر والقطائع (ولا نعرف على وجه التحديد ما إذا كان هذا السور تاليًا لذلك الذى ذكره البلاذرى أو لا.) [٣٧]

ويبدو أن هذا الإعمار والتجديد إنما جرى فى تخوم الشارع الأعظم، الطريق الرئيسى حتى يومنا هذا بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة. [٣٨] وكان هذا الشريان، فى العصر الفاطمى، يتفرع إلى فرعين عند شارع الصليبة الذى ما زال باقيًا إلى الشمال الشرقى من جامع ابن طولون. وكان هذان الفرعان هما الطريقين الرئيسيين بين القطائع والفسطاط. كان الطريق الشرقى يمتد بالشارع الأعظم إلى مشهد السيدة نفيسة؛ حيث ينحرف إلى الجنوب الغربى ليصل مباشرة إلى باب الصفاء، البوابة الشرقية للفسطاط، بينما كان الطريق الغربى بمثابة استطالة للصليبة يعبر الجسر الأعظم بين بركة الفيل وبركة قارون، ثم يمتد جنوبًا بغرب إلى فم الخليج وباب الساحل ثم يسير بشاطئ الفسطاط إلى قصر الشمع وجامع عمرو. [٣٩]

وكان هذا الطريق الأخير، أو الطريق الغربى، هو الطريق الذى يسير فيه الخليفة فى الاحتفال السنوى بفتح الخليج، بينما كان الطريق الشرقى، طبقًا لسالمون ، Salmon، هو الطريق الذى يتخذه الخليفة فى موكبه إلى الفسطاط للصلاة فى جامع عمرو. وبالرغم من أن مصدر سالمون فيما ذهب إليه غير مؤكد فإنه مرجح جدًّا؛ إذ إنه الطريق الأكثر استقامة بين القاهرة والفسطاط. وربما كان السور الذى شيد لإخفاء المناطق المتهدمة من القطائع والعسكر قد شُيِّد على طول أحد أو كلا الطريقين. [٤٠]

وكما ذكرنا آنفًا، فقد كان أول بناء يقام خارج باب زويلة هو الباب الجديد الذى أقامه الخليفة الحاكم. وتلاه إنشاء عدد من الحارات العسكرية منها حارة الحسينية وحارة الهلالية. [٤١] وقد شُيِّدت تلك المنشآت على جانبى الشارع الأعظم متزامنة مع تطوره كطريق رئيسى يصل بين القاهرة والفسطاط وكشريان رئيسى

يخدم الحارات العسكرية نفسها. وكانت حارة المصامدة أحد أعرض الحارات، وقد أنشئت فى عهد الآمر على يد وزيره البطائحى بعد ٥١٥ هـ /١١٢١-١١٢٢ م. وإلى جانب إيوانها لطائفة المصامدة، وهى إحدى طوائف العساكر الفاطمية كان يتزعمها عبد الله المصمودى، أسهمت تلك الحارة أيضًا فى تحسين خطة البطائحى فى إعادة تطوير المنطقة. [٤٢] فقد تركزت جهود البناء، على ما يبدو، إلى حد كبير على شريان الشارع الأعظم وامتداده الشرقى إلى الفسطاط. وفى ذلك يقول ابن عبد الظاهر:

> "وعمروه حتى صار البلدان [الفسطاط والقاهرة] لا يتخللهما داثر ولا دارس وبنى فى الشارع يعنى خارج باب زويلة من الباب الجديد إلى الجبل عرضًا وهو القلعة الآن...وعمر ذلك حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يصلون العشاء الأخيرة بالقاهرة ويتوجهون إلى مساكنهم فى مصر لا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موقود إلى باب الصفا ...وذلك أنه يخرج من الباب الجديد الحاكمى على يمنة بركة الفيل إلى بستان سيف الإسلام وعدة بساتين وقبالة جميع ذلك حوانيت مسكونة عامرة بالمتعيشين إلى مصر والمعاش مستمر الليل والنهار" [٤٣].

واستمر نشاط البناء فى عهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٤ هـ/١١٣٠-١١٤٩م)، على نفس خط حارة المصامدة وإلى الجنوب منها، على أن الحدود الجنوبية غير مؤكدة؛ فالمقريزى يعتقد أنها وصلت إلى منطقة مشهد السيدة نفيسة، أى أنها سارت تقريبًا على نفس طريق الشارع الأعظم. وكانت تلك المبانى طبقًا لابن عبد الظاهر بيوتًا بها حوانيت فى أدوارها الأرضية. [٤٤]

وفى وصف المقريزى لظواهر القاهرة الفاطمية يذكر أن السهل الممتد بين الشارع الأعظم والجبل (موضع القلعة حاليًا) كان خلوًا من البناء حتى بعد سنة ٥٠٠ هـ /١١٠٦-١١٠٧ م باستثناء حارات العسكر (اليانسية، والهلالية، والمصامدة فيما بعد). وعندما شيد الوزير الصالح طلائع مسجده إلى الجنوب الشرقى من باب زويلة (٥٥٥ هـ /١١٦٠ م) تحولت المنطقة خلف هذا المسجد والممتدة مما كان يعرف بالقطائع (حاليًا، الرميلة أسفل القلعة) إلى منطقة جبانة لسكان القاهرة حتى نهاية العصر الفاطمى.[٤٥] وبالرغم من أن ذلك لا ينفى تمامًا مقالة المقريزى السابقة بأن إعادة البناء فى عهد الصالح طلائع امتدت حتى الجبل المذكور، فإنه من غير المحتمل أن يكون قد حدث تطور عمرانى كبير حوالى سنة ٥١٥ هـ/١١٢١- ١١٢٢م؛ فمهد لوجود منطقة جبانة بعد ذلك بأربعين سنة فى منطقة وصفت بأنها خالية. قد يشير ذلك إذن إلى أن مقالة المقريزى السالفة الذكر إن هى إلا محض مبالغة.[٤٦] وربما اتبع التطوير الذى تم على يد البطائحى الشارع الأعظم وامتداده الشرقى إلى الفسطاط.

حريق سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م

أُحرِقت الفسطاط لمنع الصليبيين بقيادة عامورى من الاستفادة بموقعها الاستراتيجى فى الانقضاض على أسوار مدينة القاهرة. والسؤال هنا يدور حول تحديد ما طاله الحريق من مناطق مقارنة بما كان قد أصابه الخراب بالفعل قبل الحريق. ويبدو هذا السؤال أكثر أهمية بالنسبة للمنطقة التى تقع حول جامع عمرو وقصر الشمع، والتى ظلت على سلامتها نسبيًا ورممت وأهلت بالسكان فى عهد صلاح الدين. وليس لدينا حتى الآن دليل أثرى لا يرقى إليه شك على سكنى الأيوبيين للفسطاط. ومثل هذا الدليل، إن وجد، يجب أن يُثبت – حتى يزول عنه

الشك – أن الفسطاط كانت مأهولة على نحو لا انقطاع فيه أو أن تشهد أطلالها الفاطمية على إعادة إعمار الأيوبيين لها، وهو ما لم نجده حتى الآن. لقد كشفت حفائر جورج سكانلون George Scanlon في كوم الجارح وإلى الشرق من جامع عمرو عن طبقات غير مضطربة توحى بشكل عام برخاء عم تلك الناحية أواخر القرن الخامس/ الحادى عشر. (٤٧) أما حفائر على بهجت الكثيفة شرقى قصر الشمع فقد كان يعوزها، للأسف، الضبط، إلى جانب افتقارها لتحديد الطبقات. وقد كشفت تلك الحفائر عن جزء من سور صلاح الدين (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ – ١١٧٧م) بُنى فوق أطلال بناء سابق. غير أن تاريخ تحول هذا البناء لأطلال مازال غير مؤكد. فأعمال السلب التى أعقبت الحريق وانتزاع مواد البناء من المنطقة وإلقاء النفايات الذى لم يتوقف بها، كل ذلك أدى إلى ذهاب طبقة الرماد، وبالرغم من وجود أمارات متفرقة على احتراق بقايا بعض البنايات ، فإن من المستحيل إثبات أنه قد نتج عن اندلاع حريق بعينه.

وإذا أخذنا فى الاعتبار حالة الحفظ التى بقى عليها جامع عمرو وقصر الشمع والمنطقة المحيطة بالفسطاط التى رممت فيما بعد، فإننا لا نرجح أن يكون حريق ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م قد امتد إلى الغرب أكثر من امتداده فى الحدود الشرقية للفسطاط كما كانت فى عصر المماليك، وفى الوقت الحالى أيضًا. ويؤيد ذلك أيضًا وصف أبى صالح للكنائس فى تلك المنطقة، والتى سوف نتناولها بالدراسة عند دراستنا للفسطاط الأيوبية فى الفصل الثالث.

ملخص

بعد حريق سنة ٥٦٤ هـ /١١٦٨ م كانت طبوغرافيا القاهرة الكبرى [فى ذلك الوقت] كالتالى: بقيت القاهرة التى أصابتها تقلبات القرن السابق وعَجَّت بالفارين من الفسطاط، داخل حدود أسوار بدر الجمالى. وجرت توسعاتها الكبرى

فى الحسينية إلى الشمال والحارات التى تقع إلى جنوب باب زويلة. وشملت مناطق الجبانات الحديثة باب النصر والمنطقة الواقعة بين باب زويلة والرميلة. واحتلت الأراضى الواقعة بين القاهرة والنيل حدائق وبعضًا من جواسق، وكذلك الحال أيضًا بالنسبة لجوار بركة الفيل وبركة قارون فى الجنوب الشرقى. أما ما كان يعرف بالعسكر والقطائع، بالإضافة إلى الجانب الأعظم من الفسطاط، فقد كانت خرائب، فى حين بقيت القرافة تقريبًا على حالها. وبقيت جزيرة الروضة، مثلها فى ذلك مثل بركة الفيل، منطقة حدائق ومتنزهات وجواسق.

الهوامش

(١) Ravaisse, pp. 415 - 17

(٢) Ibid., pp. 420 - 80

(٣) المقريزى، المواعظ، ج. ١، صص ٣٤٨، ٣٨٣-٣٩٠ .

(٤) المصدر السابق ج. ١، صص. ٤٦٥-٤٦٨ .

(٥) Nsir-I Khusraw, p. 131-I Khusraw, p. 131

(٦) Clerget, pp. 141-142

(٧) Ibid., vol. 1, p. 126; Nasir-I Khusraw, p. 132

(٨) Lane-Poole, pp. 123-24, 137

(٩) Clerget, vol.1, pp. 114-15

(١٠) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص. ٢١-٢٢.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) Clerget, vol.1, p. 131

(١٣) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٣٦١، ٤٦٧، ٤٧٠؛ ج٢، ص ص ١٠٩-١١١؛ Clerget, vol. 1, p. 140

(١٤) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ص ١٠٠-١٠١؛ Salmon, pp. 50, 51, 54-63, 69

(١٥) المقريزى، المواعظ، جـ٢، ص ١٣٦؛ Lane-Poole, p. 65

(١٦) Lane-Poole, p. 65

(١٧) ناصر خسرو، صص ١٤٧-١٥٣؛ المقدسي، ص ص ١٩٧-٢٠٠ .

(١٨) ابن حوقل، ج١، صص ١٤٤-١٤٥.

(١٩) المقدسي، صص ١٩٧-٢٠٠.

(٢٠) المقريزى، المواعظ، ج١، صص ٣٣٩-٣٤٠.

(٢١) ناصر خسرو، صص ١٤٥-١٥٦.

(٢٢) Lane-Poole, p. 96

(٢٣) المقريزى، المواعظ، ج.٢، صص. ١٨١ ـ ١٨٢، ١٩٦-١٩٧.

(٢٤) المصدر السابق، ص ١٨١. كان يطلق على الفسطاط اسم مصر منذ بدايات العصر الإسلامي، وأحيانا ما كان يقال أيضًا فسطاط مصر أو مصر الفسطاط. على أن المقريزي قصد بها في هذا الموضع منطقة الفسطاط والعسكر والقطائع. وكان يطلق على جزيرة الروضة في العصور الوسطى اسم "الجزيرة" فقط.

(٢٥) ناصر خسرو، صص ١٥٢-١٥٣؛ Clerget, vol.1, p.136

(٢٦) Clerget, vol.1, p.135

(٢٧) Ibid.؛ المقريزي، المواعظ، ج٢، صص ٤٤٣-٤٦٣.

(٢٨) ابن حوقل، ج١، ص ١٤٥؛

(٢٩) ناصري خسرو، صص ١٣٢-١٣٦.

(٣٠) المقريزي، المواعظ، ج١، صص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٣١) Clerget, vol.1, map opposite p. 26

(٣٢) Lane-Poole, pp. 146-49؛ المقريزي، المواعظ، ج١صص ٣٣٥ ـ ٣٥٧، Clerget, vol.1, pp. 137-39

(٣٣) Lane-Poole, pp. 146-49؛ المقريزي، المواعظ، ج١، ص ٣٣٧.

(٣٤) المقريزي، المواعظ، ج١، ص ٣٣٧.
(٣٥) Lane-Poole, pp. 146-49؛ المقريزي، المواعظ، ج١ص٤ ٣٦؛ ج٢، ص ٢٦٥.
(٣٦) Creswell, vol. 1, map oosite p. 19, Ravaisse, plate 2
(٣٧) المقريزي، المواعظ، ج١، ص ٣٣٧.
(٣٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ص ١١٠-١١١.
(٣٩) المصدر السابق، ص١٠٩.
(٤٠) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٥.
(٤١) Slamon, p. 74
(٤٢) Ibid.
(٤٣) Ibid., pp. 50-65
(٤٤) المقريزي، المواعظ، ج ١، ص. ٣٠٥؛ ج ٢، ص٢٠، ١٠٠؛ Slamon, pp. 58-60
(٤٥) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص ٢٠، ١٠٠.
(٤٦) المصدر السابق، ص ٢٠؛ Slamon, pp. 58-59
(٤٧) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص ٢٠.
(٤٨) المصدر السابق، ص ١٠٠.
(٤٩) rget, vol. 1, p. 139
(٥٠) iak, pp. 51-64

الفصل الثانى

مصر الأيوبية: موجز تاريخى

شهدت الخلافة الفاطمية فى أواسط القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى انهيارًا لن تكون له ردة؛ فقد أصبح الخلفاء، الذين نزعت عنهم كل سلطة حقيقية، قطع شطرنج فى يد وزراء نزعت عنهم الضمائر، وثبت لهم تغييرهم المستمر. وائتلفت على الحكم عوامل إضعاف تمثلت فى تنافس داخلى بين فصائل القصر وصراع بين عناصر العسكر (الترك والسودان) وتدمير متبادل بين تلك الفصائل. وبعد أن تقلص سلطان الفاطميين أصبحت المساحة التى يغطيها هذا السلطان لا تزيد إلا قليلاً عن مصر نفسها وتخومها الشمالية الشرقية من فلسطين. كذلك اجتمعت الفوضى إلى المجاعة والوباء وعدم جمع الضرائب وانخفاض قيمة العملة لتلعب جميعًا دورها فى إضعاف الاقتصاد، بالرغم من أن الزراعة والصناعة والنشاط التجارى لمصر بقيت – نسبيًا – بلا أضرار تذكر. كان الاضطراب السياسى هو الذى أوصل الخلافة إلى نقطة اللاعودة[1].

لقد كان انحدار ثم اندثار الخلافة الفاطمية مرتبطًا ارتباطًا مباشرًا بسياسات الاعتداء والعداء المتبادلة بين شخصيتين شديدتى الحيوية هما: عمورى ملك بيت المقدس الصليبى، ونور الدين زنكى حاكم الموصل وحلب ودمشق. وكانت هناك عوامل ثلاثة تحرك خطط نور الدين فيما يتعلق بمصر؛ أولها أن حالة الضعف التى أصابت الخلافة الفاطمية جعلت من مصر لقمة سائغة أمام الصليبيين الذين رفع نور الدين راية الجهاد ضدهم. وثانيها أنه كان يطمح للاستفادة من موارد

مصر الاقتصادية في تمويل حملاته. وثالثها رغبته في إعادة المذهب السنى إلى مصر. أما الصليبيون فقد كان وضعهم متحرجًا من الزنكيين في الشمال والشمال الشرقي، فكانوا لذلك يتطلعون هم أيضًا إلى مصر لتوسيع نطاق سياساتهم الهجومية. وقد حاول الوزير الفاطمي شاور أن يبقى سيطرته المتزعزعة على الحكم باستعداء الزنكيين على الصليبيين مستخدمًا في ذلك الحنكة الدبلوماسية والخداع المفاجئ في آن واحد؛ فبين عامي ٥٥٨ هـ / ١١٦٢-١١٦٣م و ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م كان الصليبيون والزنكيون قد غزا كل منهم مصر ثلاث مرات انتهت بحصار عموري الفاشل للقاهرة ثم انسحابه نهائيًا إلى فلسطين قبيل وصول قوات نور الدين.

كان أيوب بن شادى وأخوه شيركوه من الدعائم الأساسية – عسكريًا ودينيًا – لنظام نور الدين. وهما من أصول كردية، واستطاعا أن يشقا طريقهما وسط العديد من تقلبات الدهر حتى أصبح أولهما حاكمًا لدمشق والآخر قائدًا للقوات الزنكية. وكان شيركوه هو الذى قاد الحملات المتتالية على مصر وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب، وهى الحملات التى انتهت بإعدام شاور واستيلاء شيركوه على وزارة الخلافة الفاطمية التى كانت آنذاك فى النزع الأخير. وقد نضج صلاح الدين كقائد عسكرى وهو فى الثلاثين من عمره؛ حيث كان قد أثبت بالفعل مهارته العسكرية إبان تحصينه لبلبيس ودفاعه عن الإسكندرية أمام عمورى. ولم يلبث شيركوه أن توفى بعد توليه للوزارة الفاطمية بأسابيع فخلّفه صلاح الدين عليها وعلى قيادة القوات الشامية فى مصر.

واستطاع صلاح الدين أن يمكن لنفسه زعامة لا منازع لها فى مصر بين عامى ٥٦٤ هـ/١١٦٩ م و ٥٦٧ هـ/١١٧١ م – بالرغم من وقوع هجمة صليبية على دمياط وثورة كبرى فى القاهرة – بفضل إعادة تنظيمه وتمويله للجيوش الفاطمية، ودعم قدّمه نور الدين له على مضض. ولم يلبث الخليفة الفاطمى العاضد أن توفى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م بعيد إسقاط صلاح الدين

للخلافة الفاطمية وإعادته للمذهب السنى كمذهب رسمى لمصر بوقت وجيز. وتم إيداع بقية أعضاء الأسرة الفاطمية رهن الاعتقال فى دورهم. وبذلك أصبح صلاح الدين هو الحاكم الفعلى لمصر، حتى إننا نستطيع أن نعتبر ذلك التاريخ هو البداية الفعلية للحكم الأيوبى. وكان صلاح الدين لا يزال يدين بالولاء لنور الدين، ولكن العلاقة بينهما كانت قد بلغت من التوتر مداها لعدم قدرة و/أو رغبة صلاح الدين فى تقديم الدعم المالى والعسكرى المناسب لجهود سيده ضد الصليبيين، ثم جاءت وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ /١١٧٤ م فى وقتها المناسب لتمنع وقوع صدام مؤكد بينهما.

كان خلفاء نور الدين على ضعف وفتور همة أوجدتا خواءً فى الشرق الأدنى سارع صلاح الدين لملئه مستعيناً بأقربائه من الدرجة الأولى. ولم تلبث سيطرة الأيوبيين أن شملت مصر، والمناطق الخاضعة لحكم المسلمين فى الشام، واليمن، والعديد من مناطق بلاد النهرين واستطاعت حملاته أن تقر النظام – ولو مؤقتاً – فى النوبة وإقليم طرابلس الغرب. واستطاعت الأسرة الأيوبية تحت زعامة صلاح الدين – مدعومة بفرقة كردية تركية عسكرية ضخمة – أن تؤسس لنفسها إمبراطورية فى الشرق الأدنى دام حكمها نحو ثمانين عامًا متخذة من القاهرة عاصمة لها، ولم يكن نجمهم على علوه دومًا، ولكنه تغير غير مرة إلى الأسوأ. ويمكننا تقسيم العصر الأيوبى فى مصر إلى فترات ثلاث كانت أعظمها فى عهد صلاح الدين وابنه العزيز، تلتها فترة تماسك وصمود فى عهد الملك العادل والملك الكامل، ثم انهيار سريع فى عهد الملك الصالح.

كان الهدف المعلن لسياسة صلاح الدين التوسعية هو القضاء على الممالك الصليبية وإعادة إرساء المذهب السنى. على أن الرؤية الأكثر واقعية للأمور قد تعطى وزنًا أكبر لطموحه الشخصى، كما يقترح إهرينكرويتز Ehrenkreutz. ومع ذلك فقد نجح صلاح الدين بالفعل فى القضاء على المراكز الشيعية الرئيسية فى مصر واليمن وفى تقليص ملك الصليبيين إلى حد كبير، واستولى على بيت

المقدس سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧م[٢]، غير أن الحملة الصليبية الثالثة واستسلام عكا للفرنجة (٥٨٧ هـ /١١٩١م) أعاقتا تقدم صلاح الدين إلى حد كبير، فاستطاعت مملكة الصليبيين أن تستعيد بعضًا من أراضيها، مما مكّنها من البقاء لقرن آخر من الزمان. وبعد وفاة صلاح الدين في دمشق (٥٨٩ هـ /١١٩٣ م) خلفه ابنه العزيز على حكم مصر، بينما آلت لبقية أفراد العائلة مقاطعات أخرى تختلف في أهميتها. وأدت وفاة العزيز سنة ٥٩٥ هـ /١١٩٨- ١١٩٩ م إلى نشوب حرب أهلية داخل الأسرة، استطاع فيها الملك العادل، أخو صلاح الدين، أن يُثَبِّت نفسه وأسرته كقوة مهيمنة على الدولة الأيوبية.

كان عهد العادل وابنه الملك الكامل عهد استقرار ومسالمة للصليبيين. وقد أثبت العادل، أكبر أعضاء الأسرة الأيوبية سنًا، أنه الحليف المخلص دومًا لأخيه الأكبر، وكانت المشاحنات الدائمة بين أبناء صلاح الدين تستوجب تدخل يد قوية. وبعد أن أعلن نفسه سلطانًا في القاهرة سنة ٥٩٧ هـ /١٢٠٠ م قام العادل

> بتوزيع ولايات دمشق والجزيرة على أبنائه، وبعد انتهاء المشاحنات سنة ١٢٠١ [ميلادية] لم يسمح للأمراء السابقين بالاستمرار، باستثناء أمراء حلب وحمص وحماة الذين أجبروا على الدخول في طاعته[٣].

وأسفرت المفاوضات مع الصليبيين في عهد الملك الكامل عن إعادة بيت المقدس وبيت لحم والناصرة للفرنجة. وكانت سياسة العادل، كما يشير كاهين Cahen هي المهادنة، حتى يستطيع أولاً أن ينمي علاقاته التجارية مع أوروبا، وثانيا أن "يتحاشى إعطاء الصليبيين حجة لإرسال المزيد من الحملات. وبالرغم من ذلك فقد أرسلت حملات صليبية أخرى، ولكنها كانت بمبادرة مباشرة من أوروبا فقط، وليس بطلب من فرنجة المشرق."[٤]

ونظرًا لأن مصر كانت هى الدعامة الأساسية للدولــة الأيوبيــة، اقتــصاديًا وعسكريًا، فقد كان أساس تماسك الدولة ووحدتها متمركزًا فى القاهرة بالإضافة إلى دمشق عادة، لذلك فقد تركز النشاط الصليبى الآتى من أوروبا بعد ذلك على دمياط فى الوقت الذى كان السلام النسبى سائدًا (على الأقل خلال عهد الملك الكامل) مــع فرنجة المشرق. وقد نجح الكامل فى السيطرة على الممتلكات الأيوبية، بالرغم مما عاناه أحيانًا للإبقاء على وحدة الأسرة. ويرجع ذلك أولاً إلى قوة شخصيته، وثانيًــا إلى انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة (٦١٥-٦١٨ هـ /١٢١٨-١٢٢٢ م). غير أن حربًا أهلية نشبت عقب وفاته أسفرت عن جلوس الملك الصالح، أكبر أبناء الكامل على العرش، وكان فيما قبل واليًا على حصن كيفا (شمال شــرقى تركيــا الآن). لقد كانت القوة المحضة هى التى أخضعت مصر وسوريا الأيوبية لــسلطان الصالح، كما كان اختياره لحلفائه – ولأعدائه أيضًا – هو الذى ألقى ببذور تفــسخ موشك لسلطان الأيوبيين. فقد نجم عن استخدامه للقوات الخوارزمية فى حروبــه ضد أقربائه فى سوريا والجزيرة إلى نشرهم للدمار والاستياء معًا. وهو ما تــسبب فى تحالف الناصر داود والصالح إسماعيل (حاكما الكرك ودمشق الأيــوبيين) مــع الفرنجة، والذى توج بحملة القديس لويس الــصليبية ســنة ٦٤٧ هـــ/١٢٤٩ م. بالإضافة إلى أن استقدامه المكثف للمماليك الأتراك واستخدامهم كدعامــة أساســية للجيش المصرى تسبب فى سقوط أسرته بعيد موته بفتــرة وجيــزة (٦٤٧ هــــ / ١٢٤٩ م) وتأسيس دولة المماليك فى مصر والشام[٥].

لقد استندت ديناميات ترسيخ سلطان الأيوبيين – ونقصد بها تعظــيم الثقــل السياسى والجهاد – إلى عناصر أساسية خمسة، وهى: الجيش، والعلماء، والتجارة الخارجية، والتطوير الاقتصادى والاجتماعى الداخلى لمــصر، والهيكــل الإدارى للحكم.

الجيوش

اعتمدت جيوش صلاح الدين، كما ذكرنا آنفًا، على القوات الكردية التركية، وانضمت إليها في الفترة التأسيسية بقايا قوات الفاطميين وبعض قوات من القبائل العربية. [٦] وكان المماليك مستخدمين بالطبع طوال العصر الأيوبي، ولكنهم لم يصبحوا عماد القوات العسكرية إلا في عهد الملك الصالح. ونظرًا لنقص السيولة المالية شبه الدائم، فقد كان الأمراء عادة ما يقطعون الإقطاعات في مقابل إنفاقهم على عدد محدد من الجند، عادة من الفرسان. وفي كثير من الأحيان كان العديد من أعضاء الأسرة والأمراء الأقوياء (عندما لا يكونون في حالة اقتتال فيما بينهم) يمولون فرق الجند للحكومة المصرية من ريع إقطاعاتهم. وكان هذا هو الحال، بالذات، في الأوقات التي لا تشوب فيها العلاقات بين القاهرة ودمشق شائبة. بيد أن نقطة الضعف الأساسية في هذا النظام هي أن تلك الفصائل كانت مرتبطة عادة في ولائها بأستاذ واحد، واختفاؤه

> لا يؤدي إلى اختفاء القوات التي شكلها، والتي كانت تتميز بتضامن قوي فيما بينها منبعه الخوف من ظهور قوات جديدة. وقد لعبت الصراعات بين الجند الأسدية (المنتسبين لأسد الدين شيركوه)، والصلاحية، والعادلية، والكاملية، والأشرفية، ... إلخ، دورًا مهما في الصراعات التي نشبت بين المطالبين بالعرش الأيوبي[٧].

أما الأعداء الخارجيون فكانوا الروم السلاجقة، و الأرتقيين[*]، والصليبيين بالطبع. وقد أحرزت البحرية المصرية، التي أعاد صلاح الدين تسليحها، نجاحًا كبيرا أمام الصليبيين ولكنها أصيبت بدمار حاسم بعد حصار عكا (٥٨٥-٥٨٧هـ/ ١١٨٩-١١٩١ هـ). [٨] واتخذ تأمين مصر منذ ذلك الحين وجهة أخرى؛ حيث

---

* الأرتقيون، بنو أرتق: سلالة تركمانية في جنوب الأناضول - ديار بكر وشمال الفرات - حكمت ما بين ١٠٩٨ و ١٢٣٢ م. (المترجم)

قام على تدمير المواقع الحصينة (بما فيها عسقلان) التى يمكن للصليبيين استخدامها فى مهاجمة الدلتا، وبناء بعض التحصـــينات الجديدة (دمياط مثلاً)، والقوات البرية والتجسس(٩). هذا بالإضافة إلى بناء القلاع وتجديدها (فـــى الحـــضر والريـــف) وأسوار المدن.

العلماء

تابع صلاح الدين، فارس المذهب السنى، جهوده بحماس للقضاء علـــى تعدد المذاهب الإسلامية في مصر واليمن، إلى جانب حملاته ضد الصليبيين. وبالرغم من أن مسألة اتصافه بحب عمل الخير تبقى محلاً للمناقشة، فالثابت أنه أعاد بالفعل مساحة واسعة إلى السيادة الروحية للخلافـــة العباســـية فـــى بغداد، فتولى علماء مصر – ومعظمهم من الشافعية – العديد من المناصـــب الإدارية فى الدولة، كما جرى تشجيع الدخول فى المذهب السنى عن طريق إدخال نظام المدارس إلى مصر، وهو نوع من المؤسسات كانت له جـــذور قوية فى الأراضى الزنكية، ثم كان إنشاؤه لخانقاه فى القاهرة تشجيعًا لدخول التصوف إلى مصر(١٠).

ولقى المسيحيون واليهود معاملة حسنة فى العصر الأيوبى، وكثيرًا ما استخدم الأقباط فى الدواوين المصرية. أما الشعور المعادى للمسيحية الـــذى ظهر فكان بشكل عام رد فعل للحملات الصليبية، وكـــان لا يعـــدو أحـــداثًا متفرقة فى أسوأ حالاته. فكما يشير كاهين، "كان العصر الأيوبى فى مـــصر عصر حيوية للكنيسة القبطية." (١١)

كان الأيوبيون يدعمون بشكل شبه دائم التجارة مع أوروبا. وقد شجع صلاح الدين العلاقات التجارية مع تجار بيزه وجنوه والبندقية الذى توافدوا على الإسكندرية للاستفادة من التجارة المارة بين مصر والبحر الأحمر. على أن التجار غير المسلمين لم يسمح لهم بالورود على منطقة البحر الأحمر. كما وفرت التجارة مع إيطاليا، بالإضافة إلى عائدات الجمارك، المواد الخام اللازمة للأسطول والجيش. وشجع السلاطين التالون، خاصة العادل والكامل، قيام علاقات تجارية أكبر مع الأوروبيين باستثناء الفترات التى شهدت حملات صليبية كبرى.

> كانت إحدى النتائج الطبيعية، والمستهدفة، لسياسة السلام التى تم تبنيها تجاه الفرنجة هى استعادة وتكثيف العلاقات التجارية مع الإيطاليين (وبشكل أقل مع جنوب فرنسا والقطالونيين). وحتى قبل توقيع الاتفاقيات الرسمية مرة أخرى- كما توضح الوثائق الخاصة فى أرشيفات البندقية وجنوه - كانت السفن القادمة من جنوه وبيزة والبندقية ترسو مرة أخرى فى الإسكندرية، بعد الحملة الثالثة، وبشكل أقل فى دمياط. وأكدت سلسلة من الاتفاقيات فى عهد العادل حقوقهم، وتخفيضًا فى الجمارك، وتسهيلات إدارية وقضائية... وكانت مصر تبيع لأوروبا، إلى جانب منتجات المحيط الهندى التى كانت تمر عبر أراضيها كتجارة ترانزيت، مواد محلية يبدو أن أعظمها شأنًا فى ذلك الوقت كان حجر الشب. وكانت الحملات الصليبية أو الخوف من هجوم مفاجئ كفيلة بإحداث الأزمات بالطبع، كما حدث مثلاً فى أحد

أيام سنة ١٢١٥ [ميلادية] عندما تم احتجاز ثلاثـــة آلاف تاجر فى الإسكندرية بشكل مؤقت. ولكن حتى بعد حملة دمياط الصليبية، استؤنفت العلاقـــات مـــرة أخـــرى... واستمرت بدون انقطاع حتى منتصف القرن[١٢].

التطوير الاقتصادى والاجتماعى الداخلى

كانت مصر هى العماد الاقتصادى لبقية أنحاء الدولة الأيوبية. وقد وفر الاستقرار الداخلى الذى نعمت به مصر (وفى بعـــض الأوقـــات المنـــاطق الأيوبية فى الشام) الظروف المثلى للزراعة، والتجارة الخارجية والداخليـــة، والصناعة. وألغيت معظم المكوس فى عهد صلاح الدين، وأدخلت تحسينات كبيرة على نظام جباية الخراج. غير أن قيمة العملة تـــم تخفيـــضها بـــشكل كبير.[١٣] وجمع خلفاؤه، خاصة العادل والكامل، إلى حسن السياسة الخارجية حصافة الإدارة الداخلية. وينطبق ذلك على وجه الخصوص على وزارة ابن شكر الذى خدم الاثنين (على فترات متقطعة). واشتملت الجوانب التى حظيت من الكامل باهتمام خاص صيانة الغابات، وأعمال الرى، وزراعـــة الدولـــة لقصب السكر، ... إلخ. وبقيت مصر بشكل عام – وفى تمايز عن الكثيـــر من الولايات الأيوبية الأخرى – هى أكثر دولة مـــؤمم اقتـــصادها جزئيًـــا، خاصة فيما يتعلق بالمناجم والغابات وتجارة المعادن والخشب وبعض وسائل النقل والأدوات والأسلحة، ... إلخ[١٤].

وتضمنت الإدارة المالية الدقيقة أيضا الإشراف على نظام الإقطاع.

الهيكل الإدارى / البيروقراطى

كان النظام الأيوبى نظامًا فيدراليًا – نوعًا ما – فى هيكله، يسيطر عليه السلطان فى القاهرة و/أو دمشق فى أفضل ظروفه. وكان حكم كل منطقة – شبه مستقل – يقوم عليه أعضاء الأسرة الأيوبية، مع استخدام الأقرباء الأقل شأنًا وكبار الأمراء فى حكم مساحات أصغر داخل تلك الأراضى. وهو نظام يفتقد للتماسك ولا ينجح إلا فى حالة وجود سلطة مركزية قوية. أما البديل (وكان هو المعتاد فى معظم الأحوال) فكان التحالفات العائلية الداخلية والاقتتال. وعلى الرغم من أن مصطلح "سلطان" لم يكن شائع الاستخدام فى تلك الفترة، فإن مفهوم السلطنة كان قد رسخ فى مصر ثم تطور فيما بعد على يد الدولة التالية، وهى دولة المماليك البحرية. أما الوزراء فنادرًا ما كان يستخدمهم الحاكم فى القاهرة بالرغم من كثرة استخدام الأمراء الأقل شأنًا لهم فى إقطاعاتهم. وكان ينوب عن السلطان حال غيابه عن مصر "نائب". وكثيرًا ما كان هؤلاء النواب يرسلون، فى الفترة المتأخرة من العصر الأيوبى، إلى المقاطعات الآسيوية ليحلوا محل الأمراء المتمردين. وقد توزع الحكم المركزى على أربعة أقسام رئيسية تمثلها دواوين أربعة للجيش والخزانة والإنشاء والأوقاف. وكان العلماء يتولون عددًا من الوظائف فيها، خاصة فى ديوان الإنشاء، وسادت التحالفات، البناءة عادة، بين الكتبة والموظفين الأقل شأنًا فى الهيكل الإدارى[١٥].

ملخص

كانت أكثر أعمال الأيوبيين أثرًا فى مصر هى القضاء على الخلافة الفاطمية والمذهب الإسماعيلى (رغم أنه كان مجرد مظهر)، وإدخال مفهوم السلطنة الذى تبناه المماليك فيما بعد. أما لواء الجهاد الذى رفعه صلاح

الدين، فبالرغم من إثماره إعادة بيت المقدس والأراضى الأخرى لحظيرة الإسلام فقد تلقى نكسة حاسمة من الحملة الصليبية الثالثة. تلا ذلك سياسة مهادنة اتبعها خلفاء صلاح الدين خاصة العادل والكامل؛ تلك السياسة بالرغم من ميزتها الحاسمة للتجارة المصرية - الأوروبية عكرت صفوها الهجمات الصليبية (الآتية من أوروبا) على مصر خاصة دمياط. وتسببت تلك الهجمات فى عودة السياسات الحربية فى عهد الصالح، والتى أسفرت عن حملة القديس لويس، وقدمت الذريعة - بشكل شبه مباشر - لاستيلاء المماليك، الذين كانت قوتهم قد زادت عن الحد، على عرش مصر.

وعلى الرغم من الدعم شبه الدائم للتجارة، فإن هذا الدعم أفسدته عدة عوامل، تمثلت فى : انخفاض قيمة العملة، ومنع غير المسلمين من الوجود فى المنطقة التجارية بالبحر الأحمر، وإعادة فرض المكوس، وربما يُضاف إليها أيضًا تدمير الأسطول الأيوبى. أما السياسة الإدارية والمتمثلة فى السلطنة، والوزارة، والدواوين، ونظام الإقطاع فقد كانت نتاج الأنظمة الفاطمية والزنكية-السلجوقية، وورثها نظام المماليك أيضًا فيما بعد.

والدعامة الأساسية للأيوبيين، فى التحليل النهائى، هى تضامنهم الأسرى، أى اجتماع إرادتهم على الالتفاف حول الحاكم المركزى (مقره مصر فى العادة) فى أوقات الأزمات. وقد نجح ثلاثة حكام أساسيين (صلاح الدين، والعادل، والكامل) فى الحفاظ على هذا الاتحاد على الرغم من مشاكل المطالبة بالعرش على فترات متقطعة و/أو الحروب الأهلية. أحال آخر الأيوبيين، الصالح، هذا الاتحاد الكونفدرالى إلى أمر مستحيل من خلال استعادته للعداء مع الصليبيين، وعدم قدرته على توحيد أعضاء الأسرة حوله إلا باستخدام القوة الغشوم، واستخدامه الكثيف للمماليك كمكون أساسى لجيشه. وبعد ذلك، خضعت مصر ولأكثر من قرنين ونصف من الزمان لحكم المماليك الأتراك.

الهوامش

(١) Ehrenkreuz, pp. 13-18
(٢) Ibid., pp. 233-38
(٣) Cahen, p. 799
(٤) Ibid.
(٥) Ibid., pp. 803-804
(٦) Ibid. p. 797
(٧) Ibid., p. 802
(٨) Ibid., p. 798
(٩) Ibid., p. 799
(١٠) Ibid., p. 802
(١١) Ibid., p. 803
(١٢) Ibid. p. 880
(١٣) Ehrenkreuz, pp. 101-105
(١٤) Cahen, p. 800
(١٥) Ibid., p. 801

الفصل الثالث

التغييرات الطبوغرافية الأساسية فى العصر الأيوبى

تمثل أوضح إنجازات الأيوبيين فى القاهرة فى محاولتهم إحاطة مدينتى القاهرة والفسطاط بسور واحد ضخم يتخذ من قلعة الجبل قاعدة له. وكان صلاح الدين هو من بدأ إنشاء القلعة، وكان أول من سكنها ابن أخيه الملك الكامل. وقد شُيِّدت القلعة على قبة الهواء، وهي تل صغير فى المقطم كان فى الأصل موقعًا لأحد الجواسق العباسية. وكان بهذا التل فى العصر الفاطمى عدد من المساجد والمقابر أزيلت كلها لبناء القلعة.[1] أما السور المحيط "بالقاهرة الكبرى" الجديدة فقد أشرف على إنشائه نائب صلاح الدين، بهاء الدين قراقوش، والذى أشرف أيضًا على بناء القلعة والاستحكامات الدفاعية الأخرى. وكانت المنطقة التى يحيطها السور أشبه بالمثلث؛ حيث سار السور فى الشمال على نفس خط سور بدر الجمالى، ولكنه امتد إلى المقس، وفى الجهة الشرقية سار إلى الجنوب من برج الظافر وحتى باب الوزير إلى الشمال مباشرة من القلعة، ومن القلعة فى الجنوب الشرقى إلى باب القنطرة فى الفسطاط جنوب قصر الشمع مباشرة. وعلى الرغم من التخطيط لبناء سور غربى يمتد من باب القنطرة إلى باب الحديد فى المقس، فإن البناء الذى كان مخططًا أن يتم على عدة مراحل لم يتم أبدًا[2].

والنقطة المثيرة للانتباه هنا هى أن صلاح الدين، على الرغم من اتباعه للنمط السائد للدول الإسلامية المتتالية باتخاذها مراكز إدارية واستحكامات دفاعية جديدة (فأقام القلعة مثلا) فإنه قرر أيضًا أن يحيط العواصم الأربع السابقة – الفسطاط،

والعسكر، والقطائع، والقاهرة – بسور. هذا السور، على الرغم من عدم إحاطته ببعض المناطق التى كانت (ومازالت) أطلالاً، فإنه يوفر الحماية لمدينته الشاسعة من أى غزوات في المستقبل، كما أنه يشكل حدًا خارجيًا للترميمات التى تجرى داخل نطاقه. وكان هذا السور هو الأساس فى خطط تطوير القاهرة لفترة امتدت حتى ما بعد الاحتلال الفرنسى، أى بعد صلاح الدين بستمائة عام.

عندما تولى صلاح الدين الوزارة الفاطمية سنة ٥٦٤ هـــ /١١٧١ م ، كانت القاهرة قد شهدت تغييرًا فى تركيبتها السكانية، بدأ مع وزارة بدر الجمالى سنة ٤٦٦ هـــ /١٠٧٤ م. فقد أباح بدر الجمالى المدينة "للناس من العسكرية، والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة"[٣]. غير أن انتقال عدد كبير من غير العسكريين و/أو غير الموظفين الحكوميين للمدينة فعليًا أمر مشكوك فيه. ويميل وصف المقريزى للحارات، كل على حدة، إلى التركيز على تأسيسها أكثر من تناوله لتقلبات أحوالها خلال قرنى الحكم الفاطمى[٤]. ولو كانت قاهرة المعز لم تضم إلا أسرة الخليفة، والحاشية، والإداريين، والعسكر فربما يكون من استفادوا من قرار بدر الجمالى هم مجرد جماعة أخرى مساعدة من العسكر، ربما الأرمن. أيًا كان الأمر، فقد مثّل عهد صلاح الدين المرحلة الثانية والأخيرة فى هذه "الإباحة لسكنى القاهرة".

ويشترك بدر الجمالى وصلاح الدين فى عدة نقاط فى هذا الشأن، فكلاهما استُدعى للحفاظ على الدولة الفاطمية من الفوضى و/أو الخطر الخارجى، وكلاهما كان وزيرًا قويًا نجح فى تثبيت أسرته كدعامة أساسية لحكم مصر. وكلاهما أيضًا تبوأ مكانه عندما كانت القاهرة تعانى من فوضى عارمة ويحيق بها الدمار. وكان ذلك ناجما عن الشدة المستنصرية عندما تولى بدر الجمالى. أما صلاح الدين فقد اجتمع قبل مجيئه ما نزل بالخلافة الفاطمية من انهيار عام وفوضى إلى الاكتظاظ المحتمل كنتيجة لحريق الفسطاط ٥٦٤ هـــ /١١٦٨ م وثورة الخدم (الخصيان) السودان فى العام نفسه وما تلاها من حرق وتدمير للأحياء الجنوبية من المدينة.

وأخيرًا ساهم الاثنان، صلاح الدين وبدر الجمالى، فى انهيار قدسية المدينة الفاطمية وإلغائها واقتصارها على طبقات بعينها، وذلك بفتحها لسكنى جندهما وأتباعهما ومن يستطيع من أهالى مصر أن يتحمل نفقة الإقامة فيها.

التطور الذى أدخل على القاهرة

كانت لثورة الجند السودان سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م آثار مدمرة على المدينة الفاطمية؛ فهجوم شمس الدولة على الفارين من الجند السودان والرماة الأرمن لم يؤد فقط إلى حرق مقر الأرمن، بل وإلى اشتعال النيران فى العديد من المنازل التى لجأ إليها الجند فى أثناء فرارهم باتجاه باب زويلة. وكان مقر الأرمن "قريبًا من بين القصرين"، ربما إلى الجنوب منه، وهو الاتجاه الذى اتخذوه فى فرارهم إلى ثكناتهم فى المنصورية، خارج باب زويلة. وعلى ذلك فيبدو أن معظم الدمار الذى أصاب المدينة في الداخل كان مُركزًا فى القطاع الجنوبى منها بين القصور الفاطمية وباب زويلة(٥).

ويحدثنا المقريزى عن التغيرات التى جرت على القاهرة بعد استيلاء الأيوبيين عليها ، فيقول إنه بعد استيلاء صلاح الدين على السلطة سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١-١١٧٢ م :

> نقلها [أى صلاح الدين] عما كانت عليه من الصيانة، وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور، وحط من مقدار قصور الخلافة، وأسكن في بعضها وتهدم البعض وأزيلت معالمه وتغيرت معاهده فصارت خططًا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة، ونزل السلطان منها فى دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فكان السلطان صلاح الدين يتردد إليها ويقيم بها وكذلك ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبوبكر. فلما كان الملك الكامل ناصر الدين

محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب تحول من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها ونقل سوق الخيل والجمال والحمير إلى الرميلة تحت القلعة(٦).

وفي موضع آخر يقول شيخنا:

وتسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس وكانت عظيمة الوصف واستعرض من فيه من الجوارى والعبيد فأطلق من كان حرًا ووهب واستخدم باقيهم وأطلق البيع فى كل جديد وعتيق فاستمر البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها ثم ملّكها أمراءه وضرب الألواح على ما كان للخلفاء وأتباعهم من الدور والرباع وأقطع خواصه منها وباع بعضها ثم قسم القصور فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين أيوب ابن شادى فى قصر اللؤلؤة على الخليج وأخذ أصحابه دور من كان ينسب إلى الدولة الفاطمية فكان الرجل إذا استحسن دارًا أخرج منها سكانها ونزل بها. قال القاضى الفاضل وفى ثالث عشريه يعنى ربيعًا الآخر سنة سبع وستين [٥٦٧ هـ / ١١٧١-١١٧٢ م] كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر فقيل إن الموجود فيه مائة صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة وغير ذلك من ذخائر جمة الخطر وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش وبيان وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن بها الأمير موسك والأمير أبو الهيجاء السمنى وغيره من الغز(٧).

ثم يضيف القاضى الفاضل بعد ذلك أنه قد "ملئت المناظر المصونة عن الناظر والمنتزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر"[٨].

اقتسمت قصور الخلفاء الفاطميين وممتلكاتهم، إذن، ووزعت، وفتحت المدينة لعامة الناس. على أن هناك تناقضًا ظاهرًا يتعلق بمن آل إليه القصر الغربى. فالمقريزى يشير، عند وصفه للقصور، إلى أن القصر الغربى كان من نصيب الملك العادل، وأن الكامل ولد فيه. وهو ما يتناقض مع وصف القاضى الفاضل الذى أوردناه آنفًا، اللهم إلا إن كان "الغز"، ... إلخ، قد احتلوا القصر لفترة وجيزة. وقد حددت إقامة الأسرة الفاطمية فى دار المظفر بحارة برجوان إلى الشمال من القصر الغربى. وعلى الرغم من الفصل بين الجنسين من الأسرة حتى لا يتناسلون فقد نقل الفاطميون إلى القلعة فى عهد الكامل، وكان منهم أحياء يرزقون، كما يشير كازانوفان فى عهد بيبرس، أى بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان[٩].

هناك ثلاثة من الرحالة (ابن جبير، وعبد اللطيف البغدادى، وابن سعيد المغربى) تركوا لنا أوصافًا للقاهرة خلال العصر الأيوبى. ويركز وصف ابن جبير الأندلسى (٥٧٨ هـــ /١١٨٣ م) -الذى كان ذاهبًا للحج - على المؤسسات الدينية، وسوف نتناوله فى الفصل المخصص لها. أما عبد اللطيف، الفيزيائى البغدادى، فقد كان يعيش بالقاهرة فى سنوات المجاعة ٥٩٦-٥٩٨ هـــ /١٢٠٠-١٢٠٢ م. وقد بدأت المجاعة فى المحرم بعد انخفاض النيل، وفر من فر من الأقاليم بحثًا عن النجاة فى القاهرة والفسطاط، فوجدوا سكان العاصمة وقد اجتمع عليهم الهواء الفاسد والمجاعة والأمراض حتى إن أكل لحوم البشر كان قد ساد بينهم. وفر الكثير من الفقراء إلى جزيرة الروضة حيث سكنوا أكواخًا من الطين. وعلى الرغم من الهجرة الجماعية من الأقاليم فقد تزايد خروج أهل العاصمة منها أكثر فأكثر، وهُجِر الجانب الأعظم من الفسطاط، كما خلت تمامًا المنازل التى كانت فى الخليج وبركة الحبش والمقس وحارة الحلب (جنوب باب زويلة)، وما حول تلك المناطق، من ساكنيها. وهجرت معظم الربوع والمنازل والحوانيت فى قلب القاهرة نفسها، "حتى إن أكثر

الأماكن ارتياذا فى المدينة كان به ربع يتكون من خمسين مسكنًا كانت كلها خالية إلا من أربعة حراس." وكان مقياس النيل بالروضة أعلى من مستوى الماء(١٠).

ويذكر البغدادى أنه فى عام ٥٩٨ هـ /١٢٠١-١٢٠٢ م لم يكن هناك من أحياء في حارة الهلالية (خارج باب زويلة)، والجانب الأعظم من الشارع (والذى يرى دى ساسى أنه الشارع الأعظم)، والقصور الواقعة على الخليج وحارة الحسينية والمقس والأحياء المجاورة، فكان المرء يرى مساكن متهدمة ومعظم سكانها موتى بداخلها. على أن القاهرة كانت، على الرغم من ذلك، مأهولة أكثر من الفسطاط التى خلت أسواقها وشوارعها(١١).

هناك رحالة أندلسى آخر، وهو ابن سعيد المغربى، عاش فى مصر بين عامى ٦٣٧ و ٦٣٩ هـ (١٢٣٩-١٢٤٠ م و ١٢٤١-١٢٤٢م)، أى فى أوائل عهد الملك الصالح. وربما يكون وصفه للقاهرة، والذى ركز فيه على الشئون الصحية، هو أفضل ما وصل إلينا عن العصر الأيوبى المتأخر، وتدل زيارته للإيوان الكبير الذى كان يجلس به الخليفة. على أن القصور الفاطمية كانت لا تزال قائمة آنذاك، ويقال إن هذا الإيوان كان يحاكى إيوان كسرى. ويقول ابن سعيد عند حديثه عنْ بين القصرين:

> ولو كانت القاهرة عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية، ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه إلى أمد ضيق وتمر فى ممر كدر حرج بين الدكاكين إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان ذلك ما تضيق منه الصدور وتسخن منه العيون. ...وأكثر دروب القاهرة مظلمة كثيرة التراب والأزبال والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينهما ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى ذلك ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين(١٢).

ويستطرد ابن سعيد قائلاً:

ومن عيوب القاهرة أنها أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشًا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس وجوُّها لا يبرح كدرًا بما تثيره الأرجل من التراب الأسود...وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورًا أسود كدرًا وجوًّا مغبرًا فتنقبض نفسه ويفر أنسه(١٣).

وفى مقارنته بين القاهرة والفسطاط يقول:

والفسطاط أكثر أرزاقًا وأرخص أسعارًا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط. فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة. والقاهرة هى أكثر عمارة واحترامًا وحشمة من الفسطاط لأنها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم دثارًا لسكنى الأمراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر، وبها الطراز وسائر الأشياء التى تتزين بها الرجال والنساء، إلا أن فى هذا الوقت لما اعتنى السلطان الآن ببناء قلعة الجزيرة التى أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط، وانتقل إليها كثير من الأمراء، وضخمت أسواقها، وبنى فيها للسلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة تنقل إليها من القاهرة سوق الأجناد التى يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك(١٤).

يبدو، إذن، أن القاهرة أصبحت فى منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى منطقة مزدحمة وغير صحية. على أن وجود مؤسسات دينية

وتجارية مهمة قد خفف من وطأة ذلك. هذا بالإضافة إلى احتواء المدينة على مناطق سكنية مهمة، يزيد من تميزها قربها من مقر السلطة، ومنطقة بين القصرين، المفتوحة نسبيًا. ومع ذلك، فتخفيف تلك المزايا من عيوب القاهرة يبقى محل تساؤلات بسبب عاملين؛ أولهما أن المراكز السياسية انتقلت بشكل متزايد إلى القلعة وجزيرة الروضة، وثانيهما أن القصور الفاطمية تدهورت حالتها تدريجيًا ثم تهدمت، وبين القصرين أصبحت مكتظة بمؤسسات مثل دار الحديث الكاملية ومدرسة الصالح.

الضواحى الواقعة إلى شمال القاهرة وشمال غربها

الحسينية

قدم أشراف الحسينيين من الحجاز إلى مصر – طبقًا لرواية ابن عبد الظاهر – فى عهد الملك الكامل، واستقروا خارج باب النصر، وأقاموا هناك مدبغة لصناعة المنتجات الجلدية التى تشبه ما يصنع منها فى الطائف. واستوطن العسكر هذا المكان بعد أن أقام الحسينية به مبانى عظيمة. وبينما يذكر ابن عبد الظاهر أن الحارة اتخذت اسمها من أولئك الحسينية نجد المقريزى يُخطئه، ويرى أن الحارة عرفت بهذا الاسم نسبة لفرقة الحسينية التى استقرت بها خلال عهد الحاكم. على أن هذا الخطأ لا ينفى استقرار الحجازيين هناك فى وقت لاحق.

ويشير المقريزى إلى أن الكثير من المشرقيين الذين فروا من خطر المغول إلى مصر استقروا بالحسينية خلال الفترة بين عامي ٦١٠و٦٥٦ هـ (١٢١٣-١٢٥٨ م). وتشمل المنشآت الأيوبية الأخرى ميدانًا، وخانًا وسبيلاً أنشأهما قراقوش خارج باب الفتوح. وقد ظل جزء من ضواحى باب النصر جبانة حتى بعد سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠٠-١٣٠١ م، عندما بدأت سكناها. وقد امتدت المبانى من باب النصر إلى الريدانية. ويضيف ابن عبد الظاهر أن الحسينية كانت أكبر حارات

الجند؛ غير أن الجند الذين سكنوا المنطقة بعد الحجازية لم يصلوها إلا فى العصر المملوكى[١٥].

المقس

كانت منطقة المقس معروفة فى العصر الفاطمى بدار صناعة سفنها ورصيفها اللذين يبدو أنهما كانا ذا طبيعة عسكرية بحتة، وسوف نتناولهما فى الفصل الرابع. وكان بها أيضًا جامع، كما كان فى المنطقة المتاخمة لها العديد من الجواسق. وعندما مد قراقوش سور القاهرة إلى المقس وشيد البرج الأخير امتدت العمارة من هناك حتى البلد (المدينة) [١٦]. وقد يُظَن أن تلك العمارة امتدت داخل السور، ولكنها ربما تكون قد وصلت أيضًا المقس بالحسينية.

أما عن عدد المرافق التى بقيت فى الميناء فى ذلك الوقت فهو أمر لا يزال مثار جدال. ومن بين المكوس التى ألغاها صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ /١١٧١ م النصف (نسبة مئوية؟) الذى كان يحصل على البضاعة القادمة إلى المقس ورسم حماية مخازن الحبوب والجبن. وهو ما قد يشير إلى أن المقس كانت ميناءً داخليًا على الأقل و/أو محطة تحصيل رسوم على البضائع[١٧]. غير أن رمال جزيرتى بولاق والفيل كانت تزحف سريعًا على المقس وأرض الطبالة وأرض البعل إلى الشمال. وفى ذلك يقول القاضى الفاضل حسبما أورد المقريزى:

> سنة سبع وسبعين وخمسمائة [١١٨١-١١٨٢ م] ... ركب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أعز الله نصره لمشاهدة ساحل النيل وكان قد انحسر وتشمر عن المقس وما يليه وبعد عن السور والقلعة المستجدين بالمقس وأحضر أرباب الخبرة واستشارهم فأشير عليه بإقامة الجراريف لرفع الرمال التى قد عارضت جزائرها طريق الماء وسدته ووقفت فيه[١٨].

مثل هذه الظروف من الصعب أن تصف رصيفًا بحريًا يعج بالنشاط في ذلك الوقت، ولا حتى الاستمرار في تحصيل الرسوم وتقديم خدمات التخزين التي ذكرناها آنفًا. ونستطيع باطمئنان، أن نصف المقس منذ ذلك التاريخ بأنها مجرد ضاحية للقاهرة. وكان يحميها من الشمال السور الذي مدّه صلاح الدين، بينما امتد حدها الغربي تدريجيًا بفعل طرح النهر، ووصلت حدودها الجنوبية إلى الأطراف الشمالية لباب اللوق، وهي من طرح النهر أيضا. وانتهى استخدامها كميناء بحري (إلا إذا ظهرت أدلة جديدة).

أرض الطبالة

تقع مناطق مزارع أرض الطبالة إلى الشمال مَباشرة من المقس في ما يعرف حاليًا بالفجالة. ويشير ابن سعيد إلى أنه حوالي سنة ٦٣٧ هـ /١٢٣٩-١٢٤٠ م كان أجمل منظر في ضواحي القاهرة هو منظر أرض الطبالة خاصة في مواسم البرسيم والكتان[١٩].

حُبس الجيوشي

كان حبس الجيوشي مكونًا من أراضٍ تقع في منطقتين؛ حيث يقع بعضها على البر الغربي للخليج، وعرفت بالمنية والأميرية، وتقع حاليًا في منطقة منية السيرج إلى الشمال مباشرة من شبرا الحالية، بينما يقع بعضها الآخر في بعض مناطق الجيزة، كانت تلك الأراضي وقفًا على ورثة بدر الجمالي. وفي سنة ٥٨٧ هـ /١١٩١-١١٩٢ م وضع صلاح الدين أخاه العادل على رأس أسطول، وكان جزء من حبس الجيوشي مكرسًا - إلى جانب ممتلكات وعوائد أخرى - للإنفاق على الأسطول، ثم استولى صلاح الدين على بقية ميراث بدر الجمالي، فيما عدا الحبس الذي خصص للأسطول، ثم أفتى الفقهاء بعدم صحة الحبس فأصبحت أراضيه أرضًا خراجية أطلق عليها "بلاد المُلك". وكانت تلك المناطق في عصر

المقريزى منها ما هو وقف، ومنها ما هو فى الديوان السلطانى، وكان معظمها مزروعًا بالكتان[٢٠].

بولاق وجزيرة الفيل

تحولت جزيرتا بولاق والفيل، وهما من أراضى طرح النهر، إلى أحياء حديثة هى حى بولاق وحى شبرا على الترتيب. وقد جارت بولاق تدريجيًا على ميناء المقس حتى ابتلعته؛ أما جزيرة الفيل، التى تقع إلى الشمال مباشرة، فقد اتصلت بشاطئ النيل فى أرض الطبالة وأرض البعل[*] ومنية السيرج. وقد كانت تلك المناطق خلوًا من الغرين (نسبيًا) حتى أواخر العصر الفاطمى، عندما تحطمت مركب كبيرة بتلك المنطقة واسمها "الفيل" فتراكمت عليها الرمال وكونت الجزيرة التى حملت اسمها. ويعطى المقريزى تاريخًا لتكون تلك الجزيرة، فى ثنايا وصفه لبولاق، فيذكر أنه كان بعد سنة ٥٧٠ هـ /١١٧٤-١١٧٥ م. وفى ذلك الوقت انحسر الماء عن سور القاهرة الذى كان ينتهى عند المقس؛ حيث تراكمت الرمال ونمت الجزر إلى حد لم يستطع معه الماء أن يمر إلا فى وقت الفيضان. " وفى طول السنة ينبت هناك البوص والحلفاء وتنزل المماليك السلطانية لرمى النشاب فى تلك التلال الرمل"[٢١]. وهناك احتمال كبير أن يكون اتصال رمال وجزر بولاق قد كان نتيجة لتكون جزيرة الفيل قبل ذلك إلى الشمال من بولاق. على أية حال، فقد كانت جزيرة الفيل تزرع فى عهد صلاح الدين الذى أوقف تلك الجزيرة على مدرسته فى القرافة. وربما حدث الاتصال الحاسم بين بولاق وجزيرة الفيل فى أواخر فترة الحكم الثالثة للناصر محمد بن قلاوون، عندما نشط البناء الكثيف

(*) قال المقريزى فى معنى كلمة "بعل" هنا :"قال ابن سيده البعل الأرض المرتفعة التى لا يصيبها المطر إلا مرة واحدة فى السنة، وقيل البعل كل شجر أو زرع لا يسقى، وقيل البعل ما سقته السماء... وقيل هو ما اكتفى بماء السماء". انظر المقريزى، الخطط، ج ٢، ص ١٢٩. (المترجم)

والزراعة فى الموقعين، واختلطت الجزر السابقة بالأراضى الغرينية الواقعة إلى الجنوب في اللوق، والتى كانت قد تطورت بالفعل فى العصر الأيوبى[٢٢].

اللوق والشاطئ الغربى للخليج

كانت المساحة الممتدة بشاطئ الخليج الغربى، من المقس إلى فم الخليج (الموضع الحالى لبرج سور مجرى العيون) تشغلها أساسًا الجواسق والمتنزهات والحدائق والبرك التى كونها الفيضان مثل بركة فرعون وبركة بطن البقرة (الأزبكية فيما بعد).وأدى التغير التدريجى لمجرى النيل بعد سنة ٦٠٠ هـ /١٢٠٣-١٢٠٤ م إلى نشأة جزر جديدة سرعان ما تم استغلالها وزراعتها، وفى بعض الأحيان سكناها. وشمل القسم الجنوبى (المنشأة)، منشأة الفاضل (منشأة المهرانى فيما بعد) فى منطقة فم الخليج الحالية، وامتدت إلى الشمال الشرقى باتجاه السيدة زينب، وإلى الشمال تقع اللوق، وهو مصطلح عام يطلق على المنطقة الممتدة من بستان الظاهر (إلى الشمال مباشرة من قناطر السباع بالقرب من ميدان السيدة زينب الحالى) شمالاً إلى المقس بالقرب من باب الحديد حاليًا. وكان يحدها النيل من الغرب، والخليج من الشرق. وداخل تلك المنطقة كان هناك تقسيمات أصغر: الخور والدكة بين باب الحديد والأزبكية، والذكر، ومنطقة حى باب اللوق، وعدد من المناطق التى حكرت، سوف نتناولها فيما بعد.

كان اسم "اللوق" قائمًا فى العصر الفاطمى. ويبدو أنه كان يقصد به المنطقة الواقعة حول ميدان باب اللوق الحالى وما حولها على النيل الذى كان يجرى تقريبًا فيما أصبح حاليًا شارع محمد فريد. ومع انحسار النيل عن تلك الأراضى عرفت تلك الأراضى الغرينية بـ "ظاهر اللوق"، واشتملت على حدائق وميادين فى العصرين الأيوبى والمملوكى[٢٣]. الأمر نفسه ينطبق على المناطق الواقعة إلى الجنوب فيما كان يعرف بـ "بستان الخشاب". فى هذه المنطقة، وفى موضع يقع

بين ما كان "قنطرة السد" وفم الخليج حاليًا، أنشأ القاضي الفاضل حديقة غناء عرفت باسم بستان الفاضل، أو منشأة الفاضل، وفي العصر المملوكي باسم منشأة المهراني. وكان هذا البستان يمد أهالي الفسطاط بالعنب والتمر. وعلى طرف البستان شيد القاضي الفاضل مسجدًا قامت حوله المباني. "وكثرت بها العمارة، وأنشأ بها موفق الدين محمد بن أبي بكر المهدوي العثماني الديباجي بستانًا دفع له فيه ألف دينار في أيام الظاهر بيبرس". وبعد ذلك بقليل استولى النيل على الجامع الذي أنشأه القاضي الفاضل وبستانه جميعًا، على أن الصاحب بهاء الدين بن حنا أعاد بناء الجامع[٢٤].

وقُسمت الأراضي الجديدة (ظاهر اللوق) إلى الشمال من منشأة الفاضل إلى أحكار تم تحكيرها أو بيعها للأمراء وكبار رجال الدولة الآخرين في العصر الأيوبي وبدايات العصر المملوكي. ويبدو أن ذلك تم عن طريق بيت المال مباشرة. فكانت تلك الممتلكات بالتالي قابلة لبيعها أو زيادتها أو وقفها من قبل مالكيها. ويورد لنا المقريزي قائمة مطولة بها، سندرس هنا ما كان منها في العصر الأيوبي لنحدد دلالته الطبوغرافية والتغير الذي طرأ على ملكيته[٢٥].

قطعة القاضي الفاضل

اشترى القاضي الفاضل، حسبما يروي المقريزي، قطعة أرض كبيرة في منطقة اللوق، اشتراها من بيت المال وآخرين، وأنفق في ذلك مبلغًا عظيمًا من المال. وعرف هذا الحكر باسم بستان ابن قريش، وبما أن جزءًا منه كان داخل ميدان الظاهر؛ فربما كانت الحديقة بالقرب من باب اللوق، وتطل جزئيًا على النيل. وقد أوقفت على "العين الزرقاء" في المدينة المنورة؛ حيث كان ريع الوقف ينقل سنويًّا إلى المدينة لتنظيف هذه العين وما حولها[٢٦].

بستان ابن ثعلب

كان هذا البستان ذو الأفدنة الخمسة والسبعين يمتد من منشأة ابن ثعلب بالقرب من باب اللوق إلى الدكة (إلى الجنوب من المقس مباشرة، بالقرب من الأزبكية حاليًا)، ويضم داخل حدوده بركة قرموط والخور. ويفيض المقريزى فى وصف الفاكهة والخضراوات التى كان ينتجها هذا البستان، ويشير إلى أنه كان به آبار معينة ومنظرة عظيمة وعدة دور. وكان عليه سور مبنى، وله باب جليل "يواجه ما يعرف اليوم بباب اللوق". وكان فخر الدين ابن ثعلب هذا أحد أمراء الملك العادل، كما كان صاحب المدرسة الشريفية فى القاهرة. وقد باع ابنه حصن الدين بن ثعلب البستان إلى الملك الصالح سنة ٦٤٣ هـ /١٢٤٥-١٢٤٦ م مقابل ثلاثة آلاف دينار مصرية. وفى هذا الموضع أقام الصالح ميدانه (ميدان الصالح) وأقام به بوابة هى باب اللوق، ومن هنا جاءت تسمية المنطقة بهذا الاسم، وربما كان الباب فى موضع مدخل بستان ابن ثعلب نفسه. هذا الميدان هو ميدان باب اللوق حاليًا، وكان يتم الوصول إليه من الشرق عبر الطريق الذى يصل مباشرة من قنطرة الخرق (قنطرة فوق الخليج فى موضع ميدان أحمد ماهر حاليًا، ويطلق عليها العامة ميدان باب الخلق). وكان هذا الموضع المطل على الخليج فيما سبق رصيفًا يستخدمه السقاءون فى القاهرة. أما قنطرة الخرق فقد أنشأها الملك الصالح لتسهيل الوصول إلى ميدانه الجديد[٢٧].

ومن الصعب الوقوف بدقة على حدود منطقة باب اللوق. غير أن محيطها الجنوبى كان يصل إلى البستان الظاهرى، والشرقى إلى الخليج عند قنطرة الخرق، وكان النيل حدها الغربى، وكان الحى يضم جامع الطباخ(ربما شيده أحد المماليك الأوائل)، ويطل على بركة الشقاف. ويشير المقريزى إلى أن عدة مناظر كانت مقامة على تلك البركة فى وقت سابق "أيام كانت أراضى اللوق مواضع نزهة قبل أن تحتكر وتبنى دورًا، وذلك بعد سنة ستمائة [١٢٠٣ – ١٢٠٤ م]."[٢٨]

ويشير وصف المقريزى لميدان الصالح أن موقعه كان يمتد من جامع الطباخ إلى قنطرة قدادار على الخليج الناصرى. وكان هذا الخليج هو القنطرة الغربية التى شقها الناصر محمد بن قلاوون، وكانت تسير تقريبًا فى نفس الطريق الذى يحتله الآن شارع محمد فريد. و كان موقع باب اللوق، طبقًا لخريطة الحملة الفرنسية (والتى تشير إلى باب اللوق على أنه حى) ملاصقًا لهذا الخليج. أما تعيين موضع جامع الطباخ بدقة فهو أمر متعذر. وما نستطيع أن نطمئن إليه هو أن ميدان الصالح كان يحتل الموضع الحالى لميدان باب اللوق، ولا يمكن تحديد الحد الأدنى للمنطقة إلا من خلال وظيفتها فقط. فالمقريزى يشير إلى أن الصالح حول بستان ابن ثعلب إلى ميدان، على أنه من غير المحتمل، مع ذلك، أن يكون هذا الميدان قد امتد شمالاً إلى الدكة. وعلى الرغم من أن الميادين كانت تنشأ فى العادة لاستخدامها فى التدريبات والعروض العسكرية، فإن ميدان الصالح يبدو أنه قد أنشئ أساسًا لأغراض النزهة والترويح.

> أنشأ [الملك الصالح] فيه مناظر جليلة تشرف على النيل الأعظم وصار يركب إليه ويلعب فيه بالكرة...وما برح هذا الميدان تلعب فيه الملوك بالكرة من بعد الملك الصالح إلى أن انحسر ماء النيل من تجاهه وبعد عنه[٢٩].

يحتاج (غالبًا البولو) وإقامة المناظر مساحة شاسعة؛ لذلك فربما يحق لنا الاعتقاد بأن مصطلح "ميدان" يشير إلى مساحة واسعة أو مفتوحة فى الجزء الجنوبى من بستان ابن ثعلب، ربما كان يحتوى على ميدان أصغر أو مركز فى باب اللوق أيضًا. وقد وصفت بوابة باب اللوق التى أقامها الصالح كمدخل لميدانه بأنها بوابة جليلة، ولكن أصابها عطب شديد من جراء الاقتتال إلى أن هُدمت بعد سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩-١١٤٠ م[٣٠].

حكر البغدادية

كان هذا الحكر أحد أكبر البساتين الفاطمية، وكان يقع بالقرب من خليج الذكر إلى الغرب من منظرة اللؤلؤ. وطبقًا لما ذكره القاضى الفاضل، فقد أمر الملك العزيز سنة ٥٩٤ هـ /١١٩٧-١١٩٨ م بإزالة نخيله، وجعله ميدانًا "وحرث أرضه وقطع ما فيه من الأصول."(٣١) ويضيف المقريزى "ثم حكر الناس أرض هذا البستان وبنوا عليها، وهو الآن داثر فيه كيمان وأتربة."(٣٢) ولم يورد المقريزى معلومات أخرى حول الأنشطة التى كان يشهدها هذا الميدان. لذلك، فلنا أن نعتقد أن وظيفته كانت قصيرة العمر نسبيًا، وأنه قد جرى تقسيمه فى أواخر العصر الأيوبى أو أوائل العصر المملوكى.

الدكة، الخور

كانت الدكة أحد أكبر البساتين فى القاهرة، وتقع، طبقًا لما رواه المقريزى، بين أراضى اللوق والمقس، أى فيما أصبح الآن بين الأزبكية وميدان باب الحديد. وكان للخلفاء الفاطميين منظرة بهذا البستان.

وبه منظرة للخلفاء الفاطميين تشرف طاقاتها على بحر النيل الأعظم ولا يحول بينها وبين بر الجيزة شىء، فلما زالت الدولة الفاطمية تلاشى أمر هذا البستان وخرب، فحكر موضعه وبنى الناس فيه فصار خطة كبيرة كأنه بلد جليل وصار به سوق عظيم وسكنه الكتاب وغيرهم من الناس وأدركته عامرًا ثم إنه خرب منذ سنة ست وثمانمائة [١٤٠٣/١٤٠٤ م](٣٣)

وكان الخور يشمل المنطقة بين الخليج الناصرى وخليج فم الخور، ويضم جزءًا من بستان ابن ثعلب. وكانت تلك المنطقة معروفة أيضًا باسم بستان الخور الصعبى، حيث كان بها مناظر الصعبى، وهو شيخ توفى سنة ٦٠٣ هـ /١٢٠٦-١٢٠٧ م(٣٤)

حكر خزائن السلاح

كان يعرف قديمًا باسم حكر الأوسية، ويقع بين الدكة وقنطرة الموسكى (قنطرة على الخليج). وقد أوقف الملك العادل ريعه سنة ٦١٤ هـ /١٢١٧-١٢١٨م على خزائن السلاح، كما أوقف عليها أيضا بعض الأماكن فى الفسطاط وقليوب[٣٥].

حكر ابن منقذ

يقع خارج باب القنطرة على ضفة خليج الذكر، وكان هذا البستان يعرف فى البداية باسم الشريف الجليس (وربما كان ملكا له)، كما عرف أيضًا بالبطائحى، ثم آل فيما بعد إلى الأمير سيف الدولة بن منقذ نائب سيف الإسلام طغتكين (حاكم اليمن الأيوبى ٥٧٧-٥٩٣ هـ / ١١٨١-١١٩٦ م)، ثم انتقلت ملكيته إلى الشيخ عبد المحسن المخزومى المعروف بابن الصيرفى.

فوقفه [ابن الصيرفى] على جهات تؤول أخيرًا إلى الفقراء والمساكين المقيمين بمشهد السيدة نفيسة والفقراء والمساكين المعتقلين فى حبوس القاهرة فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة [١٢٤٥-١٢٤٦ م]، ثم أزيلت أنشاب هذا البستان وحكرت أرضه وبنيت الدور والمساكن عليها، وهو الآن خراب[٣٦].

أحكار أيوبية أخرى

هناك أربعة أحكار أيوبية أخرى أشار المقريزى إليها وتقع على الشاطئ الغربى للخليج. وهى قليلة الأهمية نسبيًا، وسوف نشير إليها بإيجاز شديد هنا. أحكار جوهر النوبى، وابن الأسد جفريل، وخطلبا، كانت من ممتلكات أمراء الكامل. وأخيرًا

هناك حكر البواشقى، وهو ملك الأمير أزدمر البواشــقى ، أحـد أمــراء الملــك الصالح[٣٧].

المتنزهات ومنكراتها ومنع تلك المنكرات

منذ عهد العزيز وما تلاه، انتشرت عدة بؤر للشراب والمنكر والفحشاء فـــى منطقة القاهرة، خاصة على الخليج وشاطئ النيل. وعلى الرغم من أن الملـــك العزيـــز كان شديد الحماس لكبح تلك الفعال، فقد استمرت بقية العــصر الأيــوبى. ويــذكر المقريزى فى "كتاب السلوك" أنه فى سنة ٥٩٠ هـــ /١١٩٣-١١٩٤ م كان العزيز راكبًا إلى الجيزة، وعند مروره بباب زويلة استاء لانتشار دكك باعة الخمــر فـــى الأسواق، وأمر بتدميرها. بالإضافة إلى ذلك فقد مر السلطان "بـصناعة العمـــائر فرسم بسد طاقات الدور المجاورة للنيل فسدت."[٣٨] وفى العام نفسه هدم المحتسب حوانيت واصطبلا كان صدر الدين بن درباس أنشأها فى زيادة الجـامع الأزهـــر بجوار داره[٣٩]. وفى سنة ٥٩٤ هـــ /١١٩٧-١١٩٨ م أمر الملك العزيـــز بمنـــع البناء فى المواضع التى كان الأمراء قد شرعوا فى بنائها علـــى النيـــل (غيـــر أن المقريزى لم يذكر تحديدًا أكثر لتلك المنطقة). وخرج الجنادرية وألزموا كـــل مـــن حفر أساسًا بردمه، "فامتثل الأمر"[٤٠].

ويورد القاضى الفاضل فى متجددات ٥٩٤ هـــ / ١١٩٧ –١١٩٨ م:

> نهى[العزيز] عن ركوب المتفرجين فى المراكب فـــى الخلـــيج وعن إظهار المنكر وعن ركوب النساء مع الرجال وعلق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم. قال وفى يوم الأربعاء تاسع عشر رمـــضان ظهر فى هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد فى مصر فى وقت مـــن الأوقات ومن الفواحش ما خرج من الدور إلى الطرقات وجرى الماء فى الخليج بنعمة الله تعالى بعد القنوط ووقوف الزيـــادة فـــى الـــذراع

السادس عشر فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة فى مراكب فى نهـار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهن المزاهر يـضربن بهـا وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة وحرفاؤهن من الرجال معهن فى المراكب لا يمنعون عنهن الأيدى ولا الأبصار ولا يخافون من أميـر ولا مأمور شيئا من أسباب الإنكار وتوقع أهل المراقبة ما يتلـو هـذا الخطب من المعاقبة."(٤١)

ويبدو أن وجود الماء شجع على المجون. فها هو ابن سعيد يصف الخليج – " [هذا القسم] الذى يقع بين القاهرة والفسطاط ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة" بعد ذلك بخمسين سنة – بأنه "ضيق عليه فى الجهتين مناظر كثيـرة العمـارة بعـالم الطرب والتهكم والمخالعة حتى إن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب." وعلى ذلك، فلم تؤثر إذن جهود الملك العزيز إلا تأثيرًا مؤقتًا كمـا كـان متوقعًا(٤٢).

ملخص

كانت منطقة اللوق والبر الغربى للخليج فى العصر الفاطمى ملأى بالمناظر والمتنزهات وبعض البساتين. وعندما خلق الفيضان أراضى جديدة فـى العـصر الأيوبى وبدايات العصر المملوكى بيعت تلك الأراضى أو تم تحكيرها لكبار رجال السياسة و/أو الدين، وكان من الممكن بالطبع تقسيم تلك الأحكار أو بيعها أو نقـل ملكيتها أو توريثها. وكان بها دور وسوق واحد منذ بدايات العصر الأيوبى، إن لـم يكن قبل ذلك. غير أن مثل تلك المبانى ربما كانت تجمعـات صـغيرة أو مبـانى متناثرة أقامها حراس البساتين، وكان هذا هو الحال بشكل عام حتـى فـى وقـت الحملة الفرنسية. وكان ريع تلك البساتين يؤول إلى بعض المستفيدين من الأفـراد،

والمؤسسات الدينية والخيرية، والهيئات الحكومية، على نحو مباشر أو على سبيل الوقف.

كان الاستخدام الأساسى للبر الغربى للخليج فى العصر الأيوبى يتمثل فى أغراض الزراعة، يلى ذلك فى الأهمية أنه كان مكانًا لنزهة السلاطين وموضعًا لميادينهم وما تحويه من مناظر، وكذلك لنزهة الأمراء، وربما أيضًا بعض أفراد الطبقات الدنيا الذين كانوا يعملون فى بناء و/أو إعادة استخدام المناظر وغيرها من منشآت على الخليج وعلى شاطئ النيل.

المنطقة الواقعة بين القاهرة والفسطاط

يمكننا أن نصف حدود تلك المنطقة على النحو التالى: باب زويلة والسور الجنوبى للقاهرة فى الشمال، والشاطئ الشرقى للخليج فى الغرب، والحدود الشمالية للقاهرة (من الحمراء القصوى إلى الشرق حتى مشهد السيدة نفيسة وبدايات القرافة الجنوبية) فى الجنوب، و منطقة الدرب الأحمر الحالية والقلعة فى الشرق. كانت تلك المنطقة تضم، داخل أسوار صلاح الدين، جانبًا عظيمًا من العاصمتين السابقتين، العسكر والقطائع، وبركة الفيل، وبركة قارون، والدرب الأحمر والقلعة مع المناطق المرتبطة بها. وهناك نوع من الالتباس فيما يتعلق بأنماط المنشآت واستغلال الأرض فى تلك المنطقة خلال العصر الأيوبى. فهناك شيء من التناقض بين رواية المقريزى وروايتى عبد اللطيف البغدادى وابن سعيد المغربى، بل إن رواية المقريزى نفسها يعتورها التناقض فى بعض مواضعها. فبعد حريق حارة المنصورية (خارج باب زويلة إلى الغرب من الشارع الأعظم) فى أثناء قمع ثورة الجند السودان سنة ٥٦٤ هـ /١١٦٨ م، تمت إزالة الحارة تمامًا وزرع بستان فى مكانها. وربما انطبق ذلك على الحارات المجاورة أيضًا، حيث يقول المقريزى إن المنطقة الواقعة خارج باب زويلة وحتى مشهد السيدة نفيسة أصبحت كلها بساتين.

وكان هناك طريق يجاور تلك البساتين يصلها بالقلعة، وهى إشارة إما للدرب الأحمر أو لصليبة ابن طولون[٤٣].

وقد كانت القلعة – التى سنتناولها بالتفصيل فى الفصل الرابع – هى محور المنشآت الجديدة، سواء فى المنطقة المحيطة بها مباشرة أو فى الشريانين اللذين يصلانها بالخليج والفسطاط (الصليبة)، وباب زويلة والقاهرة (الدرب الأحمر). وعندما انتقل الملك الكامل بشكل نهائى من دار الوزارة إلى القلعة، نُقل سوق الخيول والجمال والحمير إلى الرميلة (ميدان صلاح الدين حاليًا). وربما كان موضع الإسطبلات السلطانية متاخمًا للرميلة. وإلى الجنوب، يقع قرة ميدان (ميدان القلعة عند المقريزى)، وهو الموضع القديم لميدان أحمد بن طولون. وقد أعاد الملك الكامل بناء هذا الميدان؛ حيث أنشأ ثلاث برك على أطرافه بها ماء صالح للشرب يأتى على ما يبدو، مباشرة من النيل، ثم أتى على الميدان حين من الدهر كان فيه معطلاً حتى تولى العادل الثانى (٦٣٥-٦٣٧ هـ /١٢٣٨-١٢٤٠ م) الحكم فأعاد له الحياة، ثم أقام الملك الصالح ساقية أخرى وزرع الأشجار على جوانبه. وبعد وفاة الصالح تدهورت حال الميدان بالتدريج حتى دمره الملك المعز أيبك سنة ٦٥١ هـ /١٢٥٣-١٢٥٤ م[٤٤].

وعلى الرغم من أن الدرب الأحمر (الطريق الواصل بين باب زويلة والقلعة) كان قد تطور بالفعل فى تلك الفترة، فإن حجم الإنشاءات التى شهدها فى العصر الأيوبى يبقى غير مؤكد. فالمقريزى يقول عند حديثه عن ما حول باب زويلة، إن أول من بنى بين هذا الباب والجبل (أى موقع القلعة) هو الوزير الصالح طلائع عندما أنشأ مسجده سنة ٥٥٥ هـ /١١٦٠ م. وبين هذا المسجد (خارج باب زويلة مباشرة وإلى اليسار) والخندق أنشئت جبانة "من حين بنيت الحارات خارج باب زويلة."[٤٥] وكما ذكرنا فى السابق، فقد أنشئت تلك الحارات فى السنوات الأولى من العصر الفاطمى وأيضًا فى وقت لاحق فى أوائل القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى. وعلى كل الأحوال، فقد سبقت تأسيس

المسجد. وعلى ذلك فنستطيع القول مطمئنين بأن الجبانة قد تأسست أيضًا حوالى ٥٤٥ هـ /١١٥٠-١١٥١ م. وطبقًا للمقريزى، فقد اجتنب تشييد القلعة الناس إلى الدرب الأحمر، الذى عمر بالبنيان فى تلك المنطقة تدريجيًا، مزيحًا المقابر أثناء عملية البناء[٤٦]. أما فى كل مكان آخر، فيقول المقريزى:

> وجميع ما فى هذه الجهة اليسرى [من باب زويلة] كان فضاء لا عمارة فيه البتة إلى ما بعد سنة خمسمائة من الهجرة [١١٠٦-١١٠٧ م] فلما عمر الوزير الصالح طلائع بن رزيك جامع الصالح الموجود الآن خارج باب زويلة صار ما وراءه إلى نحو قطائع ابن طولون مقبرة لأهل القاهرة إلى أن زالت دولة الخلفاء الفاطميين وأنشأ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة الجبل...وصار يسلك إلى القلعة من الجهة اليسرى فيما بين المقابر والجبل ثم حدثت بعد المحن هذه العمائر الموجودة هناك شيئًا بعد شيء من سنة سبعمائة [١٣٠٠-١٣٠١ م][٤٧].

بيد أن تاريخ المحن المشار إليها هنا يثير التساؤلات؛ فربما أراد بها المقريزى المجاعات والأوبئة التى وقعت سنة ٥٩٧-٥٩٨ هـ /١٢٠١-١٢٠٢ م، ولكن هذا مشكوك فيه لأن الكامل لم ينتقل بشكل نهائى إلى القلعة إلا سنة ٦٠٤ هـ /١٢٠٧-١٢٠٨ م. وربما أيضًا كان يقصد أيًا من العديد من المحن الطبيعية أو السياسية التى وقعت خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى. ومع افتقارنا لشواهد أخرى لا نستطيع إلا أن نعتبر أن النشاط العمرانى فى الدرب الأحمر، والذى حل محل الجبانة الفاطمية بين باب زويلة والقلعة، كان تقريبًا بين عامى ٦٠٤ و ٧٠٠ هـ (١٢٠٧ و ١٣٠١ م) مع تزايد احتياجات سلاطين الأيوبيين والمماليك المقيمين للسلع والخدمات.

وقد كانت المنطقة المحيطة ببركة الفيل غير عامرة فى العصر الفاطمى، باستثناء بساتين ربما كانت مرتبطة بالحارات العسكرية خارج باب زويلة. وخلال

الفترة المبكرة من العصر الأيوبى كان هناك بستانان عظيمـــان يحفـــان بالبركـــة: بستان الحبانية إلى الشمال، ويعود للعصر الفاطمى، وبستان سيف الإسلام طغتكين ابن أيوب (أخى صلاح الدين ونائبه على اليمن) إلى الشرق. وكان هــذا البـــستان الأخير يشرف على البركة ويتميز بدهاليز رحبة كما كان به جواسق تواجه الجهات الأربع الأصلية. ويقول المقريزى إن شطآن بركة الفيل لم تصبح مأهولة حتى عام ٦٠٠ هـــ / ١٢٠٣-١٢٠٤ م تقريبًا، أما قبل ذلك فكان يحيط بها سهل واسع يمتد إلى الشمال حتى حارتى السودان واليانسية. وكانت البيوت هنـــاك مـــن أروع مـــا بمصر من بيوت. ويشير المقريزى أيضًا إلى أن العديد من المشارقة الذين قـــدموا مصر قبل اكتساح جانكيز خان استقروا حول بركة الفيل على جانبى الخلـــيج بـــين عامى ٦١٠ و ٦٥٦ هـــ (١٢١٣-١٢١٤ و ١٢٥٨ م). ويؤيد ذلك ما قالـــه ابـــن لقلق؛ حيث يقول: " وكانت كثرة العماير [سنة٦٣٧ هـــ / ١٢٣٩-١٢٤٠ م] لأجل كثرة الواصلين من الشام والشرق، لأنه وصل منهم في هذه الأيام أمم لا تحـــصى، وبنوا لهم أدر كثيرة برا المدينة وفي ساير المواضع والطرقات(٤٨) .

بيد أن ربط درجة الدمار و/أو قلة المبانى بإحراق صلاح الـــدين لحـــارات العبيد تثير التساؤلات. فعبد اللطيف البغدادى عند وصفه لأحداث سنوات المجاعـــة ٥٩٧-٥٩٨ هـــ /١٢٠١-١٢٠٢ م يشير إلى أنه فى ســـنة ٥٩٧ هـــــ /١٢٠١ م كانت المنازل على الخليج وحارة الحلب مهجورة تمامًا. ويشير أيضًا إلى أن حارة الهلالية، والجانب الأعظم من الشارع الرئيسى خارج بـــاب زويلـــة، والقـــصور الواقعة على القناة، وحارة اليانسية وما حولها من أحيـــاء كانـــت كلهـــا مهجـــورة ومهدمة. وبما أن البغدادى عاش فى القاهرة منذ ٥٩١ هـــ /١١٩٤-١١٩٥، فمن المرجح أنه رأى تلك المناطق مأهولة بالسكان قبل سنوات المجاعة، وهو ما يعنـــى نفى مقولة المقريزى بأنه بعد دمار حارة المنصورية لم يكن هناك إلا بساتين بـــين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة، أو أن هذه المنطقة شهدت حركة عمران واســـعة خلال الأعوام الخمسة والعشرين التى تلت ثورة الجند السودان(٤٩).

وعندما بدأ الملك الصالح في تشييد جواسقه على جبل يشكر (المرتفعات الواقعة إلى الشرق مباشرة من جامع ابن طولون) حوالي سنة ٦٤٠ هـ /١٢٤٢-١٢٤٣ م، لم يكن هناك، طبقًا لما ذكره المقريزى، أى مبانٍ على بركة الفيل، ولا شيء باستثناء البساتين من صليبة ابن طولون إلى باب زويلة، على الشاطئ الغربى للخليج من قناطر السباع إلى المقس، ومن قناطر السباع إلى باب مصر (رقم ١٠٤، خريطة ٣). وتشير هذه المعلومة الجديدة - إضافة لما عرضنا له حول الشاطئ الغربى للخليج - إلى أن الشارع الأعظم والحارات العسكرية السابقة إلى الجنوب من باب زويلة، كما يشير عبد اللطيف، كانت لا تزال مهجورة. غير أن ذلك لا يفسر الغياب المفاجئ للمبانى التى يعتقد أن المشرقيين شيدوها على بركة الفيل على شاطئى الخليج (٦١٠-٦٥٦ هـ /١٢١٣-١٢٥٨ م)[٥٠].

ويضيف ابن سعيد الذى عاش فى مصر فى السنوات الأولى لحكم الصالح بعض التفاصيل؛ فهو يشير إلى أنه " لم يبق الآن أثر لمدينة القطائع الطولونية غير جامع ابن طولون ، وهو خارج القاهرة، وحوله المبانى من غير سور يدور عليها". " وبركة الفيل" "دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم" أما كون تلك المناظر كانت هى تلك التى شادها "المشرقيون" أم التى شادها رجال بلاط الملك الصالح سعيًا للتقرب من السلطان فهو أمر قابل للنقاش[٥١].

ملخص

على الرغم من أن إحراق صلاح الدين لحارة المنصورية وما تلاه من زراعة المنطقة بالبساتين أدى بلا شك إلى تسوية منطقة لا بأس بها بالأرض إلى الجنوب من باب زويلة، فإنه من المشكوك فيه بالفعل أنه لم يبق غير البساتين بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة، وذلك إذا أخذنا فى الاعتبار وصف عبد اللطيف

البغدادى لأطلال الشارع الأعظم وما حوله من حارات سنة ٥٩٧-٥٩٨ هـ / ١٢٠١-١٢٠٢م. غير أن تلك المنطقة، حتى صليبة ابن طولون على الأقل، كانت، على ما يبدو، ملأى بالبساتين بعد فترة المجاعة، واستمر ذلك حتى عهد الملك الصالح. وقد ضمت تلك المناطق الزراعية أقسامًا عظيمة من العاصمتين السابقتين، العسكر والقطائع، وكانت تحف فى الجنوب والجنوب الغربى ربما بالطرف الشمالى للدمار الذى تسبب فيه حريق الفسطاط ٥٦٤ هـ /١١٦٨ م(خاصة فى منطقة الحمراء القصوى).

أما شواطئ بركة الفيل التى قال المقريزى بخلوها من المساكن عند بناء الملك الصالح لجوسقه (قلعة الكبش) على جبل يشكر، فقد كانت مأهولة بجواسق سيف الإسلام طغتكين وسكنها (طبقًا للمقريزى أيضًا) المشارقة (٦١٠-٦٥٦ هـ / ١٢١٣-١٢٥٨ م). وربما يكون من غير المحتمل أن شواطئ تلك البركة كانت خلوًا من العمارة عندما بدأ الصالح فى بناء قلعة الكبش حوالى ٦٤٠ هـ /١٢٤٢-١٢٤٣ م.

وأخيرًا، فقد أدى بناء القلعة وما ارتبط بها من سوق للخيل وإسطبلات وميدان إلى نشأة طريق جديد عبر منطقة الجبانة القديمة، وهو الدرب الأحمر.

الفسطاط والروضة والجيزة

توحى الشواهد الأثرية، كما أشرنا فى الفصل الأول، بأن الدمار الذى حل من جراء حريق ٥٦٤ هـ /١١٦٨ م لم يمتد شرقًا إلى أبعد من جامع عمرو وقصر الشمع. وعلى الرغم من أن روايات المؤرخين المصريين والرحالة المعاصرين تؤكد جميعها على حدوث الحريق، فإنها تصف الأمر على أنه أصاب بعض

المناطق المأهولة فى الفسطاط، وليس بأنه كان محرقة، كما ذهب المقريزى، بل ويقدمون لنا صورة كاملة ومنطقية عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية للفسطاط وما حولها من منتصف القرن السادس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى إلى منتصف السابع الهجرى / الثانى عشر الميلادى.

فها هو محمد الإدريسى، الذى زار الفسطاط حوالى ٥٤٩ هـ /١١٥٤-١١٥٥ م، يصف المدينة بأنها ذات ثراء عظيم، تتوافر فيها كل السلع، وشوارعها واسعة ولها حقول مزروعة، ويمتد جسر من ثلاثين مركبًا من الفسطاط إلى الروضة؛ حيث العديد من المنازل المتلاصقة التى أقيمت على جانبى النهر، ويمتد جسر آخر من المراكب من الشاطئ الغربى للروضة إلى الجيزة، المزدانة بالبيوت الرائعة، والمبانى الشاهقة، والأسواق، والحقول الخضراء. أما بقية وصف الإدريسى فمنقول نقلاً شبه حرفى من رواية ابن حوقل التى تعود للقرن الرابع الهجرى/ الحادى عشر الميلادى(٥٢).

كما زار الفسطاط والقاهرة خلال السنوات الأخيرة من حكم الخليفة العاضد الحاخام الأندلسى، بنيامين التطيلى. ويعتقد "ألدر" أن إقامته بالقاهرة كانت بين عامى ٥٦٤ و ٥٦٧ هـ (١١٦٨-١١٦٩ و ١١٧١-١١٧٢ م). على أية حال فوصول بنيامين إلى صقلية (التى رحل منها مباشرة إلى مصر) لم يكن قبل ١١٦٩م (تبدأ فى ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ). لذلك فمن المحتمل جدًا أن يكون قد زار الفسطاط بعد حريق ٥٦٤ هـ /١١٦٨ م. وبالرغم من أن اهتمامه انصب أساسًا على الجاليات اليهودية المحلية فقد أورد بنيامين بعض التفاصيل عن الفسطاط والقاهرة وما حولهما من مناطق. فهو يصف مصرايم (الفسطاط) بأنها مدينة عظيمة بها جالية من اليهود تقدر بألفى يهودى ومعبدان يهوديان، وأن القاهرة كانت محاطة بسور، بينما كانت الفسطاط مفتوحة، وكان النيل " يجرف جزءًا منها...وكانت المدينة [الفسطاط] عظيمة الحجم بها الكثير من الأسواق، وخانات كثيرة، والعديد من أثرياء اليهود سكنوها"، وفيما يتعلق بالجيزة يقول:

من مصرايم الجديدة [الفسطاط] إلى مصرايم القديمة [الجيزة] مسافة فرسخين. وقد أصبحت مصرايم القديمة أطلالاً، ولكن المرء لا يزال يستطيع أن يرى الجدران والمساكن حتى الآن، وكذلك أهراء يوسف [الأهرامات] الكثيرة العدد.(٥٣)

أما أبو صالح الأرمنى الذى غطت معايشته لأحوال مصر الفترة من ٥٦٨ هـ /١١٧٣ م إلى ٦٠٤ هـ /١٢٠٨ م، فيقدم لنا فى كتاب "تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى Churches and Monasteries of Egypt" (*) وصفًا مفصلاً للمؤسسات المسيحية فى الفسطاط وبركة الحبش. أما منطقة الحمراء، وهو الاسم الذى كان يطلق على المنطقة الممتدة من جنوب غرب جامع ابن طولون بامتداد شاطئ الفسطاط وحتى جامع عمرو، فقد كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الحمراء الدنيا، إلى الشمال الشرقى مباشرة من جامع عمرو، والحمراء الوسطى، وهى المنطقة الوسطى إلى الشمال من الحمراء الدنيا، والحمراء القصوى، وهى المنطقة الشمالية المحاذية لشاطئ الخليج. وخلال الفترة الأخيرة من العصر الفاطمى والعصر الأيوبى كان هناك العديد من الأديرة والكنائس فى تلك المناطق، معظمها أصابه دمار شديد إن لم تكن قد دمرت تمامًا خلال الفترة بين عامى ٥٥٩ و ٥٦٤ هـ (١١٦٣-١١٦٤ و ١١٦٨-١١٦٩ م). وعلى الرغم من أن المرء يود لو استطاع أن يرسم صورة حريق الفسطاط ٥٦٤ هـ /١١٦٨م بدقة اعتمادًا على تلك الحوليات، فإن ذلك يبدو مستحيلاً للأسف؛ فمعظم عمليات إضرام الحرائق والسلب والتدمير التى أصابت تلك الكنائس كانت نتيجة عنف الغوغاء الذى غذته المشاعر المعادية للمسيحيين نتيجة الغزوات الصليبية المتتالية. وعلى الرغم من أننا سوف ندرس الكنائس بالتفصيل فى الفصل السابع، فإننا سوف نشير هنا باختصار إلى

(*) نشر مقتطفات من هذا الكتاب بالعربية: صموئيل السريانى تحت عنوان "تاريخ أبو المكارم: تاريخ الكنائس والأديرة فى القرن الثانى عشر." (المترجم)

الظروف التى مرت بها ست من كنائس وأديرة الفسطاط حتى نوضح النقاط السابقة[٥٤].

كانت كنيسة الحمراء "العظيمة"، والمعروفة أيضًا بكنيسة مار جرجس تقع فى الحمراء القصوى. وقد "هاجم الغز والكرد تلك الكنيسة مع غوغاء القاهرة وساووها بالأرض مثل الكنائس الأخرى فى شهر جمادى الأول فى سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م، ثم رممت سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ - ١١٦٥ م"[٥٥]، كما نهبت كنيسة مكرسة للملاك جبرائيل فى الحمراء أيضًا من قبل "الغز وأهل القاهرة" وأحرق جزء من سقفها. على أن تلك الكنيسة تم ترميمها فى خلافة العاضد، كما نهبت كنيسة أخرى (لم يذكر اسمها، ولكنها ربما كانت فى الحمراء القصوى أيضًا؛ حيث إنها كانت تطل على الخليج)، وتهدمت أجزاء من جدرانها "عندما احترقت مصر فى شهر صفر من سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م"[٥٦] . وبالقرب من قنطرة السد كان يقع دير وكنيسة مار مينا، فى الحمراء القصوى أيضًا

> فى شهر جمادى الأول، من سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م، عندما جاء الكرد والغز مع صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستدعى ملك الفرنجة، واستعدى عليهم أحرق الدير والكنيسة وسويًا بالأرض... ورمم جزء من الكنيسة فى خلافة العاضد ووزارة شاور[٥٧].

وقد احترقت كنيسة أبو نفر السائح فى الحمراء الوسطى فى حريق الفسطاط، ثم رممت بعد ذلك[٥٨].

أما كنيسة مرقوريوس (أبى السيفين)، فقد كانت تحتل موقع دير أبى السيفين الحالى، إلى الشمال الغربى من جامع عمرو، فى ما كان يُعرف بالحمراء الدنيا. وقد أضرم الغوغاء النار فى تلك الكنيسة، طبقًا لما ذكره أبو صالح بعد حريق الفسطاط، فحاولوا نهبها وأضرموا النار فيها حتى لم يبق منها سوى الجدران، ثم رممت سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥-١١٧٦م. وقد جرى ترميم عدد من الكنائس

الصغيرة المتاخمة لأبى سيفين "بعد الحريق" التى ربما تكون قد تضررت من أحداث الشغب التى أعقبت حريق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م[٥٩].

وبنظرة سريعة على تلك الأديرة والكنائس، نستطيع أن نخلص إلى أن تلك المؤسسات على الرغم من أنها أضيرت و/أو دمرت على يد الغز والكرد والغوغاء خلال الفترة بين عامى ٥٥٩ و ٥٦٤ (١١٦٣-١١٦٤ و ١١٦٨-١١٦٩) فإن السبب وراء هذا الدمار يبدو أنه كان خليطًا من مشاعر العداء للمسيحيين بعد تكرار حملات عمورى والصليبيين، بالإضافة إلى حالة الفوضى العامة التى تميزت بها تلك الفترة فوفرت الفرص لأعمال السلب والنهب. والكنيسة الوحيدة التى أصابها الحريق بشكل مؤكد إبان حريق الفسطاط هى كنيسة أبى نفر السائح. وبالتالى، فلو تغاضينا عن خطأ فى تأريخ أبى صالح، فإن رواياته تشير إلى أن منطقة الحمراء التى كانت تقع على شاطئ النيل لم يصبها ضرر – نسبيًا – فى حريق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م.

بركة الحبش والمناطق الجنوبية

يقدم لنا أبو صالح، بالإضافة إلى ذلك، بعض المعلومات حول بركة الحبش و"بساتين الوزير"، والتى تعرف حاليًا باسم "البساتين". فقد أنشأ تلك البساتين أبو الفرج وزير المستنصر سنة ٤٥٠ هـ /١٠٥٨-١٠٥٩ م، وكانت آنذاك منطقة مناظر ومتنزهات، أضاف لها تاج الملك، أخو صلاح الدين، مناظر ومتنزهات جديدة. وضم للحديقة كنيسة القديس بقطر، كما كانت تقع على أطرافها مباشرة كنائس وأديرة أخرى[٦٠].

وفى الجانب الجنوبى من بركة الحبش، بينها وبين النيل، وبالقرب مما يعرف حاليًا باسم رباط أثر النبى، كانت هناك حديقة تُعرف باسم "المعشوق". وطبقًا للمقريزى فقد أصبحت تلك الحديقة، بعد أن انتقلت بين العديد من الملاك،

وقفًا للشيخ ابن الصابونى، أوقفه على ابنه وعلى رباطه (بالقرب من ضريح الإمام الشافعى بالقرافة). وفى فقرة أخرى يقول المقريزى إن جزيرة الصابونى، المقابلة لرباط الأثر، وجزءًا من بركة الحبش (أى بستان المعشوق بلا شك)، كانت وقفا نصفه على ابن الصابونى وولده، ونصفه على الرباط المذكور فى القرافة. وكان مُنشئ هذا الوقف هو نجم الدين والد صلاح الدين، ولكن ليس لدينا للأسف أية معلومات أخرى عن الموضع المحدد لهذا الرباط فى القرافة أو عن تاريخه فيما بعد[٦١].

بركة الحبش

وتحولت بركة الحبش إلى وقف أوقفه الوزير الفاطمى الصالح طلائع بن رُزِّيك على الأشراف. وقد ثبت هذا الوقف عند قاضى القضاة ابن جماعة سنة ٦٤٠ هـ /١٢٤٢-١٢٤٣ م، خلال حكم الملك الصالح، عندما تم تقسيمه بالتساوى بين مجموعتين من الأشراف هما الأقارب والطالبيون. ويجب ألا ننسى أن بركة الحبش هى أكبر بركة غرينية فى منطقة القاهرة (أكثر من ألف فدان)، كان يغطيها النيل عند ارتفاعه. أما بقية العام فقد كانت تنعم بواحدة من أكثر الأراضى خصوبة فى المنطقة، وكانت تزرع، كما يشير ابن سعيد، بالكتان والكرات ومزروعات أخرى[٦٢].

وصف ابن جبير

يوحى وصف ابن جبير للفسطاط (٥٧٨ هـ /١١٨٣ م) بأن المدينة قد شهدت ترميمات هائلة خلال النصف الأول من حكم صلاح الدين. فبعد أن بدأ بوصف مقتضب لجامع عمرو يقول إنه على الرغم من أن بقايا حريق ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م كانت لا تزال واضحة فإن معظم المدينة كان قد رُمِّم، وتلاصقت مبانيها

دون فواصل فيما بينها، كما لاحظ أن الجيزة كانت قرية كبيرة حفيلة البنيان، لها سوق عظيمة، وأن الروضة كانت جزيرة "فيها مساكن حسان وعلالى(*) مشرفة، وهى مجتمع اللهو والنزهة"، كما كان بها أيضًا مسجد جامع.(٦٣)

ومن الجدير بالذكر هنا، أن الطرف الشمالى للروضة كان، جريًا على العادة السابقة، منطقة مناظر كان قد بناها الأمير الأفضل بن أمير الجيوش، وبعد وفاته، سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م، أصبحت موضع "الهودج"، وهو جوسق بناه الخليفة الآمر لزوجة من البدو كان قد تزوجها. ويذكر ابن دقماق أن مناظر الأفضل أصابها الإهمال وتهدمت، وبقيت على حالتها هذه حتى كانت نهاية أيام الفاطميين ومجيء حكم صلاح الدين فاشترى تقى الدين عمر، ابن أخى صلاح الدين، الجزيرة كلها سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ - ١١٧١ م، ثم أوقفت بعد ذلك على مدرسته (المدرسة التقوية) فى الفسطاط.(٦٤)

المجاعة والدمار (٥٩٧-٥٩٨ هـ /١٢٠١-١٢٠٢ م)

أسلفنا وصف الكوارث التى ألمت بالفسطاط والقاهرة نتيجة لانخفاض النيل عامى ٥٩٧-٥٩٨ هـ /١٢٠١-١٢٠٢م. وقد شهدت إعادة إعمار الفسطاط وبنائها بعد حريقها انتكاسة حقيقية وإن لم تكن قاصمة. فعلى الرغم من أن المنطقة المأهولة بالسكان كانت قد تقلصت إلى مجرد شريط ضيق بمحاذاة النيل، فإن أول عواصم مصر الإسلامية قُدِّر لها أن ترى نهضة جديدة واحدة على الأقل، وإن كانت جزئية.(٦٥)

* أورد حسين نصار، فى نشره لكتاب ابن جبير، معنى علالى فذكر أنها : "جمع علية، وهى الغرفة فى أعلى الدار، وهى ما نسميه اليوم "الفيلا". انظر طبعة حسين نصار ص ٢٥. (المترجم)

إعادة الإحياء في عهد الملك الصالح

كان بناء قصر وقلعة الملك الصالح في الروضة، والذي بدئ فيه سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٠م بمثابة شرارة البدء في دورة جديدة من الرخاء النسبي للفسطاط، وإن لم يدم طويلاً. وقد أشرنا في السابق إلى مقارنة ابن سعيد بين القاهرة والفسطاط (حوالي ٦٣٩ هـ /١٢٤١-١٢٤٢ م). ونظرًا لقرب مرافئ الميناء من الفسطاط، نعمت تلك المدينة بأسعار رخيصة للغاية للسلع الأساسية. واتسعت الأسواق، حيث بنى الملك الصالح قيسارية أمام جسر الروضة، فانتقل سوق الجنود من ثم من القاهرة. وعلى الرغم من تقلص مساحة شاطئ النيل فقد كانت الفسطاط، تنعم بوفرة من المراسي، كما كان يجري سنويًا تطهير القناة بين الروضة والفسطاط، والتي كان الطمي يرسب فيها.[٦٦] وكانت أسواق الفسطاط ملأى بالسلع، المحلِّي منها والمستورد عبر البحرين المتوسط والأحمر، فكنت تجد فيها مصانع الحلوى، ومصانع الصابون، ومسابك الزجاج، ومسابك الحديد والنحاس، ومصانع الورق، "وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها تجهز إلى القاهرة وسائر البلاد."[٦٧]

وعلى الرغم من تلك المزايا، نجد ابن سعيد يصف الفسطاط بأنها قذرة وموحلة، هائجة الرياح، سوداء الأسوار، مغبرة الأفق. ومعظم المدينة خرب، ولكنها ذات أسواق عظام فيها ضيق. وطرقاتها ضيقة ترتفع على جوانبها البيوت المبنية من الطوب الأدكن والقصب والنخل، طبقة فوق طبقة. غير أن مما خفف من وطأة ذلك بناء أمراء الملك الصالح للدور والمناظر على امتداد شاطئ النيل، يجذبهم في ذلك بالطبع انتقال أستاذهم إلى جزيرة الروضة. أما جامع عمرو، والذي كان لا يزال هو المركز، فقد كان خربًا نسبيًا، وإن كان العلماء يؤمونه لتدريس القرآن والفقه والنحو.[٦٨]

ملخص

على الرغم من أن حريق الفسطاط ٥٦٤ هـ /١١٦٨م قد وقع بالقطع، فإن آثاره التدميرية كانت متناثرة، ولم يكن بالهول الذى وصفه المقريزى، إذا ما أخذنا فى الاعتبار ما اقتطع قبل ذلك من المدينة. وتكرار حوادث العنف من قبل الدهماء – خاصة ضد المسيحيين – ربما أدى به إلى التهويل من شأن الحريق ليقول باستمراره لخمسة وخمسين يومًا. ويوحى وصف ابن جبير بأن الترميم كان على عجل نسبيًا. على أية حال، فقد كانت قدرة الفسطاط على البقاء واستعادتها لكيانها فى العصر الأيوبى، على الرغم من الدمار وهجر سكانها لها بسبب مجاعات ٥٩٧-٥٩٨ هـ /١٢٠١-١٢٠٢ م مرده إلى عوامل رئيسة ثلاثة: أولها أن الفسطاط كانت هى الميناء الوحيد للقاهرة خلال العصر الأيوبى. وقد أصبحت الفسطاط فى العصر الأيوبى (وربما الروضة أيضًا) مركز النشاط الملاحى المحلى، إلى جانب دورها الأساسى كميناء تجارى للقاهرة، وذلك نظرًا لتراكم الطمى فى المقس. وثانيًا كان لبناء الملك الصالح لقلعته فى الروضة أثره فى بعث أنشطة التجارة والبناء المحلية من جديد. وأخيرًا قد يحق لنا أن نعتقد أن التبجيل الذى يكنه المسلمون لجامع عمرو، والمسيحيون لكنائس وأديرة قصر الشمع والحمراء كان لها أثرها فى بعث روح النهضة من جديد فى تلك المؤسسات.

الهوامش

(١) Casanova, "Citadelle", pp. 554-62.

(٢) Ibid., pp. 535-51.

(٣) المقريزي، المواعظ، ج ١، ص ٣٦٤ .

(٤) المصدر السابق، ج ٢، صص٢- ١٧ .

(٥) المصدر السابق، صص ٢-٣؛ Ehrenkreutz, pp. 76-79

(٦) المقريزي، المواعظ، ج ١، ص ٣٦٤ .

(٧) المصدر السابق، ص ٤٩٦. "الغز" هنا ربما تعني الجند الأتراك الذين كانوا في خدمة صلاح الدين.

(٨) المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق، ص ٣٨٤؛ Casanova, "Fatimides"

(١٠) 'Abd al-Latif al-Baghdadi, pp. 360 - 374

(١١) المصدر السابق، صص ٤١٠ – ٤١١، ٤٢٠ .

(١٢) المقريزي، المواعظ، ج. ١، ص ٣٦٦ .

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) المصدر السابق، ص ٣٦٧ .

(١٥) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٢١ .

(١٦) المصدر السابق، ج ١، صص ٣٦٤ – ٣٦٥؛ ج ٢، ص ٢١، ٩٣، ١١١، ١٩٧ .

(١٧) المصدر السابق، ج ١، صص ١٠٤- ١٠٥ .

(١٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٤ .

(١٩) المصدر السابق، ص ١٢٥؛ ابن سعيد المغربي، ص ٢٥ .

(٢٠) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٩ .

(٢١) المصدر السابق، صص ١٣٠-١٣١، ١٨٥ .

(٢٢) المصدر السابق، صص١٣٠-١٣١، ١٨٥ .

(٢٣) المصدر السابق، صص ١١٧-١١٨ .

(٢٤) المصدر السابق، ج ١، صص. ٣٤٥ -٣٤٦ .

(٢٥) المصدر السابق، ج ٢، صص. ١١٧- ١١٨ .

(٢٦) المصدر السابق، ص ١١٧ .

(٢٧) المصدر السابق، صص ١١٨، ١٤٧، ١٩٨ .

(٢٨) المصدر السابق، صص ١١٧-١١٨، ١٦٢ .

(٢٩) المصدر السابق، ص ١٩٨ .

(٣٠) المصدر السابق، ص ١١٨ .

(٣١) المصدر السابق، ص ١٢٠، ١٩٨ .

(٣٢) المصدر السابق، ص ١٢٠ .

(٣٣) المصدر السابق، صص ١٢٠-١٢١ .

(٣٤) المصدر السابق، ص ١١٩ .

(٣٥) المصدر السابق.

(٣٦) المصدر السابق، ص ١٢٠ .

(٣٧) المصدر السابق، صص ١١٦، ١١٩-١٢٠ .

(٣٨) المقريزي، السلوك، زيادة، ج ١، ص ١٢٠؛ Blochet, vol. 9, pp. 75-76

(٣٩) Al-Maqrizi, Suluk, Blochet, vol. 9, p. 76.

(٤٠) Ibid., p. 93

(٤١) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٤٣ .

(٤٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٨ .

(٤٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩، ١١٠ .

(٤٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٤؛ Casanova, "Citadelle", pp. 594-95؛ القلقشندي، ج ٣، صص ٣٧٣-٣٧٤ .

(٤٥) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٣٦

(٤٦) المصدر السابق .

(٤٧) المصدر السابق، ص ١١٠ .

(٤٨) Salmon, pp. 65-69, plate 2؛ المقريزي، المواعظ، ج ١، صص. ٣٦٤-٣٦٥؛ ج ٢، ص١٣٤، ١٦١؛ تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ٢، ص ١٠٦ .

(٤٩) 'Abd al-Latif al-Baghdadi, pp. 373 -374, 410-11

(٥٠) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص١٣٣ .

(٥١) المصدر السابق، ج. ١، ص ٣٦٧؛ ابن سعيد المغربي، ص ٢٢ .

(٥٢) al-idrisi, vol. 1, pp. 301 - 304

(٥٣) Benjamin of Tudela, vol. 1., pp. 147 – 53, cf. Alder edition, p. 9

(٥٤) Casanova, "Foustat", plate 3

(٥٥) Abu Salih al-Aramani, pp. 90-91

(٥٦) Ibid., pp. 94-95

(٥٧) Ibid., pp. 102-106

(٥٨) Ibid., pp. 111 - 112

(٥٩) Ibid., pp. 122 - 24

(٦٠) Ibid., pp. 127 - 35

(٦١) المقريزي، المواعظ، ج ٢، صص ١٥٩، ١٨٥ .

(٦٢) المصدر السابق، ص ١٥٣؛ ابن دقماق، ج ٤، ص ٥٦ .

(٦٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، صص ٤٦–٤٧ .

(٦٤) ابن دقماق، ج ٤، صص ١٠٩ – ١١٠؛ المقريزي، المواعظ، ج ٢، صص ١٨١ – ١٨٢ .

(٦٥) Al-Maqrizi, Suluk, Blochet, vol. 9, p. 121

(٦٦) المقريزي، المواعظ، ج ١، صص ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٦٧ .

(٦٧) المصدر السابق، ص ٣٤٢؛ ابن دقماق، ج ٤، ص ١٠٨ .

(٦٨) المقريزي، المواعظ، ج ١، ص ٣٤١ – ٣٤٢ .

الفصل الرابع

التحصينات الدفاعية

يمكننا أن نقسم التحصينات الأيوبية للقاهرة إلى خمس مراحل: ترميم صلاح الدين لسور بدر الجمالى سنة ٥٦٦ هـ /١١٧٠/١١٧١ م، وبناء السور الذى يحيط بالقاهرة والفسطاط بالتزامن مع بناء القلعة وقناطر الجيزة، والتي بدأها كلها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ /١١٧٦-١١٧٧م ، وحفر الخنادق على الحدود الشمالية والشرقية للقاهرة سنة ٥٨٨ هـ /١١٩٢-١١٩٣ م، والمحاولات المتتالية لاستكمال السور الغربى للقاهرة والفسطاط منذ ٥٩٦ هـ /١١٩٩-١٢٠٠ م، وبناء قلعة الملك الصالح فى الروضة حوالى ٦٣٨-٦٤١ هـ /١٢٤٠-١٢٤٤ م. وعلى الرغم من أننا سوف نناقش المقار الملكية والمبانى العامة فى الفصل القادم، فإننا سوف نتناول هنا قلعة صلاح الدين وقلعة الروضة، حتى نتحاشى التكرار. وسوف نشير إلى قلعة صلاح الدين بعد ذلك بـ "القلعة"، ولقلعة الملك الصالح بـ"قلعة الملك الصالح"، وذلك للتيسير. وقد استعرض كازانوفا، وكذلك كريزويل القلعة من الناحية المعمارية، ونحيل القارئ إليهما لمزيد من الدراسة[1]. أما الأرصفة البحرية فسوف نناقشها فى هذا الفصل.

ترميمات صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ /١١٧٠-١١٧١ م

دفعت الهجمات الصليبية المتكررة، والخطر الدائم للثورات الداخلية، إلى سرعة ترميم السور المتهالك لبدر الجمالى، وكان ذلك سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠-

١١٧١ م. وقد قصر صلاح الدين، الذى كان آنذاك وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد، أعماله الترميمية على خطوط سور بدر الجمالى، بيد أن كازانوفا يرى أن سور بدر الجمالى المشيد من الطوب المحروق (باستثناء البوابات التى كانت من الحجر وبعض الأماكن المتاخمة الصغرى) تم استبداله بالحجر. وقد أشرف على البناء بهاء الدين قراقوش، أستادار صلاح الدين. [٢] وقد تم ضم ثلاثة أبواب من أسوار بدر الجمالى، هى باب النصر وباب الفتوح فى السور الشمالى وباب زويلة فى السور الجنوبى بالإضافة إلى بعض ما اتصل بها من أجزاء السور. وكانت هناك بوابات أخرى، ربما فى نفس موضع بوابات بدر الجمالى وهى : فى السور الغربى، مطلة على الخليج من الشمال إلى الجنوب، باب القنطرة، وباب الخوخة، وباب السعادة؛ وفى السور الجنوبى، باب الفرج، إلى الغرب من باب زويلة؛ وفى السور الشرقى من الشمال إلى الجنوب، الباب الجديد وباب البرقية. [٣]

خطة صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ /١١٧٦-١١٧٧ م

سور القاهرة - الفسطاط

يقول المقريزى فى وصفه للسور الثالث للقاهرة:

> ابتدأ فى عمارته السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ست وستين وخمسمائة [١١٧٠-١١٧١ م] وهو يومئذ على وزارة العاضد لدين الله فلما كانت سنة تسع وستين [١١٧٣-١١٧٤ م] وقد استولى على المملكة انتدب لعمل السور الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورًا واحدًا فزاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب

الشعرية إلى باب البحر وبنى قلعة المقس، وهى برج كبير وجعلـه على النيل بجانب جامع المقس، وانقطع السور من هناك وكان فـى أمله مد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر وزاد فى سور القاهرة قطعا مما يلى باب النصر ممتدة إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة لموته وإلى الآن آثار الجدر ظاهرة لمن تأملها فيما بين آخر السور إلى جهة القلعة. وكذلك لـم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مـصر وجـاء دور هـذا السور المحيط بالقاهرة الآن تسعة وعشرين ألـف ذراع وثلثمائـة ذراع وذراعين ذراع العمل وهو الذراع الهاشمى من ذلك ما بـين قلعة المقس على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مـصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع ومن قلعة المقس إلـى حـائط قلعة الجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلثمائة واثنان وتسعون ذراعًا ومن جانب حائط قلعة الجبل من جهة مسجد سعد الدولة إلـى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتـا ذراع ومـن وراء القلعـة بحيال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعـشرة أذرع وذلـك طول قوسه فى أبراجه من النيل إلى النيل[٤].

وعلى الرغم من أن صلاح الدين كان قد "استولى على المملكة" بالفعل سـنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م (السنة التى توفى فيها نور الدين)، فإن هذا التاريخ لـيس هـو التاريخ الذى تم فيه امتداد الأسوار بشكل شبه قاطع. فأبو شامة يورد رواية شـبه متطابقة نقلاً عن عماد الدين الأصفهانى، ولكن فى حوليات سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ - ١١٧٧م، ويؤيد ذلك ابن واصل أيضًا. وقد أصاب كازانوفا، بلا شك، فـى تأكيـده على أن المقريزى قد خلط بين النصوص المتعلقة بذلك الحدث، خاصة فيما يتعلق

بعبارة المقريزى فى السلوك، والتى يقول فيها بأن صلاح الدين قد أمر سنة ٥٧٢ هـ /١١٧٦-١١٧٧ م ببناء القلعة وما يرتبط بها من أسوار تحيط بالقاهرة والفسطاط(٥).

وعلى الرغم من أن وصف كازانوفا العام حول تحصينات الأيوبيين للقاهرة والفسطاط دقيق إلى حد كبير، فقد وقع فى بعض الأخطاء المتعلقة بمواضع البوابات والأبراج والنتوءات الطبيعية، غير أنه عاد وصححها فى عمل لاحق له حول طبوغرافية الفسطاط، ثم جاء كريزويل وصوبها بعد ذلك. وقد كان السور الذى يدور حول القاهرة والفسطاط، وكما خطط له صلاح الدين بالفعل، يأخذ شكلاً أشبه بالمثلث الذى تقع القلعة فى إحدى زواياه، ويضم فى ركنه الشمالى الشرقى مدينة القاهرة المسورة. وسوف نستعرض تلك التحصينات فى أقسام خمسة هى: السور الشمالى من باب الفتوح إلى المقس، والسورين الشمالى والشرقى والممتدين من أ) شرق باب النصر إلى برج الظافر و ب) جنوب برج الظافر إلى باب الوزير، إلى الشمال مباشرة من القلعة، والقلعة نفسها، والجدار الذى يجرى إلى الجنوب الغربى من القلعة، والذى يعتقد أنه كان ينتهى عند باب القنطرة (على النيل، جنوب شرق قصر الشمع)، وأخيرًا الجدار الغربى الموازى للنيل من باب القنطرة إلى المقس، والذى لم يكتب له التمام.

الجدار الشمالى: من باب الفتوح إلى المقس

على الرغم من الإبقاء على النواة المركزية للجدار الشمالى لبدر الجمالى – أى باب النصر، وباب الفتوح، وما بينهما – فقد تم مد السور إلى النيل عند ميناء المقس القديم. وقد ضمت تلك الزيادة الغربية بابين جديدين هما: باب الشعرية إلى الغرب من الخليج، وباب البحر، إلى الشرق مباشرة من برج المقس. وقد أقيم برج

المقس - والمعروف أيضًا بقلعة قراقوش- فى موضع جامع المقس الذى كان الحاكم قد بناه، أو بالقرب منه. ويرى كازانوفا أن هذا الجامع قد هدمه قراقوش لإقامة برجه، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك، ويشغل موضعه الآن جامع أولاد عنان إلى الجنوب مباشرة من ميدان باب الحديد. بيد أن هذا الرأى تعترضه روايات المقريزى، وسوف نتناول ذلك فى الفصل السابع. على أية حال، فقد كان البرج يطل على النيل بالقرب من موضع جامع أولاد عنان حاليًا، ثم دمره شمس الدين عبد الله المقرى، وزير الملك الأشرف شعبان سنة ٧٧٠ هـ /١٣٦٨-١٣٦٩م. وليس لدينا وصف معمارى لهذا البرج، غير أن كازانوفا يقترح أنه ربما كان مشابهًا للبرج الواقع فى الركن الشمالى الشرقى، برج الظافر[٩].

القسم الشمالى الشرقى: من باب الفتوح إلى باب الوزير

كانت التحصينات التى أقامها قراقوش فى شمال شرقى القاهرة ذات شقين: ترميم (أو إعادة بناء) سور بدر الجمالى سنة ٥٦٦ هـ /١١٧٠-١١٧١م، وزيادة السور الشمالى إلى الشرق من برج الظافر؛ حيث ينحرف السور بزاوية قائمة إلى الجنوب، ليتصل بالسور الداخلى عند باب البرقية. وقد اشتملت هذه الزيادة على باب إضافى (الباب الجديد) فى السور الشرقى، إلى الجنوب قليلاً من برج الظافر. وتؤيد إنشاء هذه الزيادة تلك النصوص التى درسها كازانوفا بالتفصيل، خاصة فى ضوء حقيقتين أثريتين: أ) ظهور سورين شرقيين متمايزين فى خريطة الحملة الفرنسية المؤرخة ١٧٩٨، أحدها يجرى جنوب برج الظافر، والآخر سور داخلى يجرى إلى الجنوب من السور الشمالى على مسافة حوالى ٣٥٠ مترًا إلى الشرق من باب النصر، و ب) ادعاء كازانوفا بأنه شاهد نقطة اتصال السور الداخلى (الذى أقيم سنة ٥٦٦ هـ /١١٧٠-١١٧١ م) مع السور الشمالى، حوالى سنة ١٨٩٤. ويسير السور الشرقى من باب البرقية جنوبًا إلى باب المحروق ومنه إلى

باب الوزير؛ حيث ينتهي على مسافة حوالى ٣٠٠ متر إلى الشمال من القلعة. وتوقف البناء عند تلك النقطة، كما أشرنا سابقًا، نظرًا لموت صلاح الدين(٧).

القسم الجنوبى الشرقي: من القلعة إلى باب القنطرة

هناك العديد من بقايا سور صلاح الدين بين القلعة وباب القنطرة، وتبدأ من السجن (سجن المنشية) في الطرف الجنوبى لقرة ميدان، وتمتد جنوبًا بغرب إلى نقطة تقع على مسافة حوالى ٤٠٠ متر جنوب شرقى قصر الشمع(٨). وعلى الرغم من أننا غير متأكدين من موضع نقطة التقاء السور الجنوبى الشرقي مع سور القلعة، فإن السور كان يجرى إلى الجنوب الشرقى من قرة ميدان على خط واحد، متداخل مع مجرى عيون الناصر محمد بن قلاوون. وينحرف مجرى العيون هذا، عند نقطة إلى الجنوب من مشهد السيدة نفيسة إلى الشمال الغربى ليصل إلى برجه الداخلي (الذى أقامه فيما بعد الغورى) عند فم الخليج، بينما استمر السور في الجنوب الشرقى تحت تلال القمامة بالفسطاط، إلى جزء عريض منه كشفت عنه حفائر على بهجت، ويمكن رؤية بعض آثاره على فترات. وعلى الرغم من إمكانية رؤية آثار أخرى له ، فإننا نحتاج إلى حفائر أخرى للكشف عن نهايته عند باب القنطرة أو بالقرب منه، جنوب غربى قصر الشمع على شاطئ النيل(٩).

وطبقًا لتحليلات كريزويل، فقد بقيت ثلاثة أبواب من سور الفسطاط، وهى: باب القرافة إلى الجنوب الغربى من قرة ميدان، وباب الصفاء في موضع أبعد إلى الجنوب الغربى بالقرب من نقطة الالتقاء مع مجرى العيون، وبقايا بوابة – مهدمة إلى حد كبير أو ربما لم يتم الانتهاء من بنائها – كشف عنها بهجت في حفائره إلى الجنوب الشرقى من قصر الشمع. أما باب القرافة، والذى كشف عنه أحد تلاميذ كريزويل الأوائل، فهو أيوبى بلا شك، غير أن تاريخ إنشاء باب الصفاء موضع

مناقشة. ويعتقد كازانوفا أن هذا الباب، الذى يحمل نقشًا لقايتباى، هو باب الصفاء، والذى كان المدخل الرئيسى للفسطاط من الشمال الشرقى فى العصر الفاطمى. على أن اعتقاد كازانوفا هذا مبنى على تحديد خاطئ لموقع كوم الجارح، والذى يحتله حاليًا مسجد أبى السعود. وعلى الرغم من أن كازانوفا قد صحح هذا الخطأ فى دراسته اللاحقة عن الفسطاط، فإن كريزويل يقترح أن باب الصفاء الأصلى يقع تحت باب قايتباى اللاحق، وهو رأى يصعب إثباته فى ضوء المعلومات النصية التى جمعها كازانوفا[١٠]. أما الباب الثالث، والذى يقع إلى الجنوب الشرقى من قصر الشمع، فعلى الرغم من توافقه معماريًا مع البوابات الأخرى التى ترجع للعصر الأيوبى، فإنه يبقى بلا اسم، نظرًا لعدم عثورنا على أى شواهد من نصوص أو نقوش متعلقة به.

باب القنطرة

سُمى باب القنطرة – وهو بوابة السور الجنوبى الشرقى – بهذا الاسم نسبة إلى قنطرة بنى وائل المتاخمة له، والتى كانت تجرى من فم قناة الحُمل الاسم نفسه. وكانت تلك القناة، عند ارتفاع النيل، تروى بركة شطا وبركة الشعيبية، وكانت تمتد من النيل عند مكان ما فى الجنوب الشرقى من قصر الشمع. وكان باب القنطرة، طبقًا للمقريزى، من ضمن ما شيده قراقوش[١١]. ويجب ألا نخلط بين هذا الباب والباب الآخر الذى يحمل الاسم نفسه فى السور الغربى للقاهرة.

باب مصر

ويقع بالقرب من شاطئ النيل (رقم ١٠٤، خريطة ٣)، إلى الشرق من البرج الداخلى عند فم الخليج (وبالقرب من تقاطع طريق قطار المعادى الحالى [مترو

الأنفاق] مع مجرى عيون الغورى). وطبقًا للمقريزى، فقد شيد قراقوش هذا البـاب كأحد المداخل فى السور الغربى للقاهرة والفسطاط. وبقى الباب واقفًا وحيدًا حيـث إن السور لم يقدر له التمام. ويصفه ابن دقماق بأنه ممر مقبى ذو أبواب عند كـل من طرفيه. وكان هذا الباب، طبقًا لعدة فقرات عند المقريـزى درسـها كازانوفـا بالتفصيل، يعلو طريقًا يسير من الشمال إلى الجنوب، وليس من الشرق إلى الغرب كما قد يوحى موضعه فى الجدار الغربى. ويعتقد كازانوفا أن باب مصر كان هـو المدخل للفسطاط من الطريق الغربى القادم من القاهرة، بينما كان باب الصفاء هـو المستخدم من الجهة الشرقية. وقد دفع موقعه - البعيد نسبيًا عن النيل - كازانوفـا إلى الظن بأنه داخل خط امتداد السور الغربى. وأخيرًا، فقد أقام كازانوفـا نظريـة بناها على مقولة ابن المتوج التى أوردها المقريزى، ومؤداها أن باب مصر كـان فى الحقيقة هو البوابة الشمالية لسور منفصل أحاط بالفسطاط[١٢].

ووصف ابن المتوج لسور يمتد من الشرق للغرب، ويصل بين باب مصر ودار النحاس على شاطئ الفسطاط حـوالى ٧٢٠ هـ /١٣٢٠-١٣٢١ م، دفـع كازانوفا للاعتقاد بأن باب مصر الذى أقامه قراقوش كان هو المدخل الـشمالى - الجنوبى للفسطاط فى سور متعامد علـى الـسور الغربـى المفتـرض للقـاهرة والفسطاط ومصمم ليرتكز عليه. بيد أن نظرية كازانوفا غير متماسكة. فهى، أولاً، مبنية على بقايا سور رؤى مرة واحدة، وهو ما ترتفع معه احتمالات سوء حكم ابن المتوج عليه. وثانيًا، موقع باب مصر لم يكن على هذا البعد من النيل الذى يجعلـه غير متصل بالسور المزعوم الذى يمتد من باب القنطرة إلى المقس كمـا يقتـرح كازانوفا. وثالثًا، المحور الشمالى الجنوبى لباب مصر ربمـا يكـون، كمـا يقـر كازانوفا، نوعًا من المدخل المزدوج فى سور الفسطاط، بممرين منفصلين يقـودان إلى الشمال والجنوب. وأخيرًا، لم يذكر المقريزى ولا أى مؤرخ أو رحالة معاصر آخر شيئًا عن سور منفصل للفسطاط، بل ونفى العديد مـنهم وجـود مثـل هـذا

السور[١٣]. وعلى الإجمال، يجب أن نعتبر باب مصر بابًا منفصلاً بناء قراقوش كمدخل للسور الغربى، ولم يتم الانتهاء منه أبدًا.

تطويرات لاحقة

فى حين لم يتم الانتهاء من بناء السور الغربى والقسم الواقع بين باب الوزير والقلعة، استمر العمل فى سور القاهرة والفسطاط حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ /١١٩٣ م، ثم على فترات متقطعة بعد ذلك. يقول المقريزى: " كان يحيط بسور القاهرة خندق شرع فى حفره من باب الفتوح إلى المقس فى المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة [١٨ يناير – ١٦ فبراير ١١٩٢م]، وكان أيضًا من الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده"[١٤]، وهو ما يفترض معه، كما يشير كريزويل، أن تلك الأقسام من السور من المقس إلى باب المحروق كانت قد تمت بالفعل فى هذا التاريخ[١٥]. ويشير المقريزى فى "السلوك" فى أحداث سنة ٥٩٦ هـ /١١٩٩-١٢٠٠ م إلى أن الأفضل قد أمر، بوصفه نائب الملك المنصور فى مصر، باتخاذ إجراءات دفاعية تحسبًا لهجوم وشيك للعادل من سوريا؛ فأمر الأفضلُ قراقوشَ

> بحفظ قلعة الجبل، وأن يهتم بحفر ما بقى من سور مصر والقاهرة، وأنه يعمق الحفر حتى يصل إلى الصخر، ويجعل التراب داخل المدينة على حافة الحفر، ليكون مثل الباشورة، ويستعمل الأبقار فيه، ويعمل ذلك فيما بين البحر وقلعة المقس حتى لا يبقى إلى البلد طريق إلا من أبوابها[١٦].

وعلى الرغم من أن تلك التحصينات ربما تكون قد اشتملت على أقسام لم تتم من السور المحيط بالقاهرة والفسطاط، فإنها اشتملت، بالتأكيد، على أعمال كثيفة فى الجناح الغربى للمدينة [الفسطاط والقاهرة معًا] والموازى للنيل. وعلى الرغم

من أن السور الغربي للقاهرة (الذى بناه بدر الجمالى ثم أعاد صلاح الدين بناءه سنة ٥٦٦ هـ /١١٧٠-١١٧١ م) كان يوفر بعض الحماية للقاهرة بعد بنائه بنحو ثلاثين عامًا، فإنه لم يرد له أى ذكر بعد ذلك فى الحوليات المعاصرة.

وتشير العديد من الفقرات فى "تاريخ بطاركة الإسكندرية" إلى محاولات جرت بعد ذلك لاستكمال السور الغربى للقاهرة والفسطاط. فقد أمر الملك العادل سنة ٦١٤ هـ /١٢١٧-١٢١٨ م ببناء سور فى مصر على شاطئ النيل يبدأ من دار الملك (بالقرب من باب القنطرة، النقطة الجنوبية الشرقية للفسطاط) ويمتد بطول الخليج إلى القاهرة، فى إطار الاستعدادات لمواجهة الحملة الصليبية الخامسة الوشيكة. وقد تم حفر الأساسات وبدئ فى البناء تحت إشراف ابنه الكامل محمد، وفرض على سكان القاهرة والفسطاط تقطيع الأحجار فى المساء، بيد أن سكان الفسطاط أعفوا من تلك المهمة قبل سكّان القاهرة. وفى وقت لاحق، خلال تلك الحملة الصليبية نفسها (٦١٥-٦١٨ هـ /١٢١٨-١٢٢١ م)، أمر الملك الكامل وأخوه الملك المعظم ببناء سور من مصر إلى القاهرة ليصل بين المدينتين. وعلى الرغم من أن ذلك كان، فى جانب منه، تكرارًا للاستعدادات السابقة، فإننا نجد هنا تغيرًا فى العمالة المستخدمة، وكذلك فى أسلوب العمل. فقد خطط الكامل والمعظم فى البداية (وتم البناء جزئيًا بلا شك) لبناء سور أساساته من الحجر "وباقيه من التراب"، واستخدم فيه عمال مغاربة. بيد أن الكامل والمعظم عدلا عن قرارهما فيما بعد وأزالا ما بناه المغاربة وأعادا بناء السور باللبن، "ثم ورد الأمر باستخراج أجر الأملاك من الناس كافة بالقاهرة ومصر وشرع فى استخراجها"(*). وقد أمر الملك

(*) تجدر الإشارة هنا إلى ما نعتقده خطأ فى ترجمة هذا النص فى النسخة الإنجليزية من تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية. فقد ترجمت كلمة "أجر" بـ "bricks" حيث قرأها ناشر النص بالإنجليزية "آجُر"، أى الطوب الذى يبنى به. ومبعث الخطأ هنا أن حرف الألف فى أول الكلمة جاء بدون همزة ولا مد. على أن القراءة الصحيحة فى رأينا هى "أجَر" (جمع أجرة)، وذلك لسببين: أولهما أن استخراج الأجر من المبانى القائمة فى القاهرة لاستخدامها فى السور ليس بالمنطقى لأنه سيؤدى إلى تهديم المبانى، خاصة أن المقصود هنا بالنص "من أملاك الناس كافة بالقاهرة ومصر"، أى دورهم وحوانيتهم، وليس المقصود استخدام أحجار من المبانى المتهدمة أصلا، كما كان يحدث طوال العصر الإسلامى. والسبب الثانى =

الكامل سنة ٦٣٤ هـ /١٢٣٦-١٢٣٧ م بحفر أساسات سور القاهرة والفسطاط على امتداد شاطئ النيل، واستغرق العمل شهرًا، أجبر الناس فيه على العمل بغض النظر عن ديانتهم أو طبقتهم الاجتماعية.(*) وخلال حكم العادل الثانى جرت أعمال مشابهة[١٧].

ويمكننا أن نتصور السور الغربى الذى بدأه المالك العادل "والممتد بطول الخليج حتى القاهرة" بشكل محدد على أنه يترك خط شاطئ النيل ويتبع الخليج نفسه ليتصل بالسور الغربى للقاهرة الذى كان قد شيد قبل ذلك. ومن المحتمل جدًا أن يكون السور قد أقيم موازيًا للخليج ولكن أقرب إلى النيل، خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار الأبراج والبوابات التى كانت قائمة بالفعل فى باب القنطرة وباب مصر والمقس. والنقطة التى تبرز هنا هى أنه على الرغم من وجود عدة محاولات لبناء

= أن صاحب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ذكر قبل هذا الموضع بعدة أسطر ما نصه: "اجمع المسلمون وقرروا تصقيع الأملاك بمصر والقاهرة وأخذ اجرتها شهرين ومساعدة السلطان بها"، وتابع بعد ذلك ذكر مختلف الأساليب التى فكروا فيها أو جربوها لجمع المال. وبالتالى ففكرة جمع الأموال، ومنها "اجرة الأملاك" هى الأقرب للصواب. هذا بالإضافة إلى اقتران كلمتى "استخراج" و"اجرة" باضطراد فى النص، ولو كان المقصود استخراج الطوب من المبانى لعُبر عنه بصيغة أخرى توحى بأى شكل بهدم المبانى القائمة. (المترجم)

(*) استخدم المؤلف هنا عبارة "forced labor" اى العمل القسرى أو بالسخرة، هو تعبير لا يوحى به النص الذى ورد فى تاريخ البطاركة الذى استند إليه المؤلف هنا، لا فى نسخته الإنجليزية ولا العربية. فالنص العربى يقول: "وقد كان الناس كلهم قد حفروا، الأمراء والأشراف والولاة وساير الناس، واليهود أخرجوهم عند خروج النصارى، فاستحى الناس وحضروا من كل مكان وحفروا وبقوا كذلك قريبًا من شهر، ثم أنهوا العمل واستراحوا". والنص الإنجليزى لا يخرج عن هذا المعنى أيضًا، ولم يرد فى أى من النصين اى معنى للسخرة. ولكن يبدو أن انتماء مؤلف كتابنا هذا لثقافة مختلفة عن ثقافة المنطقة التى يتحدث عنها، إلى جانب عدم محاولته معايشة روح العصر الذى يكتب عنه كان السبب فى ذلك. فنحن هنا أمام خطر خارجى يوشك أن يهدد البلاد واستعداد أهلها شعبًا وحكامًا للدفاع عنها، ولسنا أمام مشروع بناء قصر مثلا لرفاهية السلطان. وبالتالى فلا معنى للقول بالعمل القسرى، ودليل ذلك تعبير "فاستحى الناس" اى عندما رأوا علية القوم يعملون فى بناء السور استحوا من تقاعصهم فانضموا إليهم لينتهى العمل منه فى شهر واحد. وربما دفع المؤلف إلى اعتبار مشاركتهم جميعًا فى هذا العمل دون ذكر لأجورهم مثلا، وكذلك عدم استخدام العمال البنائين فقط فى بنائه، دفعه ذلك إلى الاعتقاد أنه تم بالسخرة، ربما لأنه لم يأخذ الظرف الذى كانت البلاد تمر به آنذاك بعين الاعتبار فأخطأ فى تفسير سبب مشاركة هذا الخليط من الناس فى البناء، أو لأنه متشبع بفكرة أن المسيحيين واليهود لم يكونوا جزءًا من نسيج المجتمع كما يراه أفراده آنذاك، وأنهم أقلية، وما إلى ذلك من أفكار استعمارية جديدة لا علاقة لها لا بالتاريخ ولا بالواقع، فلم يستطع أن يفهم مشاركتهم فى البناء إلا على أنها مشاركة قهرية، وليست طوعية كما كان الحال بالفعل، وكما ورد فى النص الذى استند هو نفسه إليه. (المترجم)

السور الغربى خلال أواخر العصر الأيوبى – فى أوقات الأزمات السياسية، سواء أكانت بسبب تهديد الحملات الصليبية أم بسبب الحروب الداخلية – فإن السور لم يتم بناؤه أبدًا، بل إن فكرة إتمامه طواها النسيان بمجرد انتهاء الأزمة.

قلعة الجبل

كان التل الذى تربض عليه القلعة، وهو من نتوءات سلسلة المقطم، تشغله فيما قبل "قبة الهوا"، وهى جوسق عباسى أصابه الدمار مع سقوط الدولة الطولونية (حوالى ٢٩٢ هـ/٩٠٤-٩٠٥ م). وفى أواخر العصر الفاطمى كان بالموضع نفسه نحو من اثنى عشر مسجدًا وضريحًا لعددٍ من وجهاء السياسة والدين، ومنها مسجد سعد الدولة الذى يعتقد كازانوفا أنه كان والى القاهرة فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر. وعلى الرغم من تناقض الأدلة حول مواقع تلك المبانى فمن المعتقد، بشكل شبه مؤكد، أنها كانت تقع جميعًا داخل أسوار القلعة الحالية، وأنها كانت تأخذ محورًا يجرى من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى[١٨]. وتمت إزالة كل تلك المبانى لتخلى مكانها لقلعة صلاح الدين.

تأسيس وبناء القلعة

رواية المقريزى:

> كان سبب بنائها أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما أزال الدولة الفاطمية من مصر واستبد بالأمر لم يتحول من دار الوزارة بالقاهرة ولم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ومن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى

سلطان الشام رحمة الله عليه فامتنع أولاً من نور الدين بأن سير أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب فى سنة تسع وستين وخمسمائة [١١٧٣-١١٧٤ م] إلى بلاد اليمن لتصير له مملكة تعصمه من نور الدين فاستولى شمس الدولة على ممالك اليمن وكفى الله تعالى صلاح الدين أمر نور الدين ومات فى تلك السنة فخلا له الجو وأمن جانبه وأحب أن يجعل لنفسه معقلاً بمصر فإنه كان قد قسم القصرين بين أمرائه وأنزلهم فيهما فيقال إن السبب الذى دعاه إلى اختيار مكان قلعة الجبل أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة، فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين، فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى فشرع فى بنائها وبنى سور القاهرة الذى زاده فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة [١١٧٦-١١٧٧] وهدم ما هنالك من المساجد وأزال القبور وهدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ونقل ما وجد بها من الحجارة وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة وقصد أن يجعل السور يحيط بالقاهرة والقلعة ومصر فمات السلطان قبل أن يتم الغرض من السور والقلعة فأهمل العمل إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل واستنابه فى مملكة مصر وجعله ولى عهد فأتم بناء القلعة وأنشأ بها الدار السلطانية وذلك فى سنة أربع وستمائة [١٢٠٧- ١٢٠٨ م] وما برح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر إلى يومنا هذا وقد كان السلطان صلاح الدين

يوسف بن أيوب يقيم بها أيامًا وسكنها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين فى أيام أبيه مدة ثم انتقل منها إلى دار الوزارة(١٩).

اختيار الموقع

كان التل الذى تربض عليه القلعة نقطة محورية طبيعية فى سور القاهرة والفسطاط؛ فهو على بعد شبه متساو من السور الشمالى للقاهرة ومن باب القنطرة فى الفسطاط. وقد وفر هذا الارتفاع نقطة متميزة يمكن منها دفع أى هجوم من الشمال الشرقى، كما أنه يوفر أيضًا منطقة آمنة ضد أى انتفاضة قد تندلع فى المدينة نفسها. وعلى الرغم من ارتفاع هذا الموقع، فإن الكتلة الرئيسية للمقطم من الشرق والجنوب الشرقى لم تكن تمثل أى تهديد يذكر؛ حيث إن المنجنيق التى كانت على أيام صلاح الدين لم تكن لتستطيع أن يصل مداها لعبور المسافة بين المقطم وموقع القلعة(٢٠).

أعمال البناء فى عهد صلاح الدين

كانت القلعة مقسمة، كما يشير كازانوفا، إلى قسمين متمايزين، القسم الشرقى والقسم الغربى. كان القسم الشرقى مجمعًا عسكريًا/دفاعيًا ضخمًا، بينما كان القسم الغربى، والأقل تحصينًا إلى درجة كبيرة، مُجَمَّعًا للإقامة وللأعمال الإدارية بالسلطنة. وكان القسم الشرقى هو ملاذ السلطان وحاشيته فى وقت الأزمات. وقد تركزت أعمال صلاح الدين، إن لم تكن اقتصرت، على القسم الشرقى. وربما يكون الاستثناء الوحيد هو بئر يوسف داخل أسوار القسم الغربى، والذى ربما حفره أو وسعه قراقوش. وقد أُرخ النص التأسيسى للقلعة، والذى يعلو الباب المدرج بتاريخ ٥٧٩ هـ /١١٨٣-١١٨٤ م. وربما يكون هذا التاريخ، كما يقترح

كازانوفا، هو تاريخ الانتهاء من العمل خلال عهد صلاح الدين، خاصة إذا علمنا أنه قد استقر بمصر نهائيًا فى السنة السابقة لهذا التاريخ. وطبقًا لأبحاث كازانوفا التاريخية ودراسة كريزويل المعمارية فقد تكونت أعمال صلاح الدين داخل القسم الشرقى مما يلى: السور ذو الأبراج نصف الدائرية، وبابان خلفيان، والبابان الرئيسيان اللذان عاصرهما المقريزى، والباب المدرج، وباب القرافة. بالإضافة إلى ذلك فقد تم حفر خندقين عظيمين، لا يزال جانب كبير منهما قائمًا أمام الأسوار الشمالية والشرقية لحرم القلعة. وكان الباب المدرج فى الجانب الشمالى الغربى هو المدخل الرئيسى من المدينة، بينما كان باب القرافة، والذى يعتقد أن جزأه الداخلى قد أقيم فى عهد صلاح الدين، يواجه مناطق الجبانة فى الجنوب والجنوب الغربى، وكان أقل استخدامًا إلى حد كبير(٢١).

أما بئر يوسف، والذى يقع داخل السور الغربى إلى الجنوب مباشرة من مسجد الناصر محمد بن قلاون، فقد كان طبقًا لابن عبد الظاهر

> من عجائب الأبنية تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء وقيل إن أرضها مسامتة أرض بركة الفيل وماؤها عذب سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء ماؤها حلوا فأراد قراقوش أو نوابه الزيادة فى مائها فوسع نقر الجبل فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها وذكر القاضى ناصر الدين شافع بن على فى كتاب عجائب البنيان أنه ينزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلثمائة درجة(٢٢).

وعلى ذلك فبئر يوسف قد أنشأت من بئرين لا يعلو أيهما الآخر مباشرة ومنفصلان فى منطقة وسطى(٢٣). ويشير كازانوفا إلى عدة ملاحظات أخرى. أولاً،

أن البئر تقع داخل المنطقة الغربية خارج مقر صلاح الدين. وعلى الرغم من أنـــه قد يقترح أن البئر قد حفرت كجزء من مجمع إقامة لاحق، فإن هناك ثلاثة عوامـــل تعترض هذا الاقتراح: أولها أن قبة الهواء والمساجد والأضرحة الفاطميـــة التـــى كانت تحتل موقع القلعة فى السابق ربما كانت تحتاج للماء مـــن الآبـــار المحليـــة. وثانيها أن البئر قد تمت توسعته، طبقًا لابن عبد الظاهر. وأخيرًا فابن عبد الظـــاهر يشير فى نفس الفقرة إلى سماعه أن البئر كان ينزل إليه فى السابق بدرج، وهو ما قد يشير إلى أن المنحدر الحالى كان موجودًا على أيامه، وربما أيضًا كان جـــزءًا من تجديدات قراقوش[٢٤].

كما يشير كازانوفا أيضًا إلى أن اسم "يوسف" الذى أطلق على البئـــر ربمـــا يشير إلى اسم البطريرك يوسف وليس إلى صلاح الدين. وتقوم حجته فى ذلك على النقاط التالية: ليس من الطبيعى أن يسمى البئر على اسم "يوسف" وليس "الصالحى" أو "الناصرى"، وابن خلّكان يشير إلى أن صلاح الدين قد أقام العديد من المنـــشآت، ولكن أيًا منها لم يحمل اسمه، وقصة البطريرك يوسف ارتبطت بالعديد من الأماكن فى منطقة القلعة، وأخيرًا، ارتبط اسم يوسف بعدد من المبانى فـــى دلخـــل القلعـــة أقيمت بعد العصر الأيوبى، مثل ديوان يوسف الذى أقامـــه الناصـــر محمـــد بـــن قلاوون، وحجته ناهضة بشكل عام[٢٥].

غير أن اقتراح كازانوفا بأن بئر يوسف قد حفر بعد حملة صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧-١١٨٨ م فى أثناء الحملة الصليبية الثالثة اقتراح أقل قبولاً. فعبـــارة ابن عبد الظاهر (٦٢٠-٦٩٢ هـ /١٢٢٣-١٢٩٢ م) التى أوردها ابن تغرى بـــردى تؤكد أن صلاح الدين استخدم الآلاف من الأسرى الفرنجة فى بناء ســـور القـــاهرة وحفر البئر فى القلعة[٢٦]. وهناك عبارة أخرى لنفس الكاتب أوردهـــا المقريـــزى تشير إلى أن قراقوش استخدم خمسين ألفًا من أسرى الحرب فى بناء القلعة. ويعتقد كازانوفا أن مثل هذا العدد الضخم من الأسرى كان متوفرًا قبل الحملـــة الـــصليبية

الثالثة، غير أن ذلك المذهب تنفيه عبارة ابن جبير سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٣ م؛ حيث يقول:

وشاهدنا أيضًا بنيان القلعة، وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين (مصر والقاهرة). والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومئونته العظيمة، كنشر الرخام، ونحت الصخور العظام، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرًا في الصخر، عجبًا من العجائب الباقية الآثار: العلوج(*) الأسارى من الروم، وعددهم لا يحصى كثرة، ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم(٢٧).

وهكذا، فقد استخدم الأسرى الفرنجة بأعداد غفيرة في مشروعات صلاح الدين الإنشائية قبل الحملة الصليبية الثالثة بخمس سنوات على الأقل، وربما استخدموا في حفر و/أو توسيع بئر يوسف.

ويشير "تاريخ البطاركة" إلى أن من بين أعمال قراقوش الإنشائية بئرًا وصهريجًا في قلعة القاهرة.

[قراقوش] نقر فيها جب للماء بالأزميل الحديد من فوق الجبل إلى أسفله حتى وصل إلى الماء تقدير مايتي ذراع وعمل فيها صهريج يملأه من مصانع عملها خارج من القلعة(٢٨).

وعلى الرغم من مثل هذا التضارب في القرائن، فإن البئر ربما كان موجودًا بالفعل منذ العصر الفاطمي، بما أنه لم يُضمن في القسم الشرقي من الأسوار، وتمت توسعته في وقت ما خلال حكمه بهدف خدمة القسم الغربي من مجمع الإقامة.

(*) العلوج: جمع علج، وهو الرجل من العجم. (نقلا عن تحقيق حسين نصار لرحلة ابن جبير. المترجم)

يشير المقريزى فى وصفه للأهرامات إلى أنها:

كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر عدة كثيرة كلها صغار هدمت فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش وبنى بها قلعة الجبل والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التى بالجيزة(٢٩).

بينما يقول عبد اللطيف البغدادى، وقد كتب حوالى سنة ٥٩٧-٥٩٩ هـ / ١٢٠٠ -١٢٠٣ م:

"كان المرء يرى في الجيزة عددًا كبيرًا من الأهرامات، ولكنها كانت صغيرة حقًا، ثم أصابها الدمار في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش الذي كان خصيًا روميًا، وكان من أمراء جيش هذا الأمير، وكان على دهاء. وقد أشرف على أعمال البناء في المدينة، وكان هو الذي أقام السور الحجري الذي أحاط بالفسطاط والقاهرة والأرض التي بينهما، والقلعة التي بنيت على جبل المقطم. وكان هو الذي بنى القلعة أيضًا والبئرين اللذين يراهما المرء اليوم [بئر يوسف والصهريج المتصل به؟]...واستخدم قراقوش أيضًا أحجارًا من الأهرامات الصغيرة التي هدمها في بناء العقود التي يراها المرء الآن في الجيزة...ويستطيع المرء اليوم أن يرى بقايا الأهرامات التي دمرها قراقوش، أعني مواد بنائها وأجزائها الداخلية. ولأن هذا الرديم والأحجار الصغيرة لم تكن بذات فائدة في بناء العقود التي ذكرناها، فقد تركت في مكانها"(٣٠)(*)

(*) قام المترجم بترجمة هذا النص عن الإنجليزية، حيث إن المصدر نشر بالإنجليزية ولم ينشر أصل مخطوطته العربية على حد علمنا. وقد سرنا على ذلك فى اقتباسات المؤلف الأخرى عن هذا النص بطبيعة الحال، فى الكتاب كله. (المترجم)

لا يقبل البغدادى إذن بفكرة أن تكون الأحجار التى استخدمت فى المشروعات الثلاثة: القلعة، وسور القاهرة والفسطاط، وقناطر الجيزة كان مصدرها الوحيد تدمير الأهرامات الصغرى فى الجيزة. فاستنادًا إلى أحجام الأهرامات الصغرى التى لا زالت باقية فى الجيزة، سيتطلب مشروع بهذا الحجم عددًا كبيرًا جدًا من الأهرامات، إلى جانب أن عملية نقل أحجارها لمسافة عشرة أو خمسة عشر ميلاً، من الجيزة إلى المقطم، عملية شديدة الصعوبة وإن لم تكن مستحيلة. ونحن نفتقر، للأسف، إلى أى نصوص عربية سابقة على العصر الأيوبى تحمل إشارة إلى عدد الأهرامات الصغيرة التى كانت قائمة بالجيزة، والشواهد الأثرية الحالية لا توفر أى مؤشرات عن مواضع الأهرامات المدمرة التى أشار إليها عبد اللطيف. وكما شيدت قناطر الجيزة ربما من أحجار أهرامات مجاورة تم تدميرها، فمن المحتمل جدًا أيضًا أن تكون الأحجار التى استخدمت فى القلعة قد جلبت من منطقة مجاورة. وبينما يشير ابن جبير إلى نقل الأحجار من مبانٍ تم هدمها بالقرب من أبى صير، نجده يؤكد على حفر الأسرى الفرنجة للخندق الضخم المحيط بالجوانب الشمالية والشرقية للقلعة، وتقطيعهم للأحجار الضخمة بهذا الموضع[٣١]. وكما يشير كازانوفا، فهناك كتلة حجرية فى الجدار الشمالى وامتداده، شرقى برج الظافر، تحمل نقوشًا هيروغليفية[٣٢]، ولكن إعادة استخدام الأحجار كان أمرًا شائعًا فى العصور القديمة، وبالتالى فتلك الكتلة ليست بالضرورة من بقايا الأهرامات الصغيرة . (تجدر الإشارة إلى أن معظم الأهرامات التى بقيت لا تحمل نقوشًا)[*]. هذا بالإضافة إلى أن القلعة أقيمت، كما يشير كريزويل، على نتوء صغير فى المقطم " فصله صلاح الدين عن الكتلة الرئيسية بتعمده تقطيع

(*) لم يعثر فى أهرامات الأسرة الرابعة على نقوش، بيد أنه منذ الأسرة الخامسة بدأت النقوش تظهر فى حجرات الدفن بالأهرامات، واصطلح على تسمية هذه النقوش "متون الأهرام". كذلك يحمل معبد الوادى لهرم الملك خفرع بالجيزة بعض النقوش التى لا تزال باقية بالكاد حتى يومنا هذا. ومن الجدير بالذكر أيضًا أن معابد الشمس التى ظهرت فى الأسرة الخامسة كانت تحمل نقوشًا. هذا إلى جانب أن هناك آثارًا فرعونية كشفتها حفائر عبد العزيز صالح فى عين شمس، ربما استخدم بعضها أيضًا.(المترجم)

الأحجار في ذلك الموضـــع."[٣٣] وعلى الرغم من أنه لم يورد أى مصدر تاريخى لتلك المقولة، فإن حجم الخندق الذى تم حفره (قارن ابن جبير)، والذى ربما ضـــم على الأقل جزءًا من الفجوة التى تم استغلال أحجارها بين القلعة والمقطـــم، إلـــى جانب أن استخدام الأحجار المحلية يرجح عمليًا جلبها من الجيزة، كل ذلك يـــرجح كفة وجهة نظر كريزويل. وعلى ذلك، فيمكننا القـــول، اعتمـــادًا علـــى البغـــدادى والمقريزى، بأنه على الرغم من أن بعض الأحجار التى استخدمت فى بناء القلعـــة وسور القاهرة – الفسطاط قد جلبت بالفعل من أهرامات الجيزة، فالأكثر منطقية أن نعتقد بأن نصيب الأسد من مواد البناء كان يجرى تقطيعه من المنطقـــة المتاخمـــة بالمقطم.

سكنى القلعة

يستنتج كازانوفا، اعتمادًا على عدد من الروايات التى أوردها المقريزى فى الخطط والبكرى الصديق، ما يلى: على الرغم من أن صلاح الدين كـــان عازمًـــا على استكمال قسم السكنى فى القلعة، فإنه لم يكتمل (أو ربما لـــم يُبـــدأ فيـــه مـــن الأصل) عند وفاته، ويرجع ذلك أساسًا إلى غيابه عن مصر، وكان صلاح الـــدين وخلفاؤه (العزيز، والمنصور محمد، والعادل) يقيمون بدار الوزارة فى القاهرة حتى عصر الملك العادل، على الرغم من أنهم كانوا يمضون بعض الأيام بين الحين والآخر فى موقع البناء بالقلعة، وأول من أقام أماكن الإقامة بمجمع القصر هو الملك الكامل عندما كان نائب العادل فى مصر، و" الملك الكامل كان أول حاكم أيـــوبى ينـــشئ المقر الملكى بالقلعة سنة ٦٠٤ هـــ /١٢٠٧-١٢٠٨ م بعد إتمام خطة عمه صلاح الدين."[٣٤] كذلك يشير المقريزى فى "السلوك" إلى أن بقية أعضاء البيت الفـــاطمى نقلوا إلى القلعة فى هذا الوقت (من دار المظفر فى القاهرة)؛ حيث أسكنوا " فـــى

بيت علي صورة حبس".[٣٥] ومنذ ذلك الحين كان سلاطين الأيـوبيين والمماليـك، باستثناء فترة قصيرة فى عهد الملك الصالح، يقيمون بالقلعة.

التجديدات والإضافات فى عهد الملك الكامل

يشير عماد الدين الأصفهاني فيما رواه عنه أبو شامة إلى أن محيط القلعـة كان ٣٢١٠ ذراعًا هاشميًا أو، كما حسبها كريزويل ٢١٠٣,٧٣ مترًا. وقد اسـتنتج كريزويل، من دراسته المعمارية، أن السور الأصلي – أى السور الشرقي الحصين الذى أقامه صلاح الدين – كان طوله تقريبا ١٤٠٠ متر، أى أقل من تقـدير أبـى شامة بنحو ٦٥٠ مترًا (حسب حساباته). لذلك فهو يعتقد بتشييد ولو جزء من مجمع القصر الغربى فى عهد صلاح الدين، خاصة وأن الأصفهاني، كان كاتب صـلاح الدين الخاص، فكان له بذلك اطلاع على خطط البناء وألفة خاصـة بـالموقع[٣٦]. وبما أن القسم الغربى تشغله بشكل شبه كامل مبان متأخرة، فلا دليـل أثـرى إذن يدعم هذا الاتجاه، كما يقر كريزويل نفسه[٣٧].

ويقترح كازانوفا، من ناحية أخرى، أن القسم الغربى لا يـضم شـيئًا مـن أعمال صلاح الدين، ربما باستثناء وحيد وهو بئر يوسف. وهو يعتقـد أن القـسم الشرقى الذى بناه صلاح الدين يبلغ محيطه ١٨٠٠ متر، مقارنة باقتراح كريزويـل بأنه ١٤٠٠ متر، أى بما يقل بنحو ٣٠٠ متر فقط عن تقدير أبى شامة. ومن عجب أن كازانوفا، كما أثبت كريزويل، قد ضم فى قياساته الأبراج الأساسـية المربعـة والمستديرة فى الجانب الشرقى والتى بنيت كلها فى عهد الملك الكامل. علـى أيـة حال، فعلى الرغم من أن قياسات عماد الدين تؤكد أن إجمالى محيط السور كـان أكبـر من طول السور الشرقى، فإن أى اقتراحات تذهب إلى قيام صلاح الدين بإنـشاءات فى مجمع القصر، باستثناء بئر يوسف، لا يمكن إثباتها إلا بإجراء حفـائر مكثفـة،

وغير مجدية. وتشير الشواهد النصية – كما جمعها كازانوفا – إلى عدم وجود إلا القليل من المباني في القسم الغربي قبل عهد الكامل؛ لذلك فنحن نستنتج، لعدم وجود أدلة أخرى، أن معظم، إن لم يكن كل القسم الغربي كان من أعمال الملك الكامل وخلفائه[٣٨].

وكما يشير كريزويل فقد كان سور صلاح الدين "على أقوى وأكمل ما يسمح به الوقت الذي توفر له." [٣٩] وقد كان الطراز المعماري للأبراج العظمى المربعة والمستديرة التي أنشأها الكامل، وناقشها كريزويل تفصيلاً، هو نفس طراز القلاع الأيوبية في دمشق والبصرة، واختيرت مواضعها بحيث تكسر تماثل المسافات بين الأبراج نصف الدائرية التي أقامها صلاح الدين. وقد كانت أعمال الكامل في القسم الشرقي أعمال تقوية، وليس توسعة للأسوار التي كان قد انتهى العمل بها بالفعل قبل ذلك بأربعين سنة على يد قراقوش.

كان برج المطر، والمكون من برجين بالسور الجنوبي للقسم الشرقي، يستخدم، هو وبرج الفيوم خارج حي البرقية بالقاهرة، لإيواء الحمام الزاجل الذي كان يستخدم لنقل الرسائل عبر السلطنة. وفي ذلك يقول المقريزي:

> كانت بالقلعة أبراج برسم الحمام التي تحمل البطائق وبلغت عدتها على ما ذكره ابن عبد الظاهر... إلى آخر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وستمائة ألف طائر وتسعمائة طائر، وكان بها عدة من المقدمين لكل مقدم منهم جزء معلوم، وكانت الطيور المذكورة لا تبرح في الأبراج بالقلعة ما عدا طائفة منها فإنها في برج بالبرقية خارج القاهرة يعرف ببرج الفيوم رتبه الأمير فخر الدين عثمان بن قزل أستادار الملك الكامل ... وقيل له برج الفيوم فإن جميع الفيوم كانت في إقطاع ابن قزل[٤٠].

ويعتقد كازانوفا، وله منطق في ذلك، أن حظائر الحمام بالقلعة أقامها الملك الكامل أيضا، على الرغم من أن برج المطر كان قد أقيم في عهد صلاح الدين، كما أثبت كريزويل بعد ذلك(٤١).

ويرى كازانوفا أن أعمال الكامل في القسم الغربي أو بالقرب منه تكونت مما يلي: إيوان، وبوابتان هما باب السر وباب القلة، والإسطبلات الملكية، وخزانة الكتب، وقاعة الصاحب (مقر الوزير)، ومسجد.

الإيوان

استند كازانوفا إلى ما أورده أميلينو وكواترمير من شهادة لكاتب قبطي غير معروف، فذهب إلى القول بوجود إيوان (قاعة عرش، وقاعة محاكمة) بالقلعة خلال عهد الملك الكامل(٤٢).

باب السر وباب القلة

باب السر، بوابة سرية يدخل منها إلى القسم الغربي من الشمال، وتقود مباشرة إلى الإيوان الكبير. وباب السر هذا كان يظل مغلقًا، طبقًا لما أورده القلقشندي، ولا يُفتح إلا لمن يسمح لهم بالمرور منه، وهم رجال البلاط فيما يُعتقد. ويعتقد كازانوفا أن هذا الباب كان جزءًا لا يتجزأ من منشآت الملك الكامل يدخل منه للإيوان والقصور والمباني الإدارية بها(٤٣). أما باب القلة فكان يتوسط السور المشترك بين القسمين الشرقي والغربي، وكان هو الممر الرئيسي بينهما. وكان هذا الباب قائمًا في عهد بيبرس، ويعتقد كازانوفا أنه من نتاج منشآت وتجديدات الكامل(٤٤).

الإسطبلات الملكية

كما ذكرنا آنفًا، فقد أدى انتقال الملك الكامل إلى القلعة إلى نقل سوق الخيول والحمير والجمال إلى الرميلة، وربما إلى إنشاء الإسطبلات الملكية بالقلعة، وتأسيس ميدان فى موقع قرة ميدان حاليًا. وقد كانت تلك الإسطبلات قائمة فى عهد بيبرس، طبقًا لما ذكره كوارترمير[٤٥]. ويعتقد كازانوفا أن الإسطبلات نقلت إلى القلعة فى عهد الكامل لسببين: أولاً، لأن المسافة بين المراكز السياسية السابقة فى القاهرة والفسطاط كانت تتطلب وصولاً ميسرًا وقريبًا للركائب، وثانيًا لأن الحروب المستمرة ضد الصليبيين زادت من الحاجة إلى تلك الركائب. وكانت تلك الإسطبلات تقع فى أسفل القلعة بين الرميلة وقرة ميدان. ويضيف كازانوفا:

فى عصر القلقشندى كانت الإسطبلات متصلة بالقلعة عن طريق باب خاص، وكان هذا الباب قائمًا فى عهد بيبرس. ومن المنطقى أن نفترض وجوده أيضًا فى عهد الكامل[٤٦].

خزانة الكتب

كانت خزانة الكتب فى العصر الفاطمى من أهم مستودعات الكتب والمخطوطات فى العالم فى العصور الوسطى. وعلى الرغم من أنها ليست بالمؤسسة الدفاعية فإننا سوف نناقشها هنا نظرًا لاستقرارها فيما بعد وبشكل نهائى داخل القسم الغربى للقلعة.

يورد المقريزى فى خططه تفصيلاً مستفيضًا لمحتويات المكتبة وتطورها منذ إنشائها على يد الخليفة الفاطمى العزيز. وقد تنقلت الخزانة بين العديد من الأماكن فى القصور الفاطمية فأصابها ضرر شديد خلال ثورات الترك فى عهد المستنصر. وفى وقت ما استقرت تلك الخزانة، طبقًا لابن طوير، فى أحد مجالس

المارستان العتيق الذى أسسه صلاح الدين فى قاعة كان قد أنشأها العزيز بالله إلى الجنوب من القصر الشرقى، وكانت قائمة هناك، على ما يعتقد، فى أواخر العصر الفاطمى(٤٧). ويضيف المقريزى:

> وتولى ابن صورة بيعها فى أيام الملك الناصر صلاح الـدين... وقال ابن أبى طى بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقـاهرة فـى القصر ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى إلى غير ذلك. ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتـاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة... ومما يؤيـد ذلـك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على لما أنـشأ المدرسـة الفاضـلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد، وبـاع ابـن صورة دلال الكتب منها جملة فى مدة أعوام فلو كانت كلها مائة ألـف لما فضل عند القاضى الفاضل منها شيء، وذكر ابن أبى واصـل أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد(٤٨).

ويقول المقريزى فى "كتاب السلوك" فى أحداث سنة ٦٢٦ هـــ /١٢٨٨-١٢٨٩ م :

"وفي خامس جمادى الأولى – وهو يوم الأحد–: وقعت الحوطة علـى دار القاضى الأشرف أحمد بن القاضى الفاضل، وحملت خزائن الكتب، جميعهـا إلـى قلعة الجبل، في سادس عشريه، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلدة، وحمل من داره – في ثالث جمادى الآخرة – خشب خزائن الكتب مفـصلة، وحملهـا تـسعة وأربعون جملاً، وكانت الجمال التى حملت الكتب تسعة وخمـسين جمـلاً، ثـلاث دفعات.

وفي يوم السبت ثانى عشرى رجب منها: حملت الكتب والخزائن من القلعة إلى دار الفاضل، وقيل إن عدتها أحد عشر ألف كتاب وثمانمائة وثمانية كتب، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك والغصون لأبى العلاء المعرى، فى ستين مجلدًا."[٤٩]

ويذكر كازانوفا أيضًا أن هناك قبة سماوية من النحاس موجودة بمتحف بورجيا فى فيليترى، تشير النقوش عليها إلى أنه قد صنعها قيصر بن أبي القاسم بن مسافر لخزانة الملك الكامل سنة ٦٢٢ هـ /١٢٢٥-١٢٢٦ م. ويعتقد كازانوفا، بناء على عدد من الروايات منها رواية لأبى الفداء تشير إلى قيصر بوصفه مهندسًا، أن الكامل ربما استخدم قيصر هذا فى بناء القلعة أيضًا[٥٠].

باختصار، فبعد أن انتُقِص الكثير من خزانة الكتب على يد الترك فى عهد المستنصر، باعها صلاح الدين، كلها على ما يبدو. وأكبر مجموعة من كتبها عُرف أنها بقيت بعد البيع هى تلك التى اشتراها القاضى الفاضل وأودعها مدرسته. وبناء على النقش الموجود على القبة السماوية فى فيليترى فقد كان للكامل مكتبة على الأقل سنة ٦٢٢ هـ /١٢٢٥-١٢٢٦ م. ومسألة نقل ٦٨٠٠٠ مجلد من قصر الأشرف أحمد بن القاضى الفاضل إلى مكتبة القلعة لها وجاهتها؛ فقد كان الكامل، كما يشير كازانوفا، محبًا للعلوم، وإن كان هناك عدد من المجلدات قد أعيد إلى الأشرف أحمد فلا بد وأن تلك المجلدات قد اختيرت بعناية[٥١]. غير أن المقريزى عند وصفه للمدرسة الفاضلية (سيأتى ذكرها فيما بعد)، يشير إلى أن الفقد الأساسى لكتب تلك المدرسة نتج عن مجاعة سنة ٦٩٤ هـ /١٢٩٤-١٢٩٥ م عندما كان طلابها يبيعون تلك الكتب، والتى كثيرًا ما بيعت مقابل رغيف من العيش، حتى اختفى معظمها. "ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعارية حتى تفرقت."[٥٢] هناك احتمال إذن أن يكون القاضى الفاضل – وربما ابنه الأشرف أحمد – قد كون مكتبتين منفصلتين، إحديهما فى المدرسة الفاضلية، والأخرى فى قصر القاضى

الفاضل، والذى كان، طبقًا لرواية المقريزى، قريبًا من المدرسة[٥٣]. وقد يجوز لنا الاعتقاد بأن مجموعة القصر – والتى نقلت للقلعة – تكونت من المكتبات الفاطمية أيضًا، بالرغم من عدم النص على ذلك صراحة. بيد أن حريقًا ضخمًا شبَّ بالقلعة فأتى على خزانة الكتب سنة ٦٩١ هـ /١٢٩١-١٢٩٢[٥٤].

قاعة الصاحب والمسجد

يقول كازانوفا:

> وأنسب إلى الكامل أيضًا إنشاء مبنى سمى قاعة الصاحب. وكان لقب الصاحب يطلق على الوزراء منذ زمن صفى الدين بن شكر، الذى كان وزيرًا للكامل. وكان فى هذا الموضع على عهد بيبرس جامع كان الخليفة الحاكم قد ألقى فيه خطبة الجمعة. وربما يعود لعهد الكامل، وكان بالموضع الذى أعاد محمد بن قلاوون بناء الجامع فيه[٥٥].

قاعة الصالحية

والمبنى الوحيد المعروف فى القلعة، والذى يمكن نسبته للفترة التالية من العصر الأيوبى هو قاعة الصالحية، والتى بناها الملك الصالح. وكان انتقال الملك الصالح إلى جزيرة الروضة سببًا فى إهمال القلعة نسبيًا بلا شك – حتى تولى أول سلاطين المماليك، المعز نجم الدين أيبك[٥٦]. ومنذئذ كانت القلعة هى مركز الحكم فى مصر، باستثناء فترة الاحتلال الفرنسى، وحتى عصر محمد على فى القرن التاسع عشر.

يقول ابن جبير عما شاهده سنة ٥٧٨ هـ /١١٨٣ م:

"ومن مفاخر هذا السلطان [صلاح الدين] وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر، وعلى مقدار سبعة أميال منها، بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر، كأنه جبل ممدود على الأرض، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة، وهى نحو الأربعين قوسًا من أكبر ما يكون من قسى القناطر. والقنطرة متصلة بالصحراء التى يُفضَى منها إلى الإسكندرية، له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحَزَمة، إعدادًا لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية، عند فيض النيل وانغمار الأرض به، وامتناع سلوك العساكر بسببه. فأعد بذلك مسلكًا فى كل وقت إن احتيج إليه. ... ولأهل مصر فى شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية... وعلى مقربة من هذه القنطرة المحدثة الأهرام القديمة." (٥٧)

كما يشير عبد اللطيف البغدادى إلى أنه فى سنة ٥٧٩/١٢٠٠-١٢٠١:

"استخدم قراقوش أحجار الأهرامات الصغيرة التي هدمها في بناء القناطر التي يراها النظار الآن في الجيزة، وهي قناطر عظيمة البنيان حرية بالإعجاب تستحق أن تعد من أعمال الجبارين. كانت هناك أكثر من أربعين قنطرة، ولكن فى هذه السنة (٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ - ١٢٠١ م) عُهِد بالقناطر إلى رجل جاهل أحمق قرر غلقها ظنًا منه أن ذلك يجعل الماء المحبوس وراءها يفيض على أرض الجيزة فتفيد

من فوائد الفيضان. ولكن العكس هو ما حدث، إذ أضعفت قوة الماء ثلاثة منها فتضعضعت وانهارت دون أن تفيد الأرض التي أمّل الرجل أن يغمرها الفيضان".[٥٨]

وقد أورد ديساسي رواية لابن الوردي يقول فيها: "في الجيزة قناطر لم يشيد لها مثيل. فيها أربعون قنطرة على خط واحد". ويعتقد ديساسي أيضًا أن الطريق الذي أقامه قراقوش، والذي يمتد إلى القناطر "يوفر في كل وقت طريقًا واسعًا لنقل المواد المنقولة لبناء سور القاهرة وقلعة الجبل".[٥٩]

كما يورد لنا المقريزى فى خططه الوصف التالى:

قال فى كتاب "عجائب البنيان" إن القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة ومن أعمال الجبارين وهى نيف وأربعون قنطرة عمرها الأمير قراقوش الأسدى، وكان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة وأخذ حجرها فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل... وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة [١٢٠٢-١٢٠٣] تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده فسدها رجاء أن يحبس الماء فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقت ومع ذلك فأروى ما رجا أن يروى. وفى سنة ثمان وسبعمائة [١٣٠٨-١٣٠٩] رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير بردمها فعمر ما خرب منها وأصلح ما فسد فيها فحصل النفع بها، وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفًا من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر[٦٠].

والدور الأساسى المفترض لقناطر الجيزة هنا هو نقل الرجال ومواد البناء؛ وقد تكون قد حققت هذا الدور بالفعل. بيد أن الدور الثانوى الذى لعبته فيما بعد، وهو الرى، فقد فشلت في تحقيقه. فاقتراح ابن جبير بأن القنطرة والقسى قد أقيمت لنقل الرجال هو أهمها عنده. وأن بناءها اعتمد فى معظمه على كسرات الأحجار من الأهرام الصغيرة مقبول إلى حد كبير نظرا لقربها؛ أما مسألة نقل الكثير من الأحجار من الجيزة لبناء سور القاهرة والفسطاط والقلعة فهو محل نقاش. فمن المحتمل أن يكون قد تم نقل بعض الأحجار عبر القنطرة إلى الشاطئ الغربى للنيل، ومنه إلى الفسطاط عبر جسور المراكب التى كانت تعترض النيل عند الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة. بيد أن الأجدى من الناحية اللوجستية أن تكون معظم أحجار البناء المستخدمة في تحصينات القاهرة والفسطاط كان مصدرها المحاجر المتاخمة للمقطم. أما القول بأن الرى كان الغرض الأساسى من إقامة القسى فقد نفاه ضمنيًا عبد اللطيف والمقريزى في وصفهما، الذى يكاد يتطابق، لكارثة محاولة سد تلك القسى حوالى ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ - ١٢٠١ م.

المرافق النهرية

على الرغم من أن منطقة الفسطاط كانت تعج بالأرصفة التجارية، وعلى الرغم من كثافة ترسيب الطمى، فإن المقس كانت لا تزال تنعم ببعض المرافق التجارية. على أن معلوماتنا حول تحديد مواقع أرصفة السفن بدقة فى العصر الأيوبى لا يزال يعلوها بعض الإبهام. فكما أشرنا فى الفصل الأول، كانت هناك ترسانات بحرية فى الروضة والفسطاط خلال عصر الخليفة الفاطمى الآمر، بقى ما كان منها بالفسطاط (بالقرب من فم الخليج) حتى حوالى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠-١٣٠١م. وقد ورد ذكر الأرصفة البحرية الأيوبية ثلاث مرات فى "تاريخ البطاركة" . سنة ٦١٤ هـ /١٢١٧-١٢١٨ م خلال عهد الملك العادل، أقيم جسر

من المراكب بين الروضة والجيزة، يبدأ من أمام "الصناعة المستجدة"، وهو ما يعنى أن الأرصفة كانت إما في الطرف الجنوبى من الروضة أو فى الشاطئ المقابل بالفسطاط. وفى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩-١٢٤٠ م، أمر الملك الصالح، فى إطار حملته لليمن، ببناء أربعين سفينة فى "مصانعْ الفسطاط؛ حيث تنقل منها إلى البحر الأحمر (مفككة) على ظهور الإبل. وأخيرًا، سنة ٦٤٠ هـ /١٢٤٢-١٢٤٣م، أمر الملك الصالح بنقل أرصفة صناعة السفن النيلية والحربية من الفسطاط إلى الجيزة، كجزء من محاولة لعزل نفسه في قلعته الجديدة على جزيرة الروضة. بيد أنه لا يوجد دليل على أن هذا النقل قد تم بالفعل[٦١]. ونستطيع أن نقول باطمئنان إنه كانت هناك أرصفة بحرية فى عدد من النقاط على امتداد شاطئ الفسطاط وفى الطرف الجنوبى من الروضة، إما متزامنة أو فى أوقات متفرقة خلال العصر الأيوبى، مع الاستيلاء على الأرصفة التجارية أيضًا خلال حالات الطوارئ العسكرية.

قلعة الروضة

أقام الملك الصالح، حوالى ٦٣٧-٦٤١ هـ /١٢٣٩-١٢٤٤ م قلعة الروضة، والتى كانت تحتل النصف الجنوبى للجزيرة. وكان لهذا المعقل الشاسع وظيفتان: أولاهما أن يكون مجمع إقامة وإدارة يحل محل قلعة الجبل مؤقتًا، وثانيتهما أن يكون ثكنة لمماليك الصالح البحرية، والذين سوف يصبحون نواة الدولة التالية[*]. وقد استمرت بعض الأنشطة فى قلعة الجبل بالطبع (أنشأت القلعة الصالحية في تلك الفترة) إلا أن مركز الثقل فى النشاط الإدارى والعسكرى كان قد انتقل بالقطع عبر النهر، واستمر كذلك قرابة عقد من الزمان.

(*) دولة المماليك البحرية. (المترجم)

وكما أشرنا فى الفصول السابقة، فعلى الرغم من أن جزيرة الروضة كانت موقعا للمنشآت العسكرية منذ العصر الأموى وحتى العصر الفاطمى، فقد كانت فى الأساس مركزًا للحدائق والمتنزهات والجواسق، بما فيها "الهودج"، وهو الجوسق الذى أقامه الخليفة الآمر فى الطرف الشمالى للجزيرة.

وطبقًا لابن المتوج، فقد اشترى الجزيرة الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ابن أخى صلاح الدين) سنة ٥٦٦ هـ /١١٧٠-١١٧١ م. وعندما أقيم تقى الدين على حماه سنة ٥٧٤ هـ /١١٧٨-١١٧٩ م قام بوقف الجزيرة كلها على مدرسته (التقاوية) فى الفسطاط. وعندما قبض الملك الصالح على زمام السلطنة استأجر الجزيرة من القاضى فخر الدين العسكرى شيخ تلك المدرسة،

> لمدة ستين سنة فى دفعتين كل دفعة قطعة، فالقطعة الأولى من جامع غين [مسجد جامع أقيم فى عهد الحاكم] إلى المناظر طولاً وعرضا من البحر إلى البحر واستأجر القطعة الثانية وهى باقى أرض الجزيرة بما فيها من النخل والجميز والغروس، فإنه لما عمر الملك الصالح مناظر قلعة الجزيرة قطعت النخيل ودخلت فى العمائر[٦٢].

ويضيف المقريزى:

> اعلم أنه ما برحت جزيرة الروضة متنزهًا ملوكيًا [أى الهودج] ومسكنًا للناس كما تقدم ذكره إلى أن ولى الملك الصالح...فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية وشرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان وابتدأ بنيانها فى... يوم الجمعة سادس عشر وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة

وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس وأدخلها فى القلعة وأنفق فى عمارتها أموالاً جمة وبنى فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجًا وبنى بها جامعًا وغرس بها جميع الأشجار ونقل إليها عمد الصوان من البرابى وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد والأقوات خشية من محاصرة الفرنج فإنهم كانوا حينئذ على عزم قصد بلاد مصر وبالغ فى إتقانها مبالغة عظيمة حتى قيل إنه استقام كل حجر فيها بدينار وكل طوبة بدرهم، وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل فصارت تدهش من كثرة زخرفتها وتحير الناظر إليها من حسن سقوفها المزينة وبديع رخامها ويقال إنه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة... وهرب الهودج والبستان المختار وهدم ثلاثة وثلاثين مسجدًا عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين[٦٣].

ولم يلق التدمير الشامل للمساجد قبولاً عامًا تشهد عليه رواية الجواد جمال الدين، أحد أمراء الملك الصالح. فعندما طلب الجواد استبعاده من الإشراف على هدم أحد المساجد، أناب الصالح آخر مكانه فأزال المسجد وأقام قاعة بدلاً منه. ولم يقدر للملك الصالح أن يدخل تلك القاعة حيًا، ولكن بعد وفاته فى موقعة المنصورة دفن فى تلك القاعة فى انتظار الانتهاء من مقبرته بمدرسته فى بين القصرين. وبالرغم من الاختلاف على الأسباب والنتائج، فإن كراهية تدمير المنشآت الدينية الإسلامية واضحة بلا شك[٦٤].

ويضيف المقريزى أيضًا:

وكان النيل عندما عزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة من الجانب الغربى فيما بين الروضة وبر الجيزة وقد انطرد عن بر

مصر ولا يحيط بالروضة إلا فى أيام الزيادة فلم يزل يغرق السفن فى البر الغربى ويحفر فيما بين الروضة ومصر ما كان هناك من الرمال حتى عاد ماء النيل إلى بر مصر واستمر هناك فأنشأ جسرًا عظيمًا ممتدًا من بر مصر إلى الروضة وجعل عرضه ثلاث قصبات [حوالى ١١,٥ مترًا]. وكان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة يترجلون عن خيولهم عند البر ويمشون فى طول هذا الجسر إلى القلعة ولا يمكن أحد من العبور عليه راكبًا سوى السلطان فقط. ولما كملت [القلعة] تحول إليها بأهله وحرمه واتخذها دار ملك وأسكن فيها معه مماليكه البحرية، وكانت عدتهم نحو الألف مملوك[٦٥].

قال العلامة على بن سعيد فى كتاب المغرب وقد ذكر الروضة: هى أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجيزة وبها مقياس النيل وكانت منتزهًا لأهل مصر فاختارها الصالح بن الكامل سرير السلطنة وبنى بها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك لم تر عينى أحسن منه. وفى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الآمر خليفة مصر لزوجته البدوية ... والمختار بستان الإخشيد وقصره.

ويستمر ابن سعيد فى مبالغاته المطولة فيقول:

وكنت أشق فى بعض الليالى بالفسطاط على ساحلها فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدرى اللون. ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها [الملك الصالح] وهو من أعظم السلاطين همة فى البناء وأبصرت فى هذه الجزيرة إيوانًا لجلوسه لم تر عينى مثله ولا أقدر ما أنفق عليه وفيه من صفائح الذهب والرخام

الأبنوسى والكافورى والمجزع ما يذهل الأفكار ويستوقف الأبصار ويفضل عما أحاط به السور أرض طويلة وفى بعضها حاظر حظر به على أصناف الوحوش التى يتفرج عليها السلطان وبعدها مروج ينقطع فيها مياه النيل...وإذا زاد النيل فصل ما بينها وبين الفسطاط بالكلية. وفى أيام احتراق النيل يتصل برها ببر الفسطاط من جهة خليج القاهرة ويبقى موضع الجسر فيه مراكب [أى أن جسر المراكب فى الطرف الجنوبى للجزيرة بينها وبين الفسطاط يبقى عاليًا ولا يصله الماء][٦٦].

ويستمر المقريزى فى وصفه فيقول:

ولم تزل هذه القلعة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب. فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى أول ملوك الترك بمصر أمر بهدمها وعمر منها مدرسته المعروفة بالمعزية فى رحبة الحناء بمدينة مصر. وطمع فى القلعة من له جاه، فأخذ جماعة منها عدة سقوف وشبابيك كثيرة وغير ذلك وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة. فلما صارت مملكة مصر إلى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى اهتم بعمارة قلعة الروضة ورسم للأمير جمال الدين بن موسى بن يغمور أن يتولى إعادتها كما كانت، فأصلح بعض ما تهدم فيها ورتب فيها الجاندارية وأعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة وأمر بأبراجها ففرقت على الأمراء.... ورسم أن تكون بيوتات جميع الأمراء وإصطبلاتهم فيها وسلم المفاتيح لهم. فلما تسلطن الملك المنصور قلاوون الألفى وشرع فى بناء المارستان والقبة والمدرسة المنصورية نقل من قلعة الروضة هذه ما يحتاج إليه من عمد الصوان وعمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة فى البرابى وأخذ منها رخامًا كثيرًا وأعتابًا جليلة مما كان فى البرابى

وغير ذلك. ثم أخذ منها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ما احتاج إليه من عمد الصوان فى بناء الإيوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل والجامع الجديد الناصرى ظاهر مدينة مصر وأخذ غير ذلك حتى ذهبت كأن لم تكن وتأخر منها عقد جليل تسميه العامة القوس كان مما يلى جانبها الغربى أدركناه باقيًا إلى نحو سنة عشرين وثمانمائة [١٤١٧-١٤١٨ م] وبقى من أبراجها عدة قد انقلب أكثرها وبنى الناس فوقها دورهم المطلة على النيل[٦٧].

ويضيف ابن دقماق أن المواد التى استخدمت فى بناء قلعة الروضة هى الجبس، والقراميد، والطمى، والجير. وهو ما يعنى أن المواد المستخدمة بالفعل هى الحجر الجيرى والطوب الأحمر، مع استخدام مونة من الطمى و/أو الجير. بيد أن قوله إن قلعة الروضة قد أنشئت سنة ٦٤٦ هـ /١٢٤٨-١٢٤٩م ثم دمرت بعد ذلك بثلاث سنوات بأمر من الملك المعز أيبك لا نستطيع أن نقبله، ويدعمنا فى ذلك ابن واصل والمقريزى[٦٨].

فالمقريزى يقول فى السلوك فى أحداث سنة ٦٣٨ هـ /١٢٤٠-١٢٤١ م إن الملك الصالح رزق بولد من إحدى سراريه، فأمر ببناء قلعة الروضة ابتهاجًا بذلك[٦٩]. كما يشير ابن واصل فى حولياته لنفس السنة أن الملك الصالح بنى القلعة لتكون مركزًا لمماليكه وأمرائه، وأنها بنيت فى ثلاث سنوات[٧٠]. ونظرًا للدقة الشديدة المعروف بها ابن دقماق بشكل عام، فربما كان تاريخ ٦٤٦ هـ /١٢٤٨-١٢٤٩ م خطأ فى النسخ.

أنشئت قلعة الروضة إذن لتكون قصرًا وحصنًا ومجمعًا إداريًا، كان هو المقر الإدارى لمصر لفترة وجيزة – أطول بقليل من فترة حكم الملك الصالح. وبعد أن أمضى الملك الصالح ثلاث سنوات فى قلعة الجبل قبل الانتهاء من بناء قلعته الجديدة، انتقل ببلاطه وأسرته وحريمه وكتيبته الخاصة من المماليك إلى

القلعة الجديدة على النيل. وقد كانت جزيرة الروضة موقع العديد من الحصون والترسانات وأرصفة السفن قبل وأثناء العصر الفاطمى، فكانت بذلك - ولو على فترات - قاعدة عسكرية هجومية ودفاعية لأكثر من خمسة قرون قبل العصر الأيوبى. بيد أننا يجب ألا ننسى أن الروضة عندما استخدمت كحصن - خاصة خلال العصرين البيزنطى والأموى - كان تحصينها فى الأساس للدفاع عن بابليون والفسطاط. وخلال المائتين والسبعين سنة التى سبقت إنشاء قلعة الروضة، تحول مركز الدفاع عن الروضة إلى مدينة القاهرة المسورة أولاً خلال العصر الفاطمى، ثم إلى قلعة الجبل فى عهد صلاح الدين، والتى كانت مركز سور القاهرة - الفسطاط. واستمرت قلعة الجبل مقرًا للحكم حتى عهد الملك الصالح، ثم بعده مباشرة وحتى عصر محمد على (مع انقطاع قصير خلال الاحتلال الفرنسى). وكانت قلعة الجبل حصنًا دفاعيًا أفضل - بموقعها - من أى قلعة يمكن أن تقام على جزيرة الروضة. فقلعة الروضة حتى بأبراجها الستين، لا يمكن مقارنتها - بموقعها المنخفض والمنفصل عن الأرض بقناة ضيقة (عندما تمتلئ بالماء)- بالحصن العظيم القابع على مسافة ميلين إلى الشمال الشرقى على ربوة من ربى المقطم.

فلماذا الانتقال إذن؟ الحجة التى يسوقها المقريزى من أن قلعة الروضة قد أقيمت فقط احتفاء بمولود الملك الصالح الجديد حجة واهية بالطبع. وتصف روايات ابن سعيد، وابن دقماق، والمقريزى - إلى جانب الإشارات السريعة للتحصينات - إلى قصر منيف شاهق البنيان رائع الزينة، وإلى حدائق وحظيرة للوحوش تصل فى مساحتها إلى شاطئ النيل. وليس فى قلعة الجبل من المنشآت ما يضاهى تلك الأبهة خلال العصر الأيوبى؛ وفى السنوات الثلاث التى أقام بها الملك الصالح فى قلعة الجبل لم يكن له من منشآت تذكر إلا القاعة الصالحية، والمعتقد أنها كانت قاعة عرش. بيد أننا نلحظ أن مشروعات الملك الصالح الإنشائية الأخرى فى

الغرب: إحياء قرة ميدان أسفل القلعة، والجواسق وساحات لعب الكرة... إلخ في باب اللوق، ومناظر قلعة الكبش المطلة على بركة الفيل، وأخيرًا قلعة الروضة، كلها تشير إلى انجذابه للحدائق والأماكن المفتوحة، وخاصة للماء، سواء أكان في ساقية قرة ميدان، أم بركة الفيل (وبركة قارون المجاورة)، أم النيل نفسه، والذى كان آنذاك يغمر ما حول ميدان اللوق وجزيرة الروضة. يمكننا إذن أن نعتبر قلعة الروضة البوتقة التي جمعت رغبتين للملك الصالح: أولاً إقامة مجموعة "قلعة – قصر – إدارة" في أحد الضواحى، وثانيًا رغبته في اتباع سنة من سبقوه في حكم الفسطاط والقاهرة، والمتمثلة في إنشاء مركز إدارى جديد منفصل عن ما سبقه، وهى: العسكر، فالقطائع، فالقاهرة، فقلعة الجبل. وعلى الرغم من أن قلعة الروضة كانت محدودة القيمة كحصن فلا يوجد ما يدل على أن قلعة الجبل – الأكثر أمنًا بلا جدال – توقفت عن لعب دورها ككيان يمكن الاعتماد عليه واللجوء إليه كملاذ أخير ضد أى هجمات. لقد كانت قلعة الملك الصالح النيلية عزفًا منفردًا من الرجل ألقت به الدولة، التى كان هو سببًا فى نشأتها، إلى ظلمات الدمار. وعلى الرغم من أن انتقال السلطان إليها أدى إلى التقاط الفسطاط لأنفاسها اقتصاديًا واجتماعيًا نظرًا لقربها من السلطان، فإن ذلك لم يكن سوى فترة توقف قصيرة في مسيرة سقوط الفسطاط إلى هاوية الضاحية غير المهمة نسبيًا.

ملخص

خدمت الإجراءات الدفاعية التى اتخذت فى القاهرة الأيوبية ثلاث وظائف أساسية: توفير الحماية العامة لمنطقة القاهرة– الفسطاط الإدارية، وتوفير الحماية الخاصة للسلطان وقواته وحاشيته فى نفس مكان المرافق الإدارية – وعادةً ما يكون هذا المكان قلعة، ومرافق لحركة القوات. وبالنسبة للحماية الأساسية، كان ترميم أسوار بدر الجمالى بمثابة إجراء مؤقت أثناء بناء القلعة وسور القاهرة –

الفسطاط، بينما كان سور القاهرة – الفسطاط نفسه وما حوله من مناطق يهدف إلى توفير الحماية لعاصمة صلاح الدين الجديدة التى كانت تضم بين جنباتها عواصم مصر الإسلامية الأربع السابقة. وتمثلت تلك المرافق تحديدًا فى قلعة الجبل وقلعة الروضة، وربما أيضًا برج المقس الذى كان يطلق عليه أحيانًا "قلعة". واستخدمت قناطر الجيزة، على ما يبدو، أساسًا كوسيلة لسرعة نشر القوات، خاصة فى وقت ارتفاع النيل، أمام أى غزو محتمل.

كان البدء فى بناء القلعة وسور القاهرة – الفسطاط أيام صلاح الدين، ولكنهما لم يتمَّا فى حياته، ولم يتم بناء السور أبدًا. وعلى الرغم من أن العمل استمر فى هذين المشروعين، ثم فى قلعة الروضة فيما بعد طوال العصر الأيوبى فقد كان البناء يجرى على فترات متقطعة، واتبع نمطًا تجدر بنا الإشارة إليه هنا. بدأ تشييد قلعة الجبل وسور القاهرة – الفسطاط فى عهد صلاح الدين من موقع قوة، ولم يستكملا نظرًا لانتقاله نهائيًا إلى الشام. تم بناء مجمع الحصن / القصر فى القلعة كما خطط له صلاح الدين أيام الكامل، عندما كان نائبًا على مصر فى عهد والده الملك العادل، ثم أقام الملك الصالح قلعة الروضة. أما سور القاهرة – الفسطاط فقد كان العمل يستأنف فيه فقط أيام الحروب الداخلية فى الدولة الأيوبية أو فى حالة وجود تهديد خارجى. وفيما عدا أعمال البناء الأولى لسور القاهرة – الفسطاط، كان العمل الأساسى فى القلاع يجرى فى أوقات الأمان النسبى، بينما يجرى العمل فى السور فى أوقات الأزمات كإجراء وقائى عاجل لتحصين الجهة الغربية للقاهرة والفسطاط. وعدم اكتمال السور فى هذا الجناح الغربى يمكن أن نعزوه لعاملين: أولهما أن النيل نفسه كان يوفر قدرًا من الحماية، حتى إن قراقوش أجل بناء الجانب الغربى من السور للمرحلة الأخيرة، وثانيهما أن وفاة صلاح الدين و/أو قراقوش وضعت نهاية لقوة الدفع لاستكمال البناء.

أدى بناء قلعتى صلاح الدين والملك الصالح إلى بعض النمو الاجتماعى والاقتصادى فى المناطق حولهما من حيث أ) نمو السكان، والتجمع الطبيعى لكبار رجال الدولة وموظفيها وكبار رجال الجيش فى المنطقة القريبة من السلطان، و ب) الأفراد والخدمات اللازمة لتوفير احتياجات هؤلاء. وبينما كان ذلك وضعًا مؤقتًا بالنسبة لحالة قلعة الروضة، والتى كانت بمثابة التقاط أنفاس أخير فى مسيرة انهيار الفسطاط كما ذكرنا آنفًا، كانت قلعة الجبل هى المركز الإدارى لمصر لقرابة ستمائة وخمسين عامًا، نتج عنه نشأة وتطور حى جديد ازدهر نسبيًا فى القاهرة وهو حى الدرب الأحمر.

وأخيرًا نذكر أنه على الرغم من التقوى التى كان يبديها صلاح الدين والملك الصالح، على الأقل ظاهريًا، فقد أقيمت قلعتاهما على حساب تدمير شامل للمساجد والمقابر التى كانت تحتل موقعى القلعتين. لقد أخذت قدسية الأماكن الدينية، بسبب الضرورة العملية، المرتبة الثانية، نزولاً على ما أملته السلطة الدنيوية.

الهوامش

(١) Casanova, "Citadelle;" Creswell, vol. 2

(٢) Casanova, "Citadelle;" pp. 535-53

(٣) Creswell, vol. 1, map opposite p. 30. يجب ألا نخلط بين الباب الجديد هذا والبوابة التي تقف وحيدة وتحمل الاسم نفسه، والتي كانت من منشآت الحاكم إلى الجنوب من باب زويلة.

(٤) المقريزى، المواعظ، ج ١، صص ٣٧٩–٣٨٠. مقولة المقريزي: "لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مصر" مضللة؛ إذ لا بد أن المقريزى كان يقصد القاهرة وليس مصر (الفسطاط). ويشير "البرج بالكوم الأحمر" إلى باب القنطرة.

(٥) Casanova, "Citadelle,", pp. 535-38; al-Maqrizi, Suluk, Blochet, vol. 8, pp. 525

(٦) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٣، ٢٨٣–٢٨٤؛ Casanova, "Citadelle", p. 539; Creswell, vol. 2, p. 59

(٧) Casanova, "Citadelle," pp. 541-44; Creswell, vol. 1, map opposite p. 30, vol. 2, pp. 58 - 59

(٨) Survey of Egypt, Sheet 2

(٩) Casanova, "Foustat," Plan 1

(١٠) Ibid., pp. 51 -52; Casanova, "Citadelle", pp. 545-47 ; Creswell, vol. 2, pp. 5-58

(١١) المقريزى، المواعظ، جزء ١، ص ٣٤٧؛ Casanova, "Foustat", pp. 3-4, Plan1; Creswell, vol.2, p. 59

(١٢) Casanova, "Foustat", pp. 72-77, Plan 1؛ ابن دقماق، الانتصار، ج ٥، ص ٤٠؛ المقريزى، المواعظ، ج ١، صص ٣٤٤–٣٤٧ .

(١٣) ربما يكون الاستثناء الوحيد هو السور الذى بناه شاور دون اعتناء ولم يكتمل سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م لصد هجوم عامورى الوشيك، والذى وصفه المقريزى فى "اتعاظ الحنفا"، القاهرة ١٩٤٧، ج ٣، ص ٢٩٦. وكان هذا السور الذى لم يكتمل، يسير بمحاذاة النهر، ويضم ثمانى بوابات، كان

معظمها قد اختفى سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢-١٢٥٣م. ولم يكن باب مصر من بين تلك البوابات، ولا يحتمل – وفقًا لما نستطيع تحديده من موقعه التقريبى – أن يكون قد تم ضمه إلى تلك التحصينات، التى أقيمت على مسافة أبعد منه إلى الجنوب.

(١٤) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٣٨٠ .

(١٥) Creswell, vol. 2, pp. 58-59

(١٦) المقريزى، السلوك، زيادة، ج ١، ص ١٥٠ ؛ Blochet, vol. 9, p. 108

(١٧) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ١، صص ٢٠، ٢٧؛ ج ٢، صص ٧٤، ٨١، ٨٤ .

(١٨) Casanova, "Citadelle", pp. 555-63

(١٩) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٢٠٣ .

(٢٠) Creswell, vol. 2, p. 204

(٢١) Ibid., p. 38; Casanova, "Citadelle", pp. 569-84

(٢٢) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٢٠٤ .

(٢٣) Casanova, "Citadelle", p. 586

(٢٤) Ibid., pp. 588-89

(٢٥) Ibid., pp. 574-75

(٢٦) Ibid., p. 585, 588

(٢٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٢٠٤؛ Ibn Jubayr, Travels, p. 43P؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٥ .

(٢٨) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٣، ج ٢، ص ٨٨ .

(٢٩) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ١١١ .

(٣٠) 'Abd al-Latif al-Baghdadi, pp. 171-72

(٣١) Ibn Jubayr, Travels, p.43; Voyages, vol. 1, p. 63

(٣٢) Casanova, "Citadelle", pp. 541-42

(٣٣) Creswell, vol. 2, p. 5

(٣٤) Casanova, "Citadelle", pp. 571-73

(٣٥) al-Maqrizi, Suluk, Blochet, vol. 9, p 141

(٣٦) Creswell, vol. 2, p. 39; Casanova, "Citadelle", pp 535-37, 577

(٣٧) Creswell, vol. 2, p 39

(٣٨) Casanova, "Citadelle", p 577

(٣٩) Creswell, vol.2, p 38

(٤٠) Casanova, "Citadelle", pp 595-98 ؛ المقريزى، المواعظ، صص. ٢٣١-٢٣٢

(٤١) Creswell, vol.2, pp 14-16, 38

(٤٢) Casanova, "Citadelle", p 592

(٤٣) Ibid., pp 593-94

(٤٤) Ibid., p 594

(٤٥) Ibid.

(٤٦) Ibid., p 595

(٤٧) المقريزى، المواعظ، ج ١، صص ٤٠٨-٤٠٩ .

(٤٨) Ibid., p 409

(٤٩) المقريزى، السلوك، زيادة، مج ١، ج. ١، صص ٢٣٢-٢٣٣؛ Casanova, "Citadelle", p 598

(٥٠) Casanova, "Citadelle", p 599

(٥١) Ibid., p 598-99

(٥٢) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٦ .

(٥٣) المصدر السابق .

(٥٤) Casanova, "Citadelle", p 598

(٥٥) Ibid., p 595

(٥٦) Ibid., p 602

(٥٧) Ibn Jubayr, Travels, p 45

(٥٨) 'Abd al-Latif al-Baghdadi, p 172

(٥٩) Ibid., p 213, footnote 6

(٦٠) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ١٥١-١٥٢ .

(٦١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، مج ٤، ج ١، ص ١٨؛ ج ٢، صص ١٠٦، ١٣٧ .

(٦٢) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ١٨٤-١٨٥ .

(٦٣) المصدر السابق، ص ١٨٣ .

(٦٤) المصدر السابق .

(٦٥) المصدر السابق .

(٦٦) المصدر السابق، صص ١٨٣-١٨٤ .

(٦٧) المصدر السابق، ص ١٨٤ .

(٦٨) ابن دقماق، ج ٤، ص ١١٠ .

(٦٩) المقريزى، السلوك، زياده، مج ١، ج ٢، ص ٣٠١ .

(٧٠) ابن واصل، ج ٥، (القاهرة ، ١٩٧٧)، ص ٢٧٨ .

الفصل الخامس

أهم المبانى الحكومية والخاصة

بعد أن آلت الهيمنة على القاهرة إلى الأيوبيين، آلت إلى كبرائهم أيضًا مقار الأسرة الحاكمة الفاطمية السابقة، كما استمروا في استخدام (أو إعادة استخدام) العديد من المراكز الإدارية الفاطمية. وفى حين مُنِح أمراء صلاح الدين وأفراد أسرته القصور الفاطمية، حصلت قيادات النظام الجديد على المقار الأقل شأنًا، فكان منها الدور والقصور والمناظر، ... إلخ. وتمثلت أهم المبانى الحكومية فى: مراكز الإدارة، ودور الضيافة، ودار الضرب، ودار العيار، وعدد من السجون. ووجدت مبانٍ مشابهة فى الفسطاط تعود إلى العصر الفاطمى أيضًا. وبالإضافة إلى الاستمرار فى استخدام المنشآت الفاطمية، أقيمت أيضًا مبانٍ خاصة أصغر داخل حدود تلك المبانى السابقة أو على أنقاضها، خاصة في منطقة القصرين الفاطميين الشرقى والغربى.

وكما ذكرنا آنفًا، فقد توزع القصران الشرقى والغربى على أمراء وأسرة صلاح الدين، فكان القصر الشرقى (الأكبر) من نصيب أمرائه[1]، ولكن ليس فى كليته؛ حيث إن المقريزى يقول إن صلاح الدين "حط من مقدار قصور الخلافة وأسكن فى بعضها وتهدم البعض"[2] وكان القصر الغربى من نصيب الملك العادل، وفيه رزق بابنه الملك الكامل.[3] وانتقل صلاح الدين وخلفاؤه، حتى الملك الكامل، نهائيًا إلى القلعة، وكانت دار الوزارة مقر إقامتهم ومركز إدارتهم.

دار الوزارة

أسس الأفضل بن بدر الجمالى دار الوزارة (رقم ٨٠، خريطة ١) فى شمال شرقى القصر الفاطمى الشرقى، تقريبًا فى نفس موقع خانقاه بيبرس الجاشـنكير[٤]. كانت دار الوزارة مقر الوزراء الفاطميين، والسلاطين الأيـوبيين، فظلـت لـذلك مركزًا إداريًا مهمًا حتى الانتهاء من القلعة سـنة ٦٠٤ هـــ /١٢٠٧ –١٢٠٨ م. ويقول ابن عبد الظاهر عنها بعد ذلك: " ثم أرصدت دار الوزارة لمـن يـرد مـن الملوك ورسل الخليفة إلى هذا الوقت." [٥] ويضيف المقريزى أن دار الوازرة كانت معروفة حتى الانتقال إلى القلعة بالدار السلطانية (ربما فى العصر الأيوبى فقـط)، ثم أصبحت بعد ذلك منازل للرسل. [٦]

دار الضيافة

تقع دار الضيافة في حارة برجوان إلى الشمال من القصر الغربى، وكانـت في الأصل مقر – أو ربما أحد مقار – بدر الجمالى. وبعد أن آلت الـوزارة إلـى الأفضل أقام لأخوه المظفر (ابن بدر الجمالى) بهذا القصر، والذى عرف منذئذ بدار المظفر. وبعد وفاة المظفر لعب المبنى دور دار الضيافة لاستقبال الرسل الوافـدين إلى مصر. وبعد أن اعتلى صلاح الدين عرش السلطنة أصبحت دار الضيافة مقـر إقامة الأسرة الفاطمية المخلوعة حتى انتقالها إلى القلعة سنة ٦٠٤ هـ /١٢٠٧ – ١٢٠٨ م[٧].

دار الضرب

تبدو إشارات المقريزى والروايات التى أوردها عن دار الضرب متـضاربة نوعًا ما؛ فقد أقيمت دار ضرب سنة ٥١٦ هـ /١١٢٢–١١٢٣ م أيام خلافة الآمر

بالقرب من سوق الخراطين وخان مسرور (جنوب شرقى مسجد الأشرف برسباى حاليًا)، ثم تم نقلها جنوبًا فى درب الشمسى بين القصبة والأزهر. فهل يشير ذلك إلى اضطراب فى مقالة المقريزى أم إلى إعادة بناء أم إلى افتتاح دار ضرب جديدة؟ كلها احتمالات تقبل المناقشة. ومع ذلك يقول المقريزى إن دار الضرب بقيت حتى عهد صلاح الدين، عندما نقلت إلى موضعها الحالى، فى مخزن بالقرب من الإيوان الكبير للقصر الشرقى(٨).

وتشير أحداث سنة ٦٢٢ هـ /١٢٢٥-١٢٢٦ م فى "تاريخ البطاركة"، إلى أن الملك الكامل أمر بافتتاح دار ضرب فى القلعة وفى مصر بالإضافة إلى دار الضرب بالقاهرة، وافتتحت دار الضرب بالقلعة بالفعل فى تلك السنة(٩).

دار العيار

دار العيار، هى مكتب للموازين والمعايير، وقد كانت قائمة بالفعل خلال العصر الفاطمى طبقًا للمقريزى. "فلما استولى صلاح الدين على السلطنة أقر هذه الدار، وجعلها وقفًا على سور القاهرة مع ما كان جاريًا فى أوقاف السور من الرباع والنواحى الجارية فى ديوان الأسوار، ومازالت هذه الدار باقية." وعلى الرغم من أن المقريزى لم يذكر موضع تلك الدار، فإننا نعتقد أن دار العيار بالقاهرة ربما كانت قريبة جدًا من دار الضرب(١٠).

السجون

كانت السجون الأيوبية ، إلى حد كبير، استمرارًا لما كان فى العصر الفاطمى، وكانت تقع بالقاهرة والفسطاط. ويبدو أنها كانت مقسمة إلى نوعيتين: إحداهما للأمراء والسجناء السياسيين، والأخرى لعامة المجرمين.

حبس المعونة فى الفسطاط

كان حبس المعونة يقع أمام جامع عمرو بن العاص، وكـان قبـل العـصر الفاطمى مركزًا للشرطة، وأصبح سجنًا منذ سنة ٣٨١ هـ /٩٩١-٩٩٢ م، وبقى كذلك حتى عهد صلاح الدين؛ حيث حلت محله المدرسة الشرفية[١١].

حبس الصيار

أقيم حبس الصيار بعد أن تحول حبس المعونة بالفسطاط إلى مدرسة، وكان حبسًا للولاة كما يقول المقريزى. وقد اشتق اسمه من اسم صاحب حـانوت قريـب من الحبس اسمه "منصور الطويل" وكان يقال له الصيار؛ لأنه كان يبيـع الـصير المعروف بالملوحة. ولم يذكر المقريزى موضعه بدقة[١٢].

خزانة البنود

خزانة البنود (رقم ٨١، خريطـة ١) هـى خزانـة للبنـود، أى الرايـات والأعلام، وقد أنشأها الخليفة الفاطمى الظاهر، وكانت ملاصقة للقـصر الـشرقى الكبير بين قصر الشوك وباب العيد. وبعد احتراقهـا سـنة ٤٦١ هـ /١٠٦٨-١٠٦٩م أصبحت سجنًا للأمراء والولاة حتى نهاية العصر الفاطمى. وبقيت سـجنًا فى العصر الأيوبى، ثم استخدمت كمنازل للأسرى الفرنج الذين أسروا فى الكـرك خلال عصر الناصر محمد بن قلاوون وأسرهم، ثم حـل بالـسجن الـدمار سـنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣-١٣٤٤[١٣].

حبس المعونة بالقاهرة

كان هذا الحبس (رقم ٨٢، خريطة ١) يقع فـى مكـان مـسجد الأشـرف برسباى حاليًا. وكان سجنًا فاطميًا للصوص وقطاع الطرق. " وكان حبسًا حرجًـا

ضيقًا شنيعًا يشم من قربه رائحة كريهة"، ثم هدمه الناصر محمد بن قلاوون، ولكنْ يعتقد أنه كان مستخدمًا كسجن في العصر الأيوبي[١٤].

خزانة شمائل

كانت خزانة شمائل (رقم ٨٣، خريطة ١) تقع مكان مسجد المؤيد شيخ، بجوار باب زويلة مباشرة، واتخذت اسمها من "علم الدين شمائل" والي القاهرة في عهد الملك الكامل.

كان يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطريق ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة، وكان السجان بها يوظِّف عليه والي القاهرة شيئًا يحمله من المال له في كل يوم ... هدمها الملك المؤيد شيخ المحمودي ... سنة ثماني عشرة وثمانمائة [١٤١٥-١٤١٦].[١٥]

أهم المساكن الخاصة والقصور

قصر الحجازية

يقع قصر الحجازية (رقم ٨٤، خريطة ١) بخط رحبة باب العيد شمال شرقي القصر الشرقي بالقرب من المدرسة الحجازية. وكان يعرف أولاً بقصر الزمرد، وذلك لقربه من باب الزمرد، أحد أبواب القصر الفاطمي. وبعد انتهاء الدولة الفاطمية آل القصر لبني أيوب ثم تناقلته الأيدي حتى اشتراه الحاجب ابن خطير من أولاد ملوك بني أيوب. وبقي القصر في حوزته حتى نقله السلطان ليكون ممثلاً له في غزة سنة ٧٤١ هـ/١٣٤٠-١٣٤١ م[١٦].

قصر أولاد الشيخ

كان قصر أولاد الشيخ (رقم ٨٥، خريطة ١) فى الأصل قاعة من قاعات القصر الفاطمى الكبير، وهو يقع بين جامع الأقمر وخانقاة سعيد السعداء بالقرب من باب الريح، وهو البوابة الشمالية للقصر الشرقى. وكان يسكنه معين الدين حسين ابن شيخ الشيوخ وزير الملك الصالح(١٧).

دار القاضى الفاضل

تقع دار القاضى الفاضل هذه (رقم ٨٦، خريطة ١) ومدرسته فى درب الملوخيا بالقاهرة شمال شرقى القصر الكبير(١٨).

المناظر

انتشرت المناظر (مفردها منظرة) فى القاهرة والفسطاط، خاصة فى المناطق المطلة على النيل والخليج والبرك الغربية. وكانت تلك المناظر شديدة الشيوع فى العصر الفاطمى، واستمرت فى العصر الأيوبى فى نفس مواضعها تقريبًا، وأضيف لها فى ذلك العصر مناظر جديدة على أراضى طرح النهر بالشاطئ الشرقى للنيل. وليس لدينا وصف لتلك المنشآت، باستثناءات قليلة جدًا، ولكننا نستطيع القول بأنها كانت تتكون من ظلة كبيرة للاستفادة من المنظر والنسيم خاصة عند ارتفاع النيل فى سبتمبر وأكتوبر. ومعظم المناظر كانت تشتمل أيضًا على استراحة مبنية، وبعضها كان قصورًا فعلية مثل قلعة الكبش، ولؤلؤ، وربما تاج الملك بورى ببركة الحبش. وسوف نتناول ما كان مستخدمًا منها فى العصر الأيوبى بترتيبها الزمنى، ونمر مرور الكرام على ما ذكرناه منها فى الفصول السابقة.

عهد صلاح الدين

كانت لأخويه سيف الإسلام طغتكين وتاج الملك بورى منظرتان ببركة الفيل وبركة الحبش على الترتيب. وطبقًا لما ذكره أبو صالح، فقد أقام تاج الملك بورى العديد من المناظر بالقرب من كنيسة القديس بقطر ببركة الحبش. وكانت رائعة البناء أنفق تاج الملك مالاً عظيما على تزيينها بالمرمر وتذهيبها. (١٩) أما منظرة سيف الإسلام على الشاطئ الشرقى لبركة الفيل فكانت بها قاعات وجواسق شاسعة (انظر الفصل الثالث) (٢٠) . ومن بين المناظر الأخرى التى يمكن الإشارة إليها فى فترة حكم صلاح الدين، منظرة لؤلؤ بين السور الغربى للقاهرة والخليج، والتى استخدمها نجم الدين أيوب، وتلك التى وصفها ابن جبير بجزيرة الروضة، وأخرى ذكرها أبو صالح فى الحمراء فى محيط بركة قارون. (٢١)

العادل والكامل

بنى فخر الدين بن ثعلب (أحد أمراء الملك العادل وصاحب المدرسة الشريفية بالقاهرة. انظر الفصل الثالث) منظرة كبيرة بالقرب من باب اللوق. ويشير ابن واصل إلى أن جزيرة الروضة كانت تستخدم كمتنزه للملك الكامل وكان له بها دار لهذا الغرض، وذلك قبل إنشاء الملك الصالح لقلعة الروضة(٢٢).

الملك الصالح

من بين المنشآت العديدة التى أقيمت فى عهد الملك الصالح فى القاهرة الكبرى كان هناك عدد من المناظر جنوب وجنوب غربى المدينة. وقد ذكرنا فى السابق منظرة اللوق وبركة الشقاف بالبر الغربى للخليج، وتلك التى على الخليج نفسه وما كان منها أيضًا حول بركة الفيل (انظر الفصل الثالث).

بستان العالمة

يقع بستان العالمة بين باب مصر وفم الخليج، وكان حديقة أهـداها الملـك الصالح لامرأة من ذوات الحسب واسمها عالمة. وأقيمت منظرة ملاصقة له تطـل على النيل، وآلت لورثتها بعد وفاتها ثم أصبحت فى النهاية من ممتلكـات ورثـة الظاهر بيبرس البندقدارى[٢٣].

قلعة الكبش (مناظر الكبش)

أقام الملك الصالح حوالى سنة ٦٤٠ هـ /١٢٤٢-١٢٤٣ م قلعـة الكـبش على جبل يشكر (غربى جامع ابن طولون). وكانت تلك المنظـرة تعلـو الجـسر الأعظم وتطل على بركة الفيل وبركة قارون، ولا يحجب الناظر منها شيء حتى باب زويلة وباب مصر، ومصر، وشاطئ الجيزة، كما يشير المقريزى. وكانت "من أبهى المناظر بمصر". وأصبحت قلعة الكبش خلال حكم الظاهر بيبرس مقرًا مؤقتًا لاثنين على الأقل من خلفاء العباسيين في بغداد، والذين انتقلـوا لهـا بعـد غـزو المغول، كما استخدمها سنة ٦٧٣ هـ /١٢٧٤-١٢٧٥ م عدد من أمراء الأيـوبيين في حماه عند زيارتهم لمصر. ثم دمرها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣-١٣٢٤[٢٤].

الهوامش

(١) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٣٨٤ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٤ .

(٣) المصدر السابق، ص ٣٨١ .

(٤) Ravaisse, plate 3

(٥) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٤٣٨ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق، ص ٤٦١ .

(٨) المصدر السابق، صص ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٤٥؛ Clerget, vol. 1, map, p. 464

(٩) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ١، ص ٤٢ .

(١٠) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٤٦٤ .

(١١) المصدر السابق، ج ٢، صص ١٨٧-١٨٨ .

(١٢) المصدر السابق، ص ١٨٨ .

(١٣) المصدر السابق، ج ١، صص ٤٢٣ - ٤٢٤؛ Clerget, vol. 1, map, p. 132

(١٤) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٨٨؛ Clerget, vol. 2, p. 145

(١٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٨٨ .

(١٦) المصدر السابق، ص ٧١ .

(١٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٤ .

(١٨) القلقشندى، ج ٣، ص ٣٥٥ .

(١٩) أبو صالح، صص ١٣٢-١٣٣ .

(٢٠) Salmon, p. 67؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٣٤ .

(٢١) أبو صالح، ص ٩٢؛ المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٤٦٧؛ Ibn Jubayr, Travels, p. 46

(٢٢) ابن واصل، ج ٥، ص ٢٧٨ .

(٢٣) ابن دقماق، ج ٤، صص ٣٠-٣١؛ Casanova, "Citadelle", p. 78

(٢٤) المقريزي، المواعظ، ج ٢، صص ١٣٣-١٣٤؛ Salmon, pp. 79-81

الفصل السادس

الموارد المائية والصحة

التغيرات التى طرأت على النيل: القنوات، والجزر، والشواطئ

منذ أواخر العصر الفاطمى وحتى العصر المملوكي، كان اتجاه تغير مجرى النيل، وما ارتبط به من موارد مائية، من الشرق إلى الغرب. وبينما لم يحدث تغير يذكر على شاطئ الجيزة وجزيرة الروضة، فقد تسبب الطمي المترسب على الشاطئ الشرقى للنيل في سد القناة التى كانت تربط بين الروضة والفسطاط، وأصبح ميناء المقس غير صالح للاستخدام نظرًا لتكون جزيرتى بولاق والفيل. وبعد أن تكونت جزيرة الفيل من الرمال المتراكمة حول مركب غارقة فى أواخر العصر الفاطمى – بالإضافة إلى تراكم طمى النيل على الشاطئ نفسه – كانت الحاجة ماسة لإزالة "جزر الرمال" فى تلك المنطقة، وهو ما قام به صلاح الدين وأمراؤه سنة ٥٧٧ هـ /١١٨١-١١٨٢ م (انظر الفصل الثالث). ومنذ ذلك التاريخ لم يرد ذكر المقس – ميناء وترسانة الأسطول الفاطمى والميناء الأقرب للقاهرة – كميناء عسكرى أو تجارى. بيد أنه لم يخل من منفعة بسيطة، ويحملنا على هذا الاعتقاد عاملان: أولاً، عمليات التنظيف نفسها، وثانيًا تراكم طمى النيل المنتظم كل عام تقريبًا بين الروضة والفسطاط. غير أن البديل العملى كان يتمثل فى خدمات الميناء بالجيزة، التى لا يتراكم فيها الطمى إلى جانب تميزها بوجود أسواق وجسور من المراكب تصلها بالروضة والفسطاط.

وقد أدى تراكم الطمي في قناة الفسطاط – الروضة، وما كان يتزامن معه من ترسبه أيضًا على شاطئ النيل الشرقي إلى زيادة مساحة شاطئ الفسطاط، وامتدت مساحة طرح النهر من قرب دار الملك، قبالة مقياس النيل تقريبًا، غربًا لتصل في أقصى مداها الغربي إلى قبالة الطرف الشمالي للروضة، ثم تستمر أرض طرح النهر غرب الخليج (بما فيها اللوق) في خط شبه مستقيم، شمالاً، إلى المقس. وكانت الروضة، عند الفتح الإسلامي، تقع في وسط النيل تقريبًا. وقد سجل ترسيب الطمي بالفسطاط منذ فترة مبكرة ترجع إلى حكم عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦ هـ /٦٨٤-٧٠٥ م)، عندما شُرع في عمارة الأراضي الجديدة[١]. وكان أول استغلال لشاطئ الفسطاط، طبقًا لما ذكره المقريزي، في عهد كافور الإخشيدي سنة ٣٣٦ هـ /٩٤٧-٩٤٨ م. وكان فرع النيل بين الفسطاط والروضة (سنشير إليه فيما بعد بقناة الفسطاط) آنذاك جافًا؛ مما دفع الإنسان والحيوان للبحث عن الماء بشاطئ الروضة الغربي، ثم قام كافور بحفر قناة تصل خليج بني وائل (القناة التي تصل بين النيل وبركة الحبش)، فاتصل النيل مرة أخرى بشاطئ الفسطاط[٢]. وفي أثناء وزارة الأفضل بن الجيوشي (٤٨٧-٥١٥ هـ /١٠٩٤-١١٢١م) جرى مشروع تنظيف وحفر لإزالة جزيرة الرمال من أمام دار الملك. وربما يشير ذلك إلى جزيرة الصابوني المعروفة الآن بجزيرة الذهب[٣].

ومما يؤكد ترسيب الطمي تدريجيًا على شاطئ الفسطاط، أيضًا، وصف ناصر خسرو لجسر المراكب بين الفسطاط والروضة (ست وثلاثون مركبًا)، مقارنة بثلاثين مركبًا فقط ذكرها الإدريسي لهذا الجسر بعد ذلك بقرنين. وكان الجسر يقع في الطرف الجنوبي للروضة، بالقرب من مقياس النيل، وكان يمر بمدخل قناة الفسطاط؛ حيث لم يكن يحدث هناك ترسيب يُذكر للطمي. وكان ترسيب الطمي يهدد بعض النقاط الأخرى إلى الشمال خاصة رصيف السفن في بستان الجرف (قرب مدخل الخليج، انظر الفصل الأول). وحيث إن هذا الرصيف يعتقد

أنه قد بقى حتى ما قبل سنة ٧٠٠ هـ /١٣٠٠-١٣٠١ م بوقت قليل، فلا بد أنه كان يلقى عمليات تنظيف منتظمة للحفاظ على استخداميته، وكذلك لتسهيل الوصول إلى مرافق ميناء الفسطاط، وضمان جريان الماء إلى الخليج فى وقت الفيضان[٤].

كثيرًا ما تراكم الطمى فى قناة الفسطاط فى العصر الأيوبى، ويشير كليرجيه إلى مرتين منهما وصل الحال فيهما أن أجبر الناس على الذهاب إلى فرع الجيزة للحصول على الماء، وكان ذلك عامى ١١٩٩م و ١٢٠٣م[٥]. وعلى الرغم من أن المصادر التى اعتمد عليها كليرجيه محل نقاش، فإن هذا الوقت كان هو نفسه وقت المجاعة التى وصفها عبد اللطيف البغدادى (٥٩٧- ٥٩٨ هـ /١٢٠١-١٢٠٢م)، عندما كان مقياس النيل نفسه عاليًا وجافًا[٦]. وفى ذلك يقول المقريزى: " ثم إنه لما كان قبل سنة ستمائة تقلص الماء عن ساحل مصر القديمة، وصار فى زمن الاحتراق يقل حتى تصير الطريق إلى المقياس يبسًا. " ويضيف:

> "فلما كان فى سنة ثمان وعشرين وستمائة [١٢٣٠-١٢٣١ م] خاف السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من تباعد البحر عن العمران بمصر فاهتم بحفر البحر من دار الوكالة بمصر إلى صناعة التمر الفاضلية وعمل فيه بنفسه فوافقه على العمل فى ذلك الجم الغفير واستوى فى المساعدة السوقة والأمير وقسط مكان الحفر على الدور بالقاهرة ومصر والروضة والمقياس فاستمر العمل فيه من مستهل شعبان إلى سلخ شوال مدة ثلاثة أشهر حتى صار الماء يحيط بالمقياس وجزيرة الروضة دائمًا بعدما كان عند الزيادة يصير جدولاً رقيقًا فى نيل الروضة فإذا اتصل ببحر بولاق فى شهر أبيب كان ذلك من الأيام المشهورة بمصر. فلما كانت أيام الملك الصالح وعمر قلعة الروضة أراد أن يكون الماء طول السنة كثيرًا فيما دار بالروضة فأخذ فى الاهتمام بذلك وغرق عدة مراكب مملوءة بالحجارة

فى بر الجيزة تجاه باب القنطرة خارج مدينة مصر ومن قبلى جزيـرة الروضة فانعكس الماء وجعل البحر حينئذ يمر قليلاً قليلاً وتكاثر أولاً فأولاً فى بر مصر من دار الملك إلى قريب المقـس وقطـع المنـشأة الفاضلية. قال ابن المتوج عن موضع الجامع الجديد وكان فى الدولة الصالحية يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب رملة تمرغ الناس فيهـا الدواب فى زمن احتراق النيل وجفاف البحر الذى هو أمامها فلما عمر السلطان الملك الصالح قلعة الجزيرة وصار فى كل سنة يحفـر هـذا البحر بجنده ونفسه ويطرح بعض رمله فى هذه البقعة شرع خـواص السلطان فى العمارة على شاطئ هذا البحر[٧].

ثم يشير ابن المتوج بعد ذلك إلى من بنوا أمام موقع الجامع الجديـد وحتـى المدرسة المعزية. ويضيف : " وذكر أن بقعة الجامع الجديد كانت قبـل عمارتـه شونًا للأتبان السلطانية." [٨]

وعلى الإجمال فقد كان طرح النهر بالشاطئ الـشرقى خـلال العـصرين الفاطمى والأيوبى إضافة للأراضى الزراعية بين فم الخليج والمقس. غير أنه نـتج عنه أيضًا أفول نجم ميناء المقس تدريجيًا، وضـرورة التنظيـف المـستمر لقنـاة الفسطاط للحفاظ على قدرة ميناء الفسطاط على العمل وللسماح للنيل بالجريان إلـى الخليج. وفى عهد الملك الصالح، ربما أضيف دافع ثانوى لتنظيـف القنـاة، وهـو رغبته فى عزل قلعة الروضة. وبما أن البناء فى الفسطاط لـم يـتخط دار الملـك جنوبًا ، فلا بد أن خدمات الميناء بالفسطاط فى العصر الأيوبى كانـت مقتـصرة على المنطقة بين تلك النقطة ومدخل الخليج؛ حيث إن الأراضى الجديدة التى نشأت إلى الشمال فى منشأة الفاضل كانت فى الأساس حدائق، بينمـا كانـت المنـاطق الإدارية والتجارية بالفسطاط، قد اعتيد على أن تقام فى القسم الجنوبى منها بمحاذاة شاطئ النيل[٩].

وعلى الرغم من أن النمط العام لجريان النيل فى تلك الفترة أدى إلى تآكل الشاطئ الغربى وترسيب الطمى على الشاطئ الشرقى، فإن هناك مثالين على انهيار فى الشاطئ الشرقى؛ ففى رمضان ٥٨٧ هـ / ١١٩١-١١٩٢ انهارت زريبة جامع المقس بفعل النيل، وكان من المتوجب إعادة بنائها(١٠). ومسجد القاضى الفاضل فى منشأة المهرانى (شمال فم الخليج) دمره الفيضان كما دمر ما حوله من منازل وحدائق، بعد سنة ٦٦٠ هـ /١٢٦١-١١٦٢ م(١١). وباستثناء هذين الحادثين استمر ترسيب الطمى على الشاطئ الشرقى، واستمرت معه الحاجة إلى التنظيف المستمر.

القنوات والبرك الغرينية

كانت القنوات والبرك فى منطقة القاهرة والفسطاط فى العصر الأيوبى تتغذى بشكل مباشر أو غير مباشر من مياه النيل. وكانت تلك البرك الغرينية بين المقطم والنهر تتغذى مباشرة عن طريق قنوات أساسية، أو تتكون فى منخفضات التربة عند ارتفاع منسوب المياه الجوفية. وبينما ظهرت العديد من تلك البرك فى الأراضى الجديدة على الشاطئ الغربى للخليج، كانت هناك بركٌ أخرى، مثل بركة الحبش وبركة الفيل، موجودة بالفعل منذ الفتح الإسلامى لمصر. ومن الصعب أن نجزم بأى البرك كانت موجودة بالفعل على الشاطئ الغربى للخليج خلال العصر الأيوبى، وسوف نشير هنا لما ورد له ذكر منها فى الحوليات فقط(١٢). وحيث إننا قد تناولنا أنماط المنشآت حول بركة الفيل وبركة الحبش والخليج باستفاضة فى الفصل الثالث، فسوف نقتصر هنا على مناقشة عامة للقنوات وما ارتبط بها من برك غرينية، وكذلك على حالات خاصة لم نتناولها فيما قبل.

كانت هناك ثلاث قنوات كبرى (خلجان) تخدم منطقة القاهرة – الفسطاط: خليج بنى وائل، وخليج القاهرة (سوف نطلق عليه فيما بعد الخليج فقط)، وخليج الذكر.

خليج بنى وائل

كان خليج بنى وائل، والذى يجرى إلى الجنوب الشرقى من باب القنطرة بالفسطاط، يروى ثلاث برك غرينية هى: بركة شتا، وبركة الشعيبية، وبركة الحبش. وكان يجرى جنوبًا بشرق من باب القنطرة حيث يدخل أصغر تلك البرك، وهى بركة شتا، ثم يجرى منها الماء عبر جسر إلى بركة الشعيبية، ومنها، عبر قناة قصيرة وجسر آخر، إلى بركة الحبش. وكانت بركة شتا صغيرة نسبيًا، بينما كانت بركة الشعيبية تغطى مساحة أربعة وخمسين فدانًا، وبركة الحبش أكثر من ألف فدان[١٣]. وعلى الرغم من أننا لا نجد ذكرًا لفتح تلك القناة موسميًا (كما كان يحدث فى خليج القاهرة)، فلنا أن نعتقد أنها كانت تعمل أساسًا أيام الفيضان، بما أن بركة الشعيبية وبركة الحبش كانتا تزرعان خلال موسم الجفاف.

خليج القاهرة (الخليج)

كان خليج القاهرة – قناة تراجان القديمة – يمتد، فى العصر الرومانى، حتى البحر الأحمر عند القلزم (السويس). بيد أن تراكم الطمى واعتداءات البدو والناس أوقفت صلاحية هذا الخليج للاستخدام، بالرغم من إعادة إصلاحه واستخدامه أيام خلافة عمر بن الخطاب. بيد أن هذا الخليج تم سده سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١-٧٦٢ م فى عهد الخليفة المنصور خشية استيلاء أحد العلويين الطامحين للخلافة في المدينة على إمدادات الحبوب إلى بغداد، ثم انحرف فم الخليج تدريجيًا

جهة الغرب حتى انتهى به المقام إلى الشمال قليلاً من القاهرة عند المطرية. غير أن الخليج كان ينتهى، فى العصر الأيوبى، على ما يبدو، عند السدير (مدخل وادى طميلة، جنوب شرق الزقازيق)، ومنه تنقل البضائع شرقًا على ظهور الإبل[١٤]. على أننا نتشكك كثيرًا فى القيمة التجارية لهذا الطريق في تلك الفترة، ولكنه كان يلعب دور خزان المياه للقاهرة حيث يمتلئ خلال أشهر الفيضان الثلاثة أو الأربعة، فيقل به عمل السقائين[١٥].

وكان الجسر الأعظم يفصل بركتى الفيل وقارون شرقى الخليج فيما يُعرف الآن بمنطقة السيدة زينب و منطقة بركة الفيل. ويبدو أن البركتين كانتا موجودتين منذ الفتح الإسلامى، ويستمدان مياههما من المياه الجوفية وليس من الخليج مباشرة. وكانت بركة الشقاف على الشاطئ الغربى بالقرب من باب اللوق تحفل بالعديد من المناظر سنة ٦٠٠ هـ /١٢٠٣-١٢٠٤ م. وعلى الرغم من احتمال وجود عدد آخر من البرك المرتبطة بالخليج فى هذا الوقت، فإن كتاب الحوليات لم يذكروا منها شيئًا[١٦]. ويمكننا أن نعتقد أن تلك البرك كانت منخفضة وتجف فى الشتاء والربيع، وكانت مزروعة، على الأقل، جزئيًا.

خليج الذكر

كان خليج الذكر، طبقًا لما ذكره المقريزى، عبارة عن قناة صغيرة تمتد من النيل إلى بركة بطن البقرة (بركة الأزبكية فيما بعد) مباشرة، وكانت تلك البركة فى الأصل بستان المقسى. وعلى الرغم من اضطراب رواية المقريزى نوعًا ما، فمن المعتقد أن القناة الأصلية قد حفرت في عهد كافور الإخشيدى. وفى عهد الخليفة الفاطمى الظاهر تحول البستان إلى بركة بطن البقرة التى كانت قبالة منظرة لؤلؤ، وكانت تستمد الماء من القناة نفسها. وكان خليج الذكر يفتح سنويًا قبل خليج القاهرة، ربما لقربه المباشر من النيل أكثر من خليج القاهرة. وكان ماء النيل يصل إلى تلك

القناة، حسب رواية ابن عبد الظاهر، عن طريق برابخ، كما تمت توسعتها فى عهد الملك الكامل(١٧). ويذكر تاريخ البطاركة أن خليج الذكر دخل فى خليج القاهرة بالفعل سنة ٦٢٣ هـ /١٢٢٦م ، وربما يعنى ذلك أنه كان يجرى عبر منطقة بطن البقرة، ويقف عليه سد بالقرب من باب القنطرة(١٨). وقد جرت على بطن البقرة عدة تغيرات؛ فبعد أن جفت خلال الشدة المستنصرية أقيمت فيها البيوت، وأصبحت منطقة كريهة تُعرف باسم "حارة اللصوص". وخلال خلافة الآمر (٤٩٥-٥٢٤ هـ/ ١١٠١-١١٣٠ م) قام وزيره البطائحى بتدمير المبانى واستغلال المنطقة بإعادة البركة لسابق عهدها ليسيل الماء إليها مرة أخرى من خليج الذكر. وربما ترجع تسمية "بطن البقرة" لتلك الفترة. واستمر هذا الحال، حسب رواية المقريزى، حتى ما بعد سنة ٧٠٠ هـ /١٣٠٠-١٣٠١ م(١٩). وعلى الرغم من افتقارنا إلى مزيد من المعلومات عن تلك البركة فى العصر الأيوبى، يمكننا القول بأن بركة بطن البقرة، والتى كانت تقع فى مكان حدائق الأزبكية حاليًا، كانت عامرة بالمناظر والمتنزهات، وكانت تستغل فى الزراعة بعد انحسار الفيضان.

الجسور

يقتصر ما ورد إلينا عن بناء الجسور واستخداماتها فى القاهرة الأيوبية على جسور للمراكب بين الفسطاط والجيزة، وثلاث قناطر على خليج القاهرة. (وسبق أن تناولنا قناطر الجيزة فى الفصل الثالث) .

جسور المراكب بين الفسطاط والجيزة

كان هناك جسر من المراكب يربط بين الفسطاط والروضة (إلى الشمال مباشرة من مقياس النيل) يرجع، على الأقل، إلى عهد المأمون (١٩٨- ٢١٨ هـ / ٨١٣-٨٣٣ م) ، وأمامه على الشاطئ الغربى للروضة جسر آخر يصلها بالجيزة.

وكانت تلك الجسور تتكون من سلسلة من المراكب المتراصة التى تحمل ممرًا من الألواح الخشبية المكسوة بطبقة من الطمى(٢٠).

وفى عهد الملك العادل، سنة ٦١٤ هـ /١٢١٧-١٢١٨ م أقيم جسر من ثلاثة وخمسين مركبًا (أو أعيدت إقامته) بين الروضة والجيزة، وعين له من يقوم على صيانته وفتحه للملاحة النهرية(٢١). وقد أعاد الملك الصالح إقامة الجزء الواصل بين الفسطاط والروضة عند تشييده لقلعة الروضة، وكان عرضه ثلاث قصبات (حوالى ١١,٥ مترًا). وكذلك أعيدت إقامة الجسر الواصل بين الروضة والجيزة(٢٢). وفى ذلك يقول ابن سعيد:

وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب؛ لأن هذين الجسرين قد احتُرِما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان نجم الدين أيوب(٢٣).

وكان وجود الملك الصالح، آنذاك، يحد من استخدام الجسرين للمرور عبر النهر. وعلينا أن نشير أيضًا إلى أن بعض أقسام الجسرين كان يمكن فصلها بسهولة لتمكين المراكب من عبور النهر طولاً.

قنطرة الموسكى

كانت قنطرة الموسكى (رقم ٨٩، خريطة ٢) تصل بين الخليج والسور الغربى للقاهرة، وهو الموضع الذى يقع فيه حاليًا تقاطع شارعى الموسكى وبور سعيد. وقد أقام تلك القنطرة الأمير عز الدين موسك (أحد أقارب صلاح الدين)، والذى توفى فى دمشق سنة ٥٨٤ هـ /١١٨٨-١١٨٩ م(٢٤).

قنطرة باب الخرق

وتقع فى موضع ميدان باب الخرق حاليًا. وكانت قنطرة باب الخرق (رقم ٨٨، خريطة ٢) هذه تعبر الخليج عند نقطة كانت تستخدم وردًا لسقائى القاهرة فى

العصر الفاطمى. "فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب الميدان السلطانى بأرض اللوق وعمر به المناظر فى سنة تسع وثلاثين وستمائة [١٢٤١-١٢٤٢ م] أنشأ هذه القنطرة ليُمَر عليها إلى الميدان المذكور." [٢٥] وقد أصبحت هذه القنطـرة محـور طريق يجرى من الغرب إلى الشرق ليصل بين ميدان اللوق وأراضـيه الغرينيـة، وباب زويلة والأقسام الجنوبية من القاهرة.

قنطرة السد

أقيمت قنطرة السد هذه عند، أو بالقرب من، السد الذى يسد فم الخليج. وكان هذا الموضع يقع، فى أيام الملك الصالح، فى الأراضى الغرينية الجديدة المتاخمـة لبستان الخشاب (يقع هذا الموضع حاليًا فى شارع السد، عند منتصف المسافة بين فم الخليج وميدان السيدة زينب). وكان البدء فى بناء تلك القنطرة، ذات العقدين فى عهد الملك الصالح سنة ٦٣٨ هـ /١٢٤٠- ١٢٤١ م، وتقع فى موضـع قنطـرة الغير (كذا) فى خريطة نابليون سنة ١٧٩٨[٢٦].

تخزين المياه وتوزيعها

كان هناك عدد من الصهاريج وقنوات توزيع المياه فى العصر الأيوبى.

عين عرفة

يحمل نقش يرجع لسنة ٥٩٤ هـ /١١٩٧-١١٩٨ م أمرًا (يعتقد أنه صـادر من الخليفة الناصر) ببناء عين عرفة والصهاريج حولها، وهو موجه لمظفر الـدين قفبرى. غير أن موضع تلك العين بالقاهرة غير مؤكد[٢٧].

قرة ميدان

شهد الميدان الواقع أسفل القلعة عددًا من المشروعات المائية المهمة خلال الفترة المتأخرة من العصر الأيوبي. يقول ابن عبد الظاهر:

> بنى الملك الكامل بن العادل بن أيوب هذا الميدان تحت القلعة حين سكنها، وأجرى السواقي النقالات من النيل إليه، وعمر إلى جانبه ثلاث برك تملأ لسقيه، ثم تعطل في أيامه مدةً، ثم اهتم به الملك العادل ولده، ثم اهتم به الصالح نجم الدين أيوب اهتمامًا عظيمًا، وجدد له ساقية أخرى، وغرس في جوانبه أشجارًا فصار في نهاية الحسن، فلما توفي الصالح تلاشى حاله إلى أن هدم في سنة خمسين وستمائة [١٢٥٢ – ١٢٥٣ م]، أو سنة إحدى وخمسين [١٢٥٣ – ١٢٥٤ م] في الأيام المعزية أيبك التركماني، وهدمت السواقي والقناطر وعفت آثارها، وبقي كذلك حتى عمره السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله، فأحسن عمارته ورصفه أبدع ترصيف، وهو على ذلك إلى الآن." (٢٨)

وقد تعني كلمة "ساقية" قناة ري أو الساقية الدوارة المعروفة. أما السواقي النقالة (من أعمال الملك الكامل) فربما تشير لنوع من القنوات – ربما مرتفعة – تجري من النيل إلى الميدان لتسيل الماء إلى البرك الثلاثة. والساقية التي أضافها الملك الكامل ربما كانت إضافة لقناة النيل أو نوعًا من وسائل رفع المياه في الميدان نفسه. وواقعة تدمير المعز أيبك للسواقي والقناطر سنة ٦٥٠ هـ /١٢٥٢–١٢٥٣ م ربما تشير إلى احتمال أنها كانت نوعًا من مجرى العيون تسير من النيل، ربما تشبه ما أقامه فيما بعد الناصر محمد بن قلاوون. غير أن خط سيرها من النيل إلى الرميلة غير مؤكد.

إيراد الماء إلى ضريح الإمام الشافعى

أعاد الملك الكامل سنة ٦٠٧ هـ /١٢١٠-١٢١١ م بناء ضريح الإمام الشافعى وأضاف له قبة وسبيلاً وساقية عند المدخل. "وأجرى الماء من بركة الحبش على حوض السبيل والساقية على باب القبة المذكورة"[٢٩]، وربما استُخدم مجرى عيون أحمد بن طولون، الذى كان يجرى من بركة الحبش إلى عين الصيرة، جزئيًا فى إيصال الماء.

حوض ابن حنس

يقع هذا الحوض (رقم ٩٠، خريطة ٢) إلى الشرق قليلاً من بركة الفيل، متاخمًا لحارة حلب. وكان وقفًا لسعد الدين مسعود، نجل الأمير بدر الدين حنس بن عبد الله. وكان سعد الدين هذا حاجبًا خاصًا فى عهد الملك الصالح. وكان الحوض يستمد ماءه من عين مجاورة مزودة بساقية. وربما كان هذا الحوض مخصصًا لسقيا الحيوانات، وأقام فوقه [بعلاه] مسجدًا. وربما يعنى ذلك أن المسجد كان ملاصقًا للحوض وليس فوقه، وقد أوقف هذا الحوض سنة ٦٤٧ هـ /١٢٤٩-١٢٥٠ م وهى سنة وفاة سعد الدين، الذى دفن بالقرب من الحوض[٣٠].

الحمامات العامة

عندما درس أندريه ريمون حمامات القاهرة كما وصفها المقريزى، وجد أن شيخنا قد أحصى منها واحدًا وخمسين حمّامًا. بيد أن ريمون أضاف لها سبعة اعتمادًا على مصادر أخرى، ويرى أنها لا بد كانت موجودة أيام المقريزى (تعود الخطط إلى حوالى سنة ٨٢٤ هـ /١٤٢١ م). ومن بين تلك الحمامات الثمانية

والخمسين كان هناك ثمانية وأربعون حمَّامًا في القاهرة، وواحد إلى الغرب قليلاً من القاهرة على الخليج، وتسعة فى المنطقة بين القاهرة وجامع ابن طولون[٣١]. ويهمنا في دراستنا هذه خمسة وعشرون حمَّامًا وصفها المقريزى، وتقع كلها داخل القاهرة، وسبعة أخر فى الفسطاط كان أهم من تناولهم ابن دقماق. ومن بين الحمامات الخمسة والعشرين فى القاهرة (كثيرٌ منها كان مهدمًا في زمن المقريزى)، يعود اثنان للعصر الفاطمى، وعشرة أخرى من العصر الفاطمى، ولكن استمرارها فى العصر الأيوبى موثق، وثلاثة عشر حمَّامًا أنشئت في العصر الأيوبى، وسوف نتناول حمامات الفسطاط بشكل منفصل.

أنشئت معظم الحمامات العامة في القاهرة. وليس أدل على أن تلك الحمامات عانت من تقلبات الأيام اقتصاديًا وسياسيًا من حقيقة أن سبعة وعشرين فقط من الحمَّامات الثمانية والأربعين التى ذكرها المقريزى كانت تعمل في زمانه[٣٢]. ويرى ريمون أن تركز الحمَّامات فى القاهرة فى زمن المقريزى ربما دل على أن معظم السكان كانوا لا يزالون مقيمين داخل الأسوار الفاطمية[٣٣]. ونستطيع أن نقول نفس الشيء على القاهرة قبل ذلك بقرنين من الزمان، إذا ما نظرنا إلى مواقع الحمامات الفاطمية والأيوبية داخل القاهرة، بالإضافة إلى بعض المعلومات الطبوغرافية الأخرى. وتناثرت الحمَّامات حول المساجد والمراكز الإدارية والأسواق، والتى كانت كلها تقريبًا مركزة حول قصبة القاهرة، على الأقل خلال العصر الأيوبى وأوائل المملوكى[٣٤].

وسوف نتناول الحمامات الفاطمية والأيوبية فى القاهرة فى ترتيب زمنى.

العصر الفاطمى

حمّام ابن أبى الدم

ويقع بين سويقة المسعودى وباب الهوا (غرب المنطقة الوسطى بالقــاهرة). وقد أقام هذا الحمّام (رقم ١، خريطة ١) ابن أبى الدم اليهودى، أحد كُتّاب الإنــشاء فى عهد الحاكم(٣٥).

حمّام درى

ويقع فى خط الأكفانيين، ربما جنوب غربى الأزهر. وقد بنى هــذا الحَمّــام (رقم ٢، خــريطة ١) شهاب الدولة درى الصــغير، وكان غلامًا أرمنيًّا للمظفــر ابن أمير الجيوش، وقد توفى الدرى بعد سنة ٥٣٣ هـــ /١١٣٨-١١٣٩ م(٣٦).

الحمّامات الفاطمية الموثق استمرار استخدامها فى العصر الأيوبى

حمّام ابن قرقة

ويقع هذا الحمام (رقم ٣، خريطة ١) فى خط سويقة المسعودى فــى حــارة زويلة بالقرب من مسجد ابن المغربى. وقد أقامه أبو سعيد بن قرقة الحكيم متــولى الاستعمالات بدار الديباج وخزانة السلاح فى العصر الفاطمى. وقد أعدمه الخليفة الحافظ سنة ٥٣٩ هـــ /١١٣٤-١١٣٥ م لخيانته. "ثم عرفت هذه الحمــام فــى الدولة الأيوبية بالأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة... ثــم خربــت هــذه الحمام." (٣٧)

حمّام السلطان

يقول المقريزى:

> هذه الحمام يتوصل إليها الآن من سويقة المسعودى ومن قنطرة الموسكى، وهى من الحمامات القديمة، عرفت فى الدولة الفاطمية بحمام الأوحد ثم عرفت فى الدولة الأيوبية بحمام ابن يحيى، وهو القاضى المفضل هبة الله بن يحيى العدل، ثم عرفت بحمام الطبريسى، ثم هى الآن تعرف بحمام السلطان.

ويقع هذا الحمّام (رقم ٤، خريطة ١) مثل حمّام ابن قرقة فى القسم الغربى الأوسط بالقرب من الخليج[٣٨].

حمّام الجيوشى

> كان هذا الحمّام يقع فى حارة برجوان ... وكان فى الأصل من ممتلكات المظفر بن أمير الجيوش، ثم أصبح بعد نهاية العصر الفاطمى جزءًا من أوقاف الملك العادل التى أوقفها على رباطه الواقع فى خط النخالين فى الفسطاط بمصر... ثم أصابه الدمار سنة ٧٤٠ هـ /١٣٣٩-١٣٤٠ م[٣٩].

كان هذا الحمّام (رقم ٥، خريطة ١) يقع فى قصبة القاهرة إلى الجنوب من جامع الحاكم[٤٠].

حمّام الساباط

كان هذا الحمّام (رقم ٦، خريطة ١) قائمًا بالقرب من مدخل ماريستان قلاوون.

يقول ابن عبد الظاهر: كان فى القصر الصغير باب يعـرف بباب الساباط، كان الخليفة فى العيد يخرج منه إلـى الميـدان [بـين القصرين]..." قلت [المقريزى] حمّام الساباط هذا يُعرف فـى زماننـا بحمام المارستان المنصورى وهو برسم دخول النساء عند بـاب سـر المارستان المنصورى، وهذا الحمام هو حمام القصر الصغير الغربـى ويعرف أيضًا بحمام الصنيمة، فلما زالت دولة الخلفاء الفاطميين مـن القاهرة باعها القاضى مؤيد الدين أبو المنصور محمد بن المنـذر بـن محمد العدل الأنصارى الشافعى وكيل بيت المال فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب للأميـر عـز الـدين أيبـك العزيزى هى وساحات تحاذيها بألف ومائتى دينار فى ذى الحجة سنة تسعين وخمسمائة، ثم باعها الأمير عز الدين أيبك للشيخ أمين الـدين قيمار بن عبد الله الحموى التاجر بألف وستمائة دينار فورثه من بعـده من استحق إرثه ثم اشترى من الورثة نصفها الأمير الفارس صـارم الدين خطلبا الكاملى العادلى فى سنة سبع وثلاثين وسـتمائة [١٢٣٩-١٢٤٠] [انتقلت حصة منها لملك أحد أمراء الظـاهر بيبـرس سـنة ٦٧٨هـ /١٢٧٩-١٢٨٠ م] [٤١].

حمّام تتر

كانت هذه الحمام (رقم ٧، خريطة ١) تقع فى القسم الشمالى الـشرقى مـن القاهرة (الجمالية) فى خط دار الوزارة الكبرى. وكانت هذه الحمام معدة فى الأصل لدار الوزارة (التى أنشأها الأفضل بن بدر الجمالى، انظر الفصل الخامس)، ثم آلت إلى تتر، أحد مماليك أسد الدين شيركوه[٤٢].

حمّام الكويك

كانت هذه الحمام (رقم ٨، خريطة ١) تقع بين حارة زويلة ودرب شمس الدولة (القسم الغربى الأوسط من القاهرة). وقد أنشأها الوزير الفاطمى عباس لداره فى درب شمس الدولة، ثم جددها تاجر يقال له ابن الكويك الربعى التكريتى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨-١٣٤٩ م. ومن غير المؤكد استخدامها فى العصر الأيوبى[٤٣].

حمّام الخشيبة

هذا الحمّام (رقم ٩، خريطة١) كان يقع إلى الغرب من بين القصرين، وكان يُعرف أولاً بحمّام قوام الدولة، ثم أصبح جزءًا من قصر الوزير المأمون بن البطائحى. ثم أصبح هذا القصر جزءًا من المدرسة السيوفية (انظر الفصل السابع) التى أنشأها صلاح الدين. وقد بيع هذا الحمّام ثم أوقف على قبر خوند طغاى أم أنوك بن الملك الناصر محمد بن قلاوون[٤٤].

حمّام الرصاصى

كانت هذه الحمام (رقم ١٠، خريطة ١) بحارة الديلم التى أنشأها الأمير سيف الدين حسين ابن أبى الهيجاء المروانى... وأوقفها هى وجميع الآدر المجاورة لها على أولاده وذريته، فلما زالت الدولة الفاطمية، عرفت بالأمير عز الدين أيبك الرصاصى. وقد أصابها الدمار بعد سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ - ١٣٤٠ م[٤٥].

حمّام القاضى

كانت هذه الحمام (رقم ١١، خريطة ١) تقع إلى الجنوب الغربى من الجامع الأزهر. وقد أنشأها الخصى شهاب الدولة، ثم صارت لملك قاضيين على التوالى هما القاضى سعيد أبى المعالة هبة الله بن فارس، ثم القاضى كمال الدين أبى حامد محمد ابن قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى، ثم باعها ورثة أبى حامد على حصتين لأميرين من أمراء المماليك فى عهد بيبرس البندقدارى[٤٦].

الحمّامات الأيوبية

حمّاما طغريك

كانت هاتان الحمامان (رقمى ١٢، ١٣، خريطة ١) تقعان بالقرب من حارة الوزيرية فى الغرب الأوسط من القاهرة بالقرب من قنطرة الموسكى. وقد أنشأهما الأمير حسام الدين طغريك المهرانى أحد أمراء الأيوبيين[٤٧].

حمّام عُجَينة

كانت هذه الحمام (رقم ١٤، خريطة ١) تقع بخط الأكفانيين، وقد أنشأها الأمير فخر الدين أخو الأمير عز الدين موسك. (عز الدين موسك هذا أحد أقارب صلاح الدين، وقد توفى فى دمشق سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨-١١٨٩ م)[٤٨].

حمّام الفاضل

تقع هذه الحمام (رقم ١٥، خريطة ١) إلى الشمال الشرقى من باب زويلة، وقد مر عليها المقريزى مرور الكرام فى مواعظه. وعلى الرغم من عدم ذكر تاريخ لهذه الحمام، فمن الممكن نسبتها للقاضى الفاضل[٤٩].

حمّام الصوفية

أنشأ هذه الحمام (رقم ١٦، خريطة ١) صلاح الدين لصوفية خانقاة سعيد السعداء ، بالقرب من خانقاة بيبرس الجاشنكير الحالية[٥٠].

حمّام كرجى

تقع حمّام كرجى (رقم ١٧، خريطة ١) قبالة مدخل الخانقاة الصالحية، فى خط خرائب تتر. " وقد عرفت بالأمير علم الدين كرجى الأسدى أحد الأمراء الأسدية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب." [٥١]

حمّام لؤلؤ

هذه الحمام (رقم ١٨، خريطة ١) تقع برأس رحبة الأيدمرى، ملاصقة لدار السنائى، فى القسم الشرقى الأوسط من القاهرة (جنوبى الجمالية). وقد أنشأها الحاجب حسام الدين لؤلؤ (حوالى ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ –١١٩٨ م)، والذى خدم الفاطميين وصلاح الدين[٥٢].

حمّام القفاصين

تقع هذه الحمام (رقم ١٩، خريطة ١) بالقرب من رأس حارة الديلم، إلى الجنوب الغربى من الأزهر مباشرة . وقد أنشأها نجم الدين يوسف بن المجاور وزير الملك العزيز عثمان[٥٣].

حمّام الجوينى

تقع حمام الجوينى هذه (رقم ٢٠، خريطة ١) فى القسم الغربى الأوسط من القاهرة بين حمام ابن الكويك والبندقانيين. وقد أنشأها الأمير عز الدين إبراهيم بن الجوينى (توفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ - ١٢٠٥م)، والى القاهرة فى أيام الملك العادل، وقد أقامها بجوار داره[٥٤].

حمّام ابن عبود

يصف المقريزى هذه الحمام (رقم ٢١، خريطة ١) بأنها من الحمامات القديمة، وكانت (فى الأصل) تعرف بحمام الفلك نسبة للقاضى فلك، وكان قاضيًا فى أيام الملك العادل (موضعها حاليًا فى قلب القاهرة بالقرب من جامع الغورى) [٥٥].

حمّاما السيدة العمة

كان حماما السيدة العمة (رقم ٢٢، ٢٣، خريطة ١) تقعان فى أول حارة الروم، إلى الشمال الشرقى من جامع المؤيد شيخ. يقول المقريزى: "قال ابن عبد الظاهر حمامى الكافى يعرفان بحمامى السيدة العمة، وانتقلتا إلى الكامل بن شاور ثم إلى ورثة الشريف بن ثعلب [أحد أمراء الملك العادل]." [٥٦]

حمّام السلطان

تقع هذه الحمام (رقم ٢٤، خريطة ١) فى القسم الغربى الأوسط من القاهرة، بالقرب من قنطرة الموسكى وحمام ابن قرقة. وقد أنشأها الأمير فخر الدين عثمان ابن قزل أستادار الملك الكامل[٥٧].

حمّام ابن علكان

> كانت هذه الحمام (رقم ٢٥، خريطة ١) قائمة فى حارة الجودرية فى القسم الجنوبى الأوسط من القاهرة. "أنشأها الأمير شجاع الدين عثمان بن علكان صهر الأمير الكبير فخر الدين عثمان بن قزل. ثم انتقلت إلى الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الصالحى النجمى."[٥٨]

عندما قمت بمقارنة مواضع الحمامات التى أنشئت فى القاهرة فى العصرين الفاطمى والأيوبى لم ألحظ نمطًا أو تخطيطًا خاصًا، اللهم إلا ما ذكرته آنفًا من أن الحمامات تميل للقرب من مناطق المساجد والأسواق. فخلال العصرين الفاطمى والأيوبى نجد أن الحمامات، بالرغم من تركزها فى القسم الأوسط من القاهرة (الأزهر، المشهد الحسينى، مناطق الأسواق المحيطة ببين القصرين)، فإنها تناثرت أيضًا فى المناطق الأخرى. ومنطقة بين القصرين نفسها، والتى كانت ساحة مواكب واحتفالات فى الأصل، كانت خلوًا نسبيًا من المبانى حتى نهاية العصر الفاطمى.

الحمّامات الأيوبية فى الفسطاط

كانت الحمّامات الأيوبية فى الفسطاط، مثلها فى ذلك مثل كل الأنشطة الأخرى، محصورة فى الشريط الضيق نسبيًا على الشاطئ، إلى الغرب من

المناطق المهدمة. ويشير القضاعي (توفى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ -١٠٦٣ م) إلى أن الفسطاط كان بها ١١٧٠ حمَّامًا. وعلى الرغم من أن تلك الفترة كانت أوج فترة ازدهار العاصمة التجارية القديمة، فإننا نتشكك في هذا الرقم. ربما يكون الرقم الذى أورده ابن المتوج (٦٣٩ - ٧٣٠ هـ / ١٢٤١ - ١٣٣٠ م) أكثر واقعية؛ فهو يذكر أن الفسطاط (على تقلص مساحتها) كان بها أكثر من سبعين حمَّامًا بقليل. ويذكر ابن عبد الظاهر (٦٢٠ - ٦٩٢ هـ / ١٢٢٣ - ١٢٩٢ م) أن عدد حمَّامات القاهرة فى نهاية سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ - ١٢٨٧ م كان يقرب من ثمانين حمَّامًا. هذا التقارب فى الأرقام بين المنطقتين - القاهرة الممتدة نوعًا ما مقارنة بالفسطاط الصغيرة- نراه يتكرر بعد ذلك بقرن ونصف، حيث نجد وصفي ابن دقماق والمقريزى المتعاصرين تقريبًا يعطيان رقمين متقاربين، حيث يصف المقريزى نحوًا من واحد وخمسين حمَّامًا، بينما يورد ابن دقماق ذكر خمسة وأربعين حمَّامًا فى الفسطاط. هذا التفاوت النسبى فى عدد الحمامات، يمكن أن يعزى لعوامل ثلاثة، أولها استمرار حمَّامات كانت قائمة بالفعل فى الفسطاط، بعضها يسبق حتى العصر الفاطمى، وثانيها، إقامة حمامات حول المراكز الدينية الكبرى (جامع عمرو لازال يحتفظ بقدسية كبيرة)، وعدد من المدارس والمساجد التى أقيمت فى العصر الأيوبى وأوائل العصر المملوكى، والمركز الدينى القبطى والمتمثل فى قصر الشمع، وثالث هذه العوامل استمرار الأسواق والمرافق والمراكز التجارية والإدارية فى الفسطاط فى عملها إبان العصر الأيوبى وحتى العصر المملوكى. ومن الجدير بالذكر أيضًا فى هذا المقام أن هناك أحد عشر حمامًا أخرى ملحقة بالقصور والدور الكبيرة وصفها ابن دقماق إلى جانب الحمامات العامة الخمسة والأربعين التى ذكرها.ويقتصر وصف المقريزى على الحمامات العامة أو الحمامات الخاصة التى أصبحت عامة من خلال وقفها[٥٩].

وعلى النقيض من وصف المقريزى للقاهرة، يصعب تحديـد أى حمّامـات الفسطاط كان مستخدمًا فى العصر الفاطمى دون بحث بيوجرافى مكثف؛ فبعـضها يشار إلى أنه يرجع إلى فترة الفتح الإسلامى. غير أن اسـتمرارها، بـل وحتـى وجودها، فى زمن ابن دقماق (٧٥٠ - ٨٠٩ هـ / ١٣٤٩ - ١٤٠٦م) محـل شك. وحتى تظهر تلك الدراسة الكاملة عن حمّامات الفـسطاط، لـيس أمامنـا إلا التركيز على الحمّامات السبعة الثابت نسبتها إلى العصر الأيوبى.

حمّام بقبة الإمام الشافعى

طبقًا لما ذكره ابن جبير، الذى زار القاهرة سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣م، فقـد كان هناك حمّام ملحق بمدرسة الإمام الشافعى، وكان صلاح الدين هو الذى أنـشأه بالقرافة[٦٠].

حمّام الذهب

كان هذا الحمّام يقع بجوار مدرسة منازل العز بالقرب من باب القنطرة. وقد أوقفها على تلك المدرسة تقى الدين عمر حاكم الأيوبيين على حماة[٦١].

حمّام الكعكى

كانت حمام الكعكى (رقم ١٠٥، خريطة ٣) تقع إلى الشمال الـشرقى مـن قصر الشمع بدار محبس بنانة. وكانت بهذا الموضع حمّامان قبل العصر الفـاطمى ذكرهما ابن دقماق باسم حمام الكعكى وحمام التكارزة، ويشتركان فى سور وفسقية بينهما. وقد أوقف حمام الكعكى على البيمارستان القديم الصلاحى[٦٢].

حمّام السيدة

أشار ابن دقماق في موضع واحد من مؤلفه إلى أن هذه الحمام (رقم ١٠٦، خريطة ٣) تقع بالقرب من الركن الشمالي الشرقي لقصر الشمع، وأنها كانت من بين الأوقاف التي أوقفت على خزانة السلاح، والمعتقد أنها كانت بالقاهرة. غير أنه أشار في موضع آخر إلى أنها كانت تقع في حبس بنانة، في إشارة شبه مؤكدة إلى نفس البناء. وقد آلت هذه الحمام التي ترجع إلى أوائل العصر الإسلامي إلى أملاك السيدة العمة، وهي إحدى الشخصيات التي ترجع إلى أواخر العصر الفاطمي أو أوائل العصر الأيوبي، وأنشأت حمّامات في القسم الجنوبي من القاهرة[٦٣].

حمّام بالممصوصة

هذه الحمام (رقم ١٠٧، خريطة٣) "أنشأها الفائزي ثم آلت من بعده لآخرين."[٦٤] وربما يشير ابن دقماق في ذلك إلى شرف الدين الفائزي الذي أسس المدرسة الفائزية في الفسطاط قبل أن يتقلد الوزارة سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨-١٢٣٩ م.[٦٥] ويقع خط الممصوصة هذا إلى الشرق مباشرة من قصر الشمع[٦٦].

حمّام الفائزي

تقع هذه الحمام، حسب ما ذكره ابن دقماق "بين بوابتي القنطرة. وقد أنشأها الوزير شرف الدين بن الفائزي وأوقفها على مدرسته."[٦٧]

حمّام ابن أبي الحوافر

يقول المقريزي: "هذه الحمام خارج مدينة مصر[الفسطاط] بجوار الجامع الجديد الناصري، كان موضعها وما حولها عامرًا بماء النيل ثم انحسر عنه الماء

وصار جزيرة فبنى الناس عليها بعد الخمسمائة من سنى الهجـرة [١١٠٦-١١٠٧م]، وعرفت هذه الحمّام بالقاضى فتح الدين ... بن أبى الحوافر رئيس الأطباء بـديار مصر. ومات... سنة سبع وخمسين وستمائة [١٢٥٨-١٢٥٩ م] ودفن بالقرافة(٦٨).
وكان الجامع الجديد يقع إلى الجنوب من فم الخليج بالقرب من برج مجرى العيون الذى أنشأه الغورى(٦٩).

موارد الماء واستخداماته

كانت مياه الشرب فى القاهرة والفسطاط تجلب مباشرة من النيل، مع استثناء بالنسبة للقاهرة فى الفترة التى كان يجرى فيها الماء فى الخليج (عادة لنحو ثلاثـة أشهر بعد فتحه في وقت الفيضان). وكان الاستخدام الوحيد للقنوات التى تجرى من النيل مباشرة هو ملء برك متنزهات الملك الصالح في الرميلة. بيد أنه كان هناك، كما وصفنا في السابق، عدد من القنوات التى تربط بين النيل والبرك الغربنية، كما أن الماء كان يجرى مباشرة من بركة الحبش إلى مجموعة ضريح ومدرسة الإمام الشافعى. على أن مياه الشرب كانت تجلب، في معظمها، إلى القاهرة عن طريـق السقائين الذين كانوا يستعينون أحيانًا بالجمال أو الحمير لحمل الماء. فمـع تحـول الخليج بعد أشهر جريانه الثلاثة، إلى سلسلة من برك المياه الراكدة، وجفاف البرك الغربنية، لم يكن هناك من مصدر آخر للماء سوى بعض الآبـار، والتـى كانـت مياهها مالحة، وبالتالى فالماء الصالح للشرب كان هو الماء الجارى فقط(٧٠). وكان استخدام مياه الآبار في القاهرة مقتصرًا فى العادة على الغسل (وليس الاسـتحمام) ورى الحدائق والحيوانات(٧١).

أحوال الصحة العامة ونوعية المياه

تعرضنا في الفصلين الأول والثالث لوصف ظروف الحياة في القاهرة والفسطاط في العصرين الفاطمي والأيوبي، خاصة في روايات المقدسي وابن رضوان وعبد اللطيف البغدادي وابن سعيد. وقد كانت أحوال الصحة العامة في المنطقتين تتسم بالسوء بوجه عام نظرًا للتكدس السكاني وعدم رفع القاذورات والقمامة، والأدخنة والأبخرة، وتلوث موارد المياه بمياه المراحيض. وعلى الرغم من إشارة ابن رضوان والبغدادي (حوالي ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨-١٠٤٩ م و ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠-١٢٠١ م على الترتيب) إلى أن المراحيض كانت تصرف مباشرة في النيل[٧٢]، فإن هذا الوضع كان يخفف من وطأته، نوعًا ما، عاملان : أولهما أن بعد القاهرة عن النيل من شأنه أن ينأى بجريان المخلفات إليه (ولكن ليس إلى الخليج والعديد من البرك الغربية)، وثانيهما أن المراحيض، كما أثبتت الحفائر الأثرية في الفسطاط، كانت تصرف مخلفاتها في آبار صرف خاصة تتراوح أعماقها بين ٣ و ١١ مترًا. وكانت المخلفات تختلط بالرمال في باطن الأرض، وعندما يمتلئ البئر كان يتم نزحه، ليعاد استخدامه من جديد. ومع ذلك، فقد كانت مياه الشرب ملوثة؛ لأن بعض مجاري الصرف الصحي كانت تصب، بالتأكيد، مباشرة في النيل، وربما كانت المخلفات التي تنزح من آبار الصرف يلقى بها إلى النهر أيضًا، وأخيرًا، لا بد أن تربة الفسطاط كانت تسمح، بطبيعتها، برشح مخلفات الصرف إلى النهر؛ حيث إن تلك الآبار كانت في معظمها تحت مستوى المياه الجوفية. وكان السقائون في القاهرة عندما يجلبون الماء من شاطئ النهر الشرقي أو من الخليج عند امتلائه، إنما يجلبون مياهًا تلوثت بالفعل عند الفسطاط. باختصار، لم تكن هناك مياه نقية في القاهرة والفسطاط.

المجاعات والأوبئة والزلازل

ارتبطت المجاعات والطاعون فى العصرين الفاطمى والأيوبى بانخفاض النيل، خاصة فى أيام الشدة المستنصرية وعامى ٥٩٧ – ٥٩٨ هـ / ١٢٠١–١٢٠٢ م (كما وصفها البغدادى، انظر الفصل الثالث)، كما أن هناك حالات أخرى وصفها المقريزى في سلوكه فى أحداث عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩–١١٨٠ م.

> وفى صفر، ظهر قدام المقياس بمصر وسط النيل الحائط الذى كان فى جوفه قبر يوسف الصديق وتابوته، ولم ينكشف قط منذ نقله موسى عليه السلام إلى حينئذ، عند نقصان الماء فى قاع المقياس، فإن الرمل انكشف عنه وظهر للناس، وأكثر الناس ما علموا ما هو...وفيها [أى نفس السنة] فشا الموت بمصر والقاهرة وعامة أعمال مصر، وتغيرت رائحة الهواء، ومات بالقاهرة ومصر فى أيام يسيرة سبعة عشر ألف إنسان[٧٣].

وعلى الرغم من أن تحديد ما إذا كان ما انكشف هو قبر يوسف عليه السلام أم لا أمر يقبل النقاش، فإن اقتران انخفاض النيل بالوباء واضح هنا بجلاء.

وفى عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ – ١٢١٢ م ضرب زلزال شديد البلاد، وشعر به سكان الأردن والشام أيضًا فدمر العديد من الدور فى القاهرة والفسطاط[٧٤]. وشهد عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ – ١٢٣٦ م وباءً شديدًا تفشى فى مصر واستمر ثلاثة أشهر، أهلك فيها ١٢٠٠٠ نفس فى القاهرة والفسطاط. على أن هذا الوباء لم يعرف اقترانه بانخفاض النيل[٧٥].

ملخص

كما اعتمدت موارد المياه في القاهرة على النيل، اعتمدت المدينة نفسها عليه أيضًا. وكانت للقدرة على السيطرة على تدفق ونوعية المياه نتائج مختلفة؛ فعلى الرغم من المحاولات المتكررة للسيطرة على ترسيب الطمى على شاطئ الفسطاط، ظلت أعمال التنظيف ضرورة مستمرة خلال الفترة المتأخرة من العصور الوسطى. وتوقف المقس عمليًا عن لعب دور الميناء بعد أن سدته رمال جزيرتى الفيل وبولاق، في القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى.

كانت مياه الشرب ترد إلى الأحياء الداخلية من القاهرة عن طريق السقائين الذين كانوا يجلبونها من النيل مباشرة، باستثناء الشهرين أو الثلاثة التى كانت تعقب فتح الخليج؛ حيث كان الماء يجلب منه. وكانت الاستخدامات الأخرى للمياه تعتمد على الآبار التى كانت في معظمها ضحلة ومالحة وملوثة من المصارف المجاورة لها. أما مياه الحمّامات التى امتدحها عبد اللطيف البغدادى، فربما كانت ترد عن طريق السقائين أيضًا؛ حيث إنه يشير إلى أن كل حوض من أحواضها كان قادرًا على احتواء ما بين قربتين إلى أربع قرب، في إشارة مؤكدة إلى القرب التى كانت تحمل على ظهور الجمال أو الحمير[٧٦].

كانت هناك ثلاث قنوات رئيسية تجرى من النيل إلى القاهرة والفسطاط وهى: خليج القاهرة، والذى كان مورد مياه رئيسى خلال ارتفاع النيل في العصر الأيوبى، وقناتا الذكر وبنى وائل، اللتان كانتا تغذيان البرك الغرينية. وكانت البرك الغرينية – والتى كان بعضها يعتمد على المياه الجوفية فقط – تلعب دور خزانات المياه خلال ارتفاع النيل، بل كانت موضعًا للعديد من المتنزهات والجواسق. ومع انخفاض النيل في أواخر الخريف والشتاء تتحول تلك البرك إلى مستنقعات مياه راكدة، وفى بعض الحالات – فيما يتعلق ببركتى الأزبكية والحبش تحديدًا – كان جفاف البركة يسمح بزراعة بعض المحاصيل.

على الرغم من اكتشاف نظام مواسير واحد على الأقل (منخفض القدرة) في الفسطاط، فإن الماء كان يجلب إلى المدينة عن طريق السقائين. وفي العصر الأيوبي، ومع تقلص مساحة الفسطاط لتصل فقط إلى منطقة غرب جامع عمرو صغرت أيضًا مسافة نقل المياه من النيل. وكانت هناك أنظمة نقل أو تسيير مياه أخرى (يعتقد أنها كانت تجرى فوق الأرض) تمتد من بركة الحبش إلى ضريح الإمام الشافعي ومن النيل إلى الرميلة. وكانت هذه الأنظمة من أعمال الملك الكامل، وكانت تمد مرافق دينية وترفيهية قليلة بالمياه. ويبدو أنه لم تكن هناك أنظمة نقل مياه أخرى عاملة في العصر الأيوبي؛ إذ إن أول نظام لنقلها إلى القلعة، وهو سور مجرى العيون، أقيم في عهد الناصر محمد بن قلاوون. ولم ينشئ الأيوبيون أية أنظمة نقل مياه سواء لخدمة القلعة أو لخدمة الناس.

وعلى الرغم من كثافة أنظمة الصرف الصحى التى كانت قائمة أيام الفاطميين في الفسطاط، ويعتقد أنها استمرت أيام الأيوبيين، فإن الصرف – المباشر أو من خلال الترشيح – إلى النيل أدى إلى تلوث موارد المياه للفسطاط والقاهرة على حد سواء، وأدى إلى الإضرار بالصحة العامة على نحو يومي، بل وإلى انتشار الأوبئة التى كانت تتفشى فى السنوات التى ينخفض فيها منسوب مياه النيل بشكل غير معتاد.

الهوامش

(١) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٣٤٣ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٤ .

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٤ .

(٤) المصدر السابق، صص ١٩٦-١٩٧ .

(٥) Clerget, vol. 1, p. 25

(٦) 'Abd al-Latif al-Baghdadi, p 374

(٧) المقريزى، المواعظ، ج ١، صص ٣٤٤-٣٤٥ .

(٨) المصدر السابق، ص ٣٤٥ .

(٩) المصدر السابق، ص ٣٤٧ .

(١٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٣ .

(١١) المصدر السابق، ج ١، صص ٣٤٥-٣٤٦ .

(١٢) Clerget, vol.1, pp. 24-31; Description de l'Egypte: Etat Moderne, vol.1, plate 26

(١٣) المقريزي، المواعظ، ج ٢، صص ١٥٣ر١٥٦-١٥٩ح ابن دقماق، ج ٤، ص ٥٦ .

(١٤) Clerget, vol.2, pp. 176-78; Abu Salih, pp. 171-73؛ ابن دقماق، ج ٤، ص ١٢٠ .

(١٥) Clerget, vol.2, pp. 65-66

(١٦) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٦٢ .

(١٧) المصدر السابق، صص ١٤٤، ١٦٣ .

(١٨) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ١، صص ٤٦-٤٧ .

(١٩) المقريزي، المواعظ ج ٢، ص ١٦٢ .

(٢٠) المصر السابق، ص ١٧٠ .

(٢١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ١، صص ١٨-١٩ .

(٢٢) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٨٣؛ تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ٢، ص ١٣٧ .

(٢٣) المقريزي، المواعظ ج ٢، ص ١٧٠ .

(٢٤) المصدر السابق، ص ١٤٧ .

(٢٥) المصدر السابق.

(٢٦) المصدر السابق، ص ١٤٦؛ Suluk, Blochet, vol.10, p. 343; Description de l'Egypte: Etat Moderne, vol. 1, plate 26, Y-14

(٢٧) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, vol. 9, 1937, p 6

(٢٨) القلقشندي ج ٣، صص ٣٧٣-٣٧٤ .

(٢٩) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٣ .

(٣٠) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٣٣؛ Salmon, plate 2

(٣١) Raymond, "Bains", pp 353-55

(٣٢) Ibid.

(٣٣) Ibid., p 356

(٣٤) Ibid., p 357

(٣٥) Ibid., p 350: المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٠ .

(٣٦) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨١؛ Raymond. "Bains", p 348

(٣٧) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨١ .

(٣٨) المصدر السابق؛ Raymond. "Bains", p 349

(٣٩) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٢ .

(٤٠) Raymond. "Bains", p 349

(٤١) Ibid., p 351؛ المقريزي، المواعظ، ج، ص ٨٠ .

(٤٢) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٠؛ Raymond. "Bains", p. 353

(٤٣) المقريزي، المواعظ، ج ٢، صص ٨٣-٨٤؛ Raymond. "Bains", p. 350

(٤٤) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٣، ٣٦٥؛ Raymond. "Bains", p 349

(٤٥) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٢؛ Raymond. "Bains", p 351

(٤٦) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٣؛ Raymond. "Bains", p 351

(٤٧) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨١؛ Raymond. "Bains", p 353

(٤٨) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨١؛ Raymond. "Bains", p 353

(٤٩) المقريزي، المواعظ، ج ١، ص ٣٧٣؛ Raymond. "Bains", p 349

(٥٠) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٥؛ Raymond. "Bains", p 352

(٥١) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٠؛ Raymond. "Bains", p 350

(٥٢) المقريزي، المواعظ، ج ٢، صص ٨٥-٨٦؛ Raymond. "Bains", p 351

(٥٣) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٤؛ Raymond. "Bains", p 351

(٥٤) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٤؛ Raymond. "Bains", p 349

(٥٥) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨١؛ Raymond. "Bains", p 350

(٥٦) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٠؛ Raymond. "Bains", p 352

(٥٧) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨١؛ Raymond. "Bains", p 352

(٥٨) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٣؛ Raymond. "Bains", p 351

(٥٩) المقريزي، المواعظ، ج ٢، صص ٧٩-٨٦؛ ابن دقماق، ج ٤، صص ١٠٤-١٠٧ .

(٦٠) Ibn Jubayr, Travels, p 40

(٦١) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٤؛ ابن دقماق، ج ٤، ص ١٠٤ .

(٦٢) ابن دقماق، ج ٤، صص ١٠٤، ١٠٦ .

(٦٣) المصدر السابق؛ Casaova. "Foustat", pp 20-21, 26

(٦٤) ابن دقماق، ج ٤، ص ١٠٤ .

(٦٥) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٥ .

(٦٦) Casaova. "Foustat", pp 12-13

(٦٧) ابن دقماق، ج ٤، ص ١٠٤ .

(٦٨) المقريزي، المواعظ، ج ٢، ص ٨٥ .

(٦٩) Casaova. "Foustat", p 78

(٧٠) Raymond. "Porteurs d'Eau", pp 183-202

(٧١) Ibid., p 184

(٧٢) المقريزي، المواعظ، ج ١، صص ٣٣٩-٤٤٠؛ 'Abd al-Latif al-Baghdadi, p 295

(٧٣) المقريزى، السلوك، ج ١ (هذا الهامش تصحيح من المترجم؛ حيث إن المؤلف قد ذكر هاهنا "المقريزى، الخطط" خطأ؛ إذ إن هذا النص ورد في السلوك وليس في الخطط، ولا نحسبه إلا سهواً من المؤلف؛ حيث إنه ذكر قبل إيراد هذا الاقتباس مباشرة أن ما سيورده جاء في السلوك في أحداث سنة ٥٧٥ هـ).

(٧٤) المصدر السابق، ص ١٧٥ .

(٧٥) المصدر السابق، ص ٢٥٠ .

(٧٦) 'Abd al-Latif al-Baghdadi, pp 297-99

الفصل السابع

المؤسسات الدينية

تمثل التحول الرئيسى الذى أحدثته السياسة الدينية للأيوبيين فى مصر فـــى إعادة المذهب السنى للبلاد بدلاً من المذهب الإسماعيلى الذى كان سائدًا فى عهـــد الفاطميين بوصفه المذهب الرسمى للبلاد. وعلى الرغم من أن تحويل جموع المـــصريين إلى مذهب العلويين لم يصب إلا نجاحًا ظاهريًا على أفضل تقدير؛ فقـــد اســـتهدفت سياسة صلاح الدين - والتى استلهمها من أستاذه نور الدين محمـــود فـــى الـــشام، وسار فيها بمقتضى أوامره - استعادة الولاء للخلافة العباسية فى بغداد. وقد لعبت المدارس دورًا مهمًا فى تنفيذ سياسته هذه.

نشأت المدارس - وهى مؤسسات تعليمية يتمثل دورها الأساسى فى تدريس مذهب أو كثر من المذاهب الأربعة - فى نيسابور، وعرفت فيها بهذا الاسم فـــى عهد السلطان محمود الغزنوى، ثم استخدمها الوزير السلجوقى نظام الملـــك كـــأداة لإعادة تمكين المذهب السنى، ثم قام نور الدين محمود بنشرها فى العراق والـــشام (خاصة فى دمشق وحلب) ليس فقط بهدف مواجهة المذهب الإسماعيلى للحـــشاشين والفاطميين، ولكن أيضًا للدعاية للحرب المقدسة ضد الصليبيين. أما صلاح الـــدين فهو الذى مكّن للمدارس فى مصر لتصبح كيانًا مستقرًا بها[1].

وقد لاحظ لابيدوس Lapidus أنه على الرغم من أن المذهب الشيعى كـــان هو المذهب الرسمى للفاطميين،

فإن المذهبين الشافعي والمالكي ظلا على تواجدٍ في البلاد، وحظيا في بعض الفترات على الأقل، باعترافٍ رسمي؛ حيث عين قضاة من المذهبين. بل ويبدو أن الفاطميين كانوا هم من أدخل سياسة تعيين قاضٍ [وليس قاضي قضاة] لكل مذهب من المذاهب المعترف بها[1].

وبعد وفاة الخليفة الآمر (٥٢٤ هـ /١١٣٠ م) ثار أبوعلى منصور، وهو ابن الأفضل بن بدر الجمالي، واستولى على الوزارة، وحبس الحافظ (الذى سيتولى الخلافة فيما بعد).

وأعلن بمذهب الإمامية والدعوة للإمام المنتظر ...ورتب في سنة خمس وعشرين (٥٢٤ هـ / ١١٣٠-١١٣١ م) أربعة قضاة، اثنان أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي واثنان أحدهما مالكي والآخر شافعي، فحكم كل منهما بمذهبه وورث على مقتضاه ...فلما قُتل في المحرم سنة ست وعشرين (٥٢٦ هـ / ١١٣١ - ١١٣٢ م) عاد الأمر إلى ما كان عليه من مذهب الإسماعيلية وما برح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من دمشق عليها أسد الدين شيركوه وولى وزارة مصر للخليفة العاضد لدين الله... ومات فقام في الوزارة بعده ابن أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في جمادى الأخرة سنة أربع وستين وخمسمائة (مارس ١١٦٩م) وشرع في تغيير الدولة وإزالتها وحجر على العاضد وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها. وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية ومدرسة للفقهاء المالكية، وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي... فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعي، واختفى مذهب الشيعة والإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها.

وكذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر حنفيًا فيه تعصب، فنشر مذهب أبى حنيفة رحمه الله ببلاد الشام، ومنه كثرت الحنفية بمصر وقدم إليها أيضًا عدة من بلاد الشرق وبنى لهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية بالقاهرة، ومازال مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ[٣].

ويضيف المقريزى:

وأما العقائد، فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ....، وشرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر، كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعى من القرافة، والمدرسة الناصرية التى عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر، والمدرسة المعروفة بالقمحية بمصر، وخانكاه سعيد السعداء بالقاهرة، فاستمر الحال على عقيدة الأشعرى بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضًا، لإدخال محمد بن تومرت رأى الأشعرى إليها، حتى إنه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد بحيث إن من خالفه ضرب عنقه، والأمر على ذلك إلى اليوم، ولم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل، ثم اشتهر مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل فى آخرها[٤].

كان المسجد الجامع هو المسجد الرئيس فى المدينة الإسلامية؛ حيث كان ولى الأمر أو من ينوب عنه يلقى فيه خطبة الجمعة. وقد اختلف مدى انتشار هذه المؤسسة وموقعها [فى المدينة] باختلاف المنطقة واتساع دولة الخلافة، كما توقف بشكل كبير على المذهب السائد فى مكان بعينه. والمذهب الشافعى، الذى ساد فى مصر منذ العصر العباسى، لم يكن يسمح إلا بوجود مسجد جامع واحد فى كل بلد،

معتبرًا أن هذا المسجد الجامع يستطيع أن يستوعب كل المصلين. وعلى الرغم من بعض الخروج عن تلك القاعدة، فقد كانت هى النظام السائد بشكل عام فى منطقة الفسطاط خلال العصرين الطولونى والإخشيدى. وقد أشار الإصطخرى (حوالى ٣٤٠ هـ / ٩٥١ - ٩٥٢م) إلى وجود ثلاثة جوامع، هى: جامع عمرو، وجامع ابن طولون، وجامع القرافة. ويمكن اعتبار أن كلاً من هذه الجوامع كان يخدم منطقة بعينها؛ حيث كانت القرافة تعتبر مدينة منفصلة. وعلى ذلك فهى تتسق مع روح - إن لم يكن نص - المذهب الشافعى. ويبدو أن هذا الحال قد استمر فى الفترة المبكرة من العصر الفاطمى. ويعدد ابن حوقل الجوامع التى كانت تقام بها الجمعة سنة ٣٦٧ - ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م فى القاهرة (الأزهر) والروضة والجيزة، بالإضافة إلى الثلاثة المذكورين فى السابق. ويؤيد المقدسى هذه القائمة أيضًا سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ - ٩٨٦ م. وهذه الجوامع الثلاثة الأخرى يمكن اعتبار كل منها قائمًا فى بلد منفصل. وفى عهد الحاكم كانت هناك ثلاثة مساجد جامعة قد أقيمت، وهى جامع الحاكم (الذى بدأه العزيز) وجامع المقس وجامع راشدة[5]. وكان جامع الحاكم فى ذلك الوقت يقع خارج السور الشمالى مباشرة بالقرب من باب الفتوح، وهى منطقة خالية نسبيًا من السكان، ولذلك يصعب اعتباره يخدم منطقة إدارية مستقلة. وينطبق الأمر نفسه أيضًا على جامع راشدة الذى يقع إلى الجنوب من الفسطاط بين قصر الشمع وبركة الحبش، فى منطقة كانت بها فى السابق جبانات للمسيحيين واليهود[6]. أما منطقة المقس فقد كانت قرية قائمة بذاتها وميناء منذ فترة طويلة، فكانت لذلك مجتمعًا قائمًا بذاته. وقد ذكر ناصر خسرو للقاهرة - عند زيارته لها سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م - جوامع سبعة فى الفسطاط وخمسة عشر فى المنطقة بأسرها[7]. وعلى الرغم من أن الرقم الذى ذكره ناصر خسرو وتعيينه لتلك الجوامع لا يصمدان أمام الشك، فمن الواضح أن الفاطميين قد أقاموا، غير مرة، مسجدين جامعين على الأقل فى منطقة واحدة. ويروى ابن عبد الظاهر أنه على الرغم من أن خطبة الجمعة كانت تلقى فى القاهرة أساسًا فى الجامع الأزهر فقد "... استمرت الخطبة فيه [أى الأزهر] حتى بنى الجامع الحاكمى فانتقلت

الخطبة إليه، فإن الخليفة كان يخطب فيه خطبة وفى الجامع الأزهر خطبة، وفى جامع ابن طولون خطبة، وفى جامع مصر [عمرو] خطبة" [٨]. وكان موكب الجمعة الذى يركب فيه الخليفة إلى كل من تلك المساجد الجامعة، بلا شك، على جانب عظيم من الجلال والأبهة.

وعندما اعتلى صلاح الدين عرش السلطنة، تم اتباع المذهب الشافعى فلم تقم الجمعة إلا فى جامع واحد فى كل بلد، على الأقل من الناحية النظرية. وفى ذلك يقول ابن عبد الظاهر:

> وانقطعت الخطبة من الجامع الأزهر لما استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطنة فإنه قلد وظيفة القضاء لقاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس فعمل بمقتضى مذهبه وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد كما هو مذهب الإمام الشافعى، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمى من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من حين استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى أن أعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس[٩].

على أن هناك عددًا من العوامل التى أدت إلى عدم التشدد فى تطبيق تلك القاعدة. فعلى الرغم من أن المذهب الشافعى الذى كانت له السيادة خلال العصر الأيوبى، يمنع بالفعل إلقاء خطبة الجمعة فى أكثر من مسجد جامع فى البلد الواحد، فإنه يفترض، كما أشرنا سابقًا، أن هذا المسجد الجامع يسع جميع المصلين بالبلدة. هذا إلى جانب أن نقل صلاح الدين للخطبة من الجامع الأزهر إلى جامع الحاكم كان يهدف ربما إلى تحقيق هدفين فى آنٍ واحد: أولاً انتزاع مكانة المركز الدينى فى القاهرة من أحد رموز الحكم الفاطمى، وثانيًا استخدام أكبر مساجد المدينة اتساعًا فى ذلك الوقت. ومع ذلك يذكر ابن جبير (٥٧٨ هـ/ ١١٨٣ م) أن القاهرة

كان بها أربعة مساجد جامعة عدا مساجد ابن طولـون وعمـرو والروضـة، وأن الجمعة كانت تقام بها جميعًا فى نفس الوقت[١٠]. ولا بد أن مساجد أخـرى كانـت تستخدم بالفعل فى صلاة الجمعة نظرًا لازدياد عدد سكان القاهرة مع تدفق العامـة عليها فى عهد بدر الجمالى ثم زيادة هذا التدفق أيام صلاح الدين.

المدارس

طبقًا للابيدوس:

> بعد قرنين من الحكم الفاطمى، لم يخلفا إلا بقايا مـن المـدارس السنية التى كانت تعمل فى مصر، وتخلفًا شديدًا عـن بقيـة العـالم الإسلامى فى النظام المؤسسى والحيوية الثقافية، كانت أولـى مهـام الأيوبيين تتمثل فى تكوين الكوادر اللازمة للمؤسسات الدينية القائمـة. ولم تكن السياسة الأيوبية تهدف إلى رعاية كل النشاط الدينى الـسنى، ولكن إلى خلق الأشكال المؤسسة وكوادر تدريس المـذاهب الـسنية. وكانت المدارس الأيوبية قليلة العدد للغاية، وقـد أنـشأها الـسلاطين (ولكن لم ينشئ كل سلاطينهم مدارس)، والأمراء وكبار رجال الدولة، وكانوا يهدفون إلى التحفيز على إنشاء المدارس ووضع إطار عام لها. ولم تستخدم المدارس كل العلماء، ولكنها استخدمت منهم من أنـشئت على مذهبهم. لقد أحسن الأيوبيون استغلال ما كان قائما مـن تنظـيم للمدارس وعلاقتها بالدولة[١١].

ويشير لابيدوس إلى أنه على الرغم من أن صلاح الدين قد أنشأ المـدارس على مذاهب الشافعية والمالكية والأحناف، فقد كان المذهب الشافعي هو السائد بـلا شك، ومنه كان يختار رؤوس القضاة دائمًا. ومن بين القضاة الاثنى عـشر الـذين كانوا يعينون فى العصر الأيوبى، كان ثمانية منهم على الأقل من غير المصريين،

وكان خمسة منهم من المشايخ السابقين بالمدارس الشافعية المختلفة. وقد اختار الأيوبيون الكثير من قضاتهم من بين كبار المشايخ، فأوجدوا بذلك نظامًا ينتقل فيه الطالب من الدراسة إلى التدريس ثم إلى الهيئة القضائية، أى نظامًا مهنيًا يدمج وظيفة القاضى مع مذهبه الفقهى. وكان القاضى بوصفه رأس المذهب يمثل حجر الزاوية فى العلاقة بين المذهب والقضاء فى مفهوم الأيوبيين. وبهذا المعنى، فقد ساعدت السياسة القضائية الأيوبية على تطور المذاهب فى مصر(١٢).

وتجلو لنا رواية المقريزى ما يتعلق بسبق الفاطميين فى إنشاء المدارس بمصر؛ حيث يقول:

وأول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر فى خلافة العزيز بالله نزار بن المعز ووزارة يعقوب بن كلّس فعمل ذلك بالجامع الأزهر ...ثم عمل فى دار الوزير يعقوب بن كلّس مجلس يحضره الفقهاء، فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم، وعمل أيضًا مجلس بجامع عمرو بن العاص من مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير، ثم بنى الحاكم بأمر الله أبو على منصور بن العزيز دار العلم بالقاهرة...فلما انقرضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر، وأقام بها مذهب الإمام الشافعى ومذهب الإمام مالك، واقتدى بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، فإنه بنى بدمشق وحلب وأعمالهما عدة مدارس للشافعية والحنفية، وبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر[الفسطاط]. وأول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضًا ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة، ثم

اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر وبالبلاد الشامية والجزيرة أولاده وأمراؤه... (١٣)

وعلى ذلك فلم تكن المدارس الأيوبية – التى كانت فكرة انتقلت أساسًا من الشام – بغير سابقة فى القاهرة الفاطمية، على الرغم من أنها أنشئت فى عهد الفاطميين بهدف الدعوة للمذهب الإسماعيلى. وبفضل قوة الدفع التى وفرها صلاح الدين، أضحت تلك المدارس وسيلة لإحياء المذهب السنى ومركزًا لتجديد و/أو نشر المذاهب السنية نفسها ومصدرا لتخريج القضاة والعلماء. وسوف نتناول كلاً من تلك المدارس على حدة مع التركيز على موقعها الطوبوغرافى ومؤسسها وظروف تأسيسها والمذاهب التى كانت تدرس بها ومن كان يقوم بالتدريس بها والكيفية التى كانت تتم بها الدراسة.

المدرسة الناصرية (بالفسطاط)

أنشئت المدرسة الناصرية، والتى يُعتقد أنها كانت أول المدارس التى تنشأ بمصر[١٤]، فى الموقع الذى كان يقع فيه سجن يُعرف باسم "حبس المعونة" (انظر الفصل الخامس)، والذى كان – طبقًا للمقريزى – إلى الجنوب من جامع عمرو وقريبًا منه، أو ربما إلى الشرق منه حسب رواية ابن دقماق. وقد قام صلاح الدين بهدم السجن فى الأول من المحرم سنة ٥٦٦ هـ، الموافق للرابع عشر من سبتمبر سنة ١١٧٠ م، وأنشأ مكانه المدرسة التى كُرِّست للمذهب الشافعى. وكان أول من قام بالتدريس فيها ابن زين التجار[*] (توفى سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤ – ١١٩٥ م) ونسبت المدرسة لاسمه بعد أن تغير اسمها من الناصرية، وممن قاموا بالتدريس

(*) ورد الاسم فى النص الإنجليزى خطأ، هكذا : "ابن زين التاجر"، ولكننا أثبتناه فى الترجمة "ابن زين التجار" كما ورد فى المقريزى. (المترجم)

فى تلك المدرسة بعد ذلك ابن قطيطة بن الوزان، وكمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ، والشريف القاضى شمس الدين أبو عبد الله محمد الحنفى قاضى العسكر الأرموى. ويعتقد أنهم قد درسوا بتلك المدرسة على التوالى فى العصر الأيوبى أو ربما بعده بقليل. وقد اتخذت المدرسة اسمها النهائى الذى بقى لها وهو المدرسة الشريفية من الشريف الأرموى. وقد وقف عليها صلاح الدين الصاغة وقرية لم يُعرف اسمها(*).(١٥)

المدرسة القمحية

أقيمت المدرسة القمحية بالقرب من جامع عمرو فى موضع دار الغزل التى كانت سوقا للغزل، قيسارية، ثم هدمها صلاح الدين، وأقام مكانها مدرسة للمالكية، شرع فى بنائها فى النصف الثانى من المحرم(**) سنة ٥٦٦ هـ/ أوائل أكتوبر ١١٧٩ م. وطبقًا للمقريزى فقد رتب فيها صلاح الدين أربعة من المدرسين لكل منهم تلاميذه. وقد ذكر ابن دقماق أربع زوايا، وهو ما يوحى بالتدريس فى أقسام منفصلة فى نفس المنشأة، ربما كان يتم التدريس فيها فى وقت واحد كما كان الحال فى المساجد والمدارس الأخرى. وقد أسهب المقريزى وابن دقماق فى امتداح نوعية التدريس والتلاميذ فى هذه المدرسة. وشملت أوقاف صلاح الدين على تلك المدرسة قيسارية فى سوق الوراقين بالفسطاط وضيعة بالفيوم تسمى الحنبوشية. وكان المدرسون والتلاميذ يتلقون رواتبهم من قمح تلك الضيعة، ومن هنا جاء اسم المدرسة(١٦).

(*) سقط اسم القرية من النسخة التى بين أيدينا من خطط المقريزى، حيث يوجد بياض فى النص مكان اسم القرية. (المترجم)

(**) فى المقريزى: للنصف من المحرم (المترجم)

ويجب أن نشير هنا إلى أن المقريزى قد أورد وصفًا يكاد يتطابق لكل من المدرسة الناصرية بالفسطاط والمدرسة القمحية، فيما يتعلق بإحاطة الخراب بهما، وأنهما لولا مستوى التدريس بهما لدرستا، وهو ما يوحي بأن الخراب كان قد طال المنطقة المحيطة بجامع عمرو منذ عصر صلاح الدين وحتى زمن المقريزى(١٧).

المدرسة الناصرية بالقرافة

يقول المقريزى:

هذه المدرسة بجوار قبة الإمام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه من قرافة مصر أنشأها...صلاح الدين... ورتب بها مدرسًا يدرس الفقه على مذهب الشافعى وجعل له فى كل شهر من المعلوم عن التدريس أربعين دينارًا، معادلة صرف كل دينار ثلاثة عشر درهمًا وثلث درهم وعن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلاً بالمصرى وراويتين من ماء النيل وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة؛ ووقف عليها حمَّامًا بجوارها وفرنًا تجاهها وحوانيت بظاهرها والجزيرة التى يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة [انظر الفصل الثالث]. وولى تدريسها جماعة من الأكابر الأعيان ثم خلت من مدرس ثلاثين سنة واكتفى فيها بالمعيدين(١٨).

ويضيف ابن جبير فى وصفه لضريح الإمام الشافعى:

وبنى بإزائه [أى ضريح الإمام الشافعى] مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام، إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء

فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى. تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى[١٩].

من المحتمل جدًا أن تكون هذه المدرسة قد حظيت بمزيات خاصة وبالاهتمام الشخصى للسلطان، نظرًا لصلتها الشديدة بمؤسس المذهب الذى يتبعه صلاح الدين.

المدرسة القطبية بخط سويقة الصاحب

طبقًا للمقريزى:

هذه المدرسة بالقاهرة فى خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريرى كانت هى والمدرسة السيفية من حقوق دار الديباج التى تقدم ذكرها. وأنشأ هذه المدرسة الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهديانى فى سنة سبعين وخمسمائة [١١٧٤-١١٧٥م] وقفًا على الفقهاء الشافعية. وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين[١٩].

وتقع سويقة الصاحب هذه فى مكان ما إلى الغرب من الأزهر بالقرب من الشاطىء الشرقى للخليج. أما دار الديباج، والتى تقع فى نفس المنطقة، فقد كانت مقرًا للوزير الفاطمى يعقوب بن كلس، واستقر بها من تلاه فى الوزارة حتى بناء دار الوزارة على يد بدر الجمالى. وقد تحول هذا البناء، فيما بعد، إلى مصنع للحرير الديباج، ثم أصابه الدمار بعد نهاية العصر الفاطمى[٢٠]. وقد أقيمت المدرسة القطبية (رقم ٢٦، خريطة ١) فى هذا الموضع أو بالقرب منه، وربما كانت أول مدرسة غير سلطانية تقام بمصر.

المدرسة المقامة بالمشهد الحسينى

أقيم مسجد الحسين [رضى الله عنه] (رقم ٢٨، خريطة ١) فى موقعه الحالى فى عهد الخليفة الحافظ سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ - ١١٥٥ م. ويعتقد أن رأس

الحسين بن على بن أبى طالب قد دفنت فيه، بعد أن نقلها من عسقلان إلى القاهرة الوزير الصالح طلائع بن رُزّيك، الذى خشى عليها من الوقوع فى يد الصليبيين. وكان قصده فى الأصل أن يدفن الرأس الشريف بجامعه الكائن خارج باب زويلة مباشرة، ولكن أهل القصر أصروا على نقل الرأس إلى موضعه الحالى حيث أقيم المشهد لهذا الغرض(٢١).

وفى ذلك يقول المقريزى:

ولما ملك السلطان الملك الناصر جعل به حلقة تدريس وفقهاء وفوضها للفقيه البهاء الدمشقى، وكان يجلس للتدريس عند المحراب الذى الضريح خلفه، فلما وزر معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ بن حموية ورد إليه أمر هذا المشهد بعد أخوته، جمع من أوقافه ما بنى به إيوان التدريس الآن وبيوت الفقهاء العلوية خاصة، واحترق هذا المشهد فى الأيام الصالحية فى سنة بضع وأربعين وستمائة، وكان الأمير جمال الدين بن يعمور نائبًا عن الملك الصالح فى القاهرة وسببه أن أحد خزان الشمع دخل ليأخذ شيئًا فسقطت منه شعلة فوقف الأمير جمال الدين المذكور بنفسه حتى طفىء...

وقال فى كتاب الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبد الرحيم: ومن جملة مبانيه الميضأة قريب مشهد الإمام الحسين بالقاهرة والمسجد والساقية ووقف عليها أراضى قريب الخندق ظاهر القاهرة ووقفها دار جار والانتفاع بهذه المثوبة عظيم(٢٢).

ويركز وصف ابن جبير للمشهد الحسينى على بهاء زخارفه والمشاعر الجياشة التى يشعر بها زائر قبر الشهيد، ولم يرد عنده ذكر لمدرسة. ومن المهم هنا أن نذكر إشارته إلى أن الضريح (والذى يعتقد أنه كانت تعلوه قبة) كانت تلتصق به حجرتان متشابهتان، وأنه كان يدخل إليه من خلال مسجد مزين بنفس

نوع الرخام المزدان به الضريح[٢٤]. وربما كانت تعقد به حلقات للدرس، لتتحـــول المجموعة بذلك إلى الوظيفة الثلاثية التي شاعت فيما بعد في العـــصر المملـــوكي، والمتمثلة في استخدام البناء كمسجد ومدرسة وضريح، كما كان الحال مـــثلاً فـــي مسجد ومدرسة وضريح السلطان حسن. ولا بد لنا من التأكيد هنا على أن المـــشهد الحسيني وقبة الإمام الشافعي كانا حالتين خاصتين بين المدارس حيث كرســـا فـــي الأساس لتبجيل صاحبيهما، واللذين حظيا بمكانة خاصـــة فـــي الإســـلام. وهـــذان الموضعان اللذان كان يُحَج إليهما منذ أجيال طويلة شكّلا نواة رائعة لجهود صلاح الدين لجعل المذهب الشافعي هو المذهب السائد في مصر.

وأخيرًا، هناك مئذنة لازالت قائمة كان قد أنشأها أبو القاسم الـــسكري ســـنة ٦٣٤ هـــ/ ١٢٣٦-١٢٣٧ م، تلك المئذنة والباب الأخضر الملاصق لها، والـــذي يرجع لسنة ٥٤٩ هـــ/ ١١٥٤ – ١١٥٥ م هما كل ما بقي من أواخـــر المنـــشآت الفاطمية – الأيوبية بالموقع[٢٥].

مدرسة ابن الأرسوفي

يقول المقريزي:

> هذه المدرسة كانت بالبزازين التي تجاور خط النخالين بمصر، عرفت بابن الأرسوفي التاجر العسقلاني، وكان بناؤها في سنة سبعين وخمسمائة [١١٧٤- ١١٧٥م] ... مات بمصر في يوم الاثنين حـــادي عـــشر ربيـــع الأول ســـنة ثـــلاث وتـــسعين وخمـــسمائة [١١٩٦ – ١١٩٧م][٢٦].

ويمدنا ابن دقماق بالمزيد من التفاصيل؛ حيث يقول:

تدريسها بالمسجد المعلق ذى البابين بالبزازين المدخول من سفل ساباطه على النخالين. يعرف بإنشاء ابن الأرسوفى... [ويعدد بعضًا من مدرسيه]... والوقف على مصالحه وإمامه وهو المدرس به وعلى الطلبة المشتغلين فيه على مذهب الإمام الشافعي الحوانيت التى بسفله داخل البزازين وداخل الزقاق المسلوك فيه على النخالين...

كذلك اشتملت أوقافه القيسارية الكبرى والقيسارية الصغرى لابن الأرسوفى بالفسطاط(٢٧).

ويرى كازانوفا أن البزازين كانت تقع إلى الغرب مباشرة من جامع عمرو(٢٨). وربما كانت مدرسة ابن الأرسوفى (رقم ١٠٨، خريطة ٣) هى أول مدرسة ينشئها بمصر شخص من خارج دائرة الحكم.

المدرسة السيوفية

يقول المقريزى:

هذه المدرسة بالقاهرة وهى من جملة دار الوزير المأمون البطائحى وقفها السلطان السيد الأجل الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب على الحنفية وقرر فى تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتى ورتب له فى كل شهر أحد عشر دينارًا وباقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم وجعل النظر للجبتى ومن بعده إلى من له النظر فى أمور المسلمين. وعرفت بالمدرسة السيوفية من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها وهى الآن تجاه سوق الصنادقيين وقدوهم القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر، فإنه قال فى كتاب الروضة الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة مدرسة السيوفية

وهى للحنفية وقفها عز الدين فرحشاه قريب صلاح الدين ومـــا أدرى كيف وقع له هذا الوهم فإن كتاب وقفها موجـود قـد وقفـت عليـه ولخصت منه ما ذكرته وفيه أن واقفها الـسلطان صـلاح الـدين... وتاريخ هذا الكتاب تاسع عشر شعبان سنة اثنتين وسبعين وخمـسمائة [٢٠ فبراير ١٧٧١ م]. ووقف على مستحقيها اثنين وثلاثـين حانوتـًا بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحـارة برجـوان... وهـذه المدرسة هى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر وهى باقيـة بأيديهم(٢٩).

وتقع المدرسة السيوفية هذه (رقم ٢٩، خريطة ١) طبقًا لرافيس إلى الشمال قليلاً من مسجد الأشرف برسباى حاليًا، والذى يقع فى شارع المعز عند تقاطعه مع شارع الموسكى(٣٠).

المدرسة التقوية

كانت المدرسة التقوية (رقم ١٠١، خريطة ٣) تقع فى الموضع الذى كان به منازل العز الفاطمية على شاطئ النيل بالفـسطاط، تقريبًـا قبالـة مقيـاس النيـل بالروضة. وكانت تلك المدرسة، طبقًا للمقريزى، تقع بالقرب مـن بـاب القنطـرة (انظر الفصل الثالث). على أن كازانوفا يرى أن كلمة "بالقرب" لا ينبغى أن تؤخـذ بحرفيتها، وأن منشآت أخرى كانت قائمة بين باب القنطرة والمدرسة التقوية، بمـا يوحى بأن هذه المدرسة كانت تقع فى نقطة أبعد إلى الشمال(٣١).

ويقول عنها ابن دقماق:

هذه المدرسة المعروفة بمنازل العز وقفها الملك المظفـر تقـى الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، وهو ابن أخى الـسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب...المعز العبيدى بانى القاهرة بنى هـذه

المنظرة لأخته لما قدمت من المغرب، ولم يكن بمصر مستنزه أحسن منها ولم يكن أمامها من جهة البحر ما يحجبها عن نظر النيل والفضا والخضرة والمقياس ثم تداولها الخلفاء من بعدها نزهة لهم إلى زمن العاضد فكانت معدة لنزهته وخلوته وكان المعز بانيها قد بنى الحمام الذى إلى جانبها...لما استقر ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين بمصر ومات العاضد سير السلطان بطلب والدته وأخوته وأولادهم من الشام وخال السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى حتى مكنهم من التوجه فلما حضروا أنزل ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر فى هذه المنظرة فلما استقر فيها اشتراها جميعها والحمام والإسطبل المجاور للحمام المعروف الآن بفندق النخلة من بيت المال المعمور ثم اشترى بعد ذلك جزيرة الروضة وذلك فى شهر شعبان سنة ست وستين وخمسمائة [٩ أبريل – ٨ مايو ١١٧١ م]...ثم عمر الفندقين اللذين بمصر بخط الملاحين المشهورين بفنادق الكارم والربع المجاور للفندق الصغير، فلما قصد الملك الناصر التوجه إلى البلاد الشامية استناب عنه فى الديار المصرية ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر جد ملوك حماه...ذكر ذلك ابن المتوج فى تاريخ، ثم أن المظفر وقف هذه الدار على فقهاء الشافعية ووقف عليها ما حولها والحمام وعمر الإسطبل فندقًا ووقفه أيضًا عليها ثم سافر إلى عمه الملك الناصر صلاح الدين فملكه حماه. ودرس فى هذه المدرسة قاضى القضاة عماد الدين بن السكرى ثم درس فيها ولده القاضى فخر الدين، ولم يزل الحال على ذلك على أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، فوقع بها لقاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن السنجارى مع المدرسة الشريفية التى بجوار جامع مصر ثم رجع تدريسها إلى أولاد السكرى وهى معهم إلى اليوم(٣٢) .

على أن ترتيب التواريخ التى أوردها ابن دقماق يحتاج إلى مراجعة. فـأبو شامة يقول فى أحداث سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ – ٧١ م:

وفى النصف من شعبان اشترى تقى الدين عمر بن شاهنشاه...منازل العـز بمصر وجعلها مدرسة للشافعية، واشترى الروضة وحمّام الذهب وغيرهمـا مـن الأملاك ووقفها عليها[٣٣].

ويتفق المقريزى عند وصفه للمدرسة* بشكل أساسى مع ابن دقماق؛ حيـث قال أيضًا بسكنى تقى الدين عمر فيها لفترة مـن الـزمن، وذكـر أيـضًا شـراء الممتلكات التى ذكرها ابن دقماق سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠-١١٧١م، وأوردناها فى الفقرة السابقة، وأنه وقف المنازل بوصفها مدرسة عندما هم بالرحيل من مصر إلى الشام[٣٤]. غير أن ابن المتوج (والذى أورد المقريزى روايته) يـذكر أن جزيـرة الروضة قد اشتراها تقى الدين عمر سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ -١١٧١م، وعنـدما حل الملك العزيز مكانه على مصر وقف تقى الدين عمر الروضة بأكملهـا علـى مدرسته بالفسطاط[٣٥].

وقد كان تقى الدين عمر نائبًا لصلاح الدين على مصر فى الفترة بين عامى ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ -١١٨٤م و ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ – ١١٨٧م عندما استدعى إلى الشام، وكان قد حل محل صلاح الدين فى عدة أمور قبل ذلك فى مـصر والـشام، كما أقطعه حماة سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ – ١١٧٩م. وشـراؤه لمنـازل العـز والممتلكات الأخرى التى أوردنا ذكرها سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ – ١١٧١ م أمـر مؤكد نسبيًا، أما تحويله للمنازل إلى مدرسة فى هذا الوقت فهو أمر غيـر مؤكـد، خاصة أن ابن المتوج يذكر أن الروضة لم تكن موقوفة على المدرسة حتى تـرك تقى الدين منصبه كنائب على مصر سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦-١١٨٧ م. وعلى الـرغم من أننا متأكدين من أن تقى الدين ترك مصر لتولى بعض المناصب فى الشام أكثر

(*) ذكرها المقريزى باسم "مدرسة منازل العز". (المترجم)

من مرة، فإن التتابع العام لروايتى المقريزى وابن دقماق يوحى بأن تاريخ تلك الأوقاف كان إبان تولى تقى الدين عمر لمنصب النائب. وعلى ذلك، فالمدرسة التقوية، وبالرغم من التواريخ التى أوردها أبو شامة، ربما لم تنشأ حتى الفترة بين عامى ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ – ١١٨٤ م إلى ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ – ١١٨٧ م، أى بعد نحو ثلاثة عشر عامًا من شراء تقى الدين عمر لها (أى شراؤه لمنازل العز)[٣٦].

المدرسة العاشورية

يقول عنها المقريزى:

> هذه المدرسة (رقم ٣٠، خريطة ١) بحارة زويلة من القاهرة بالقرب من المدرسة القطبية الجديدة ورحبة كوكاى. قال ابن عبد الظاهر، كانت دار اليهودى ابن جميع الطبيب وكان يكتب لقراقوش، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروح الأسدى زوجة الأمير أيازكوج الأسدى ووقفتها على الحنفية وكانت من الدور الحسنة. وقد تلاشت هذه المدرسة وصارت طول الأيام مغلوقة لا تفتح إلا قليلا، فإنها فى زقاق لا يسكنه إلا اليهود ومن يقرب منهم فى النسب[٣٧].

المدرسة الفاضلية

أنشئت مدرسة القاضى الفاضل (رقم ٣١، خريطة ١) فى درب ملوخيا بحارة قائد القواد إلى الشمال الشرقى من القصر الشرقى الفاطمى فيما يُعرف حاليًا بالجمالية[٣٨].

يقول المقريزى:

هذه المدرسة بدرب ملوخيا من القاهرة، بناها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى بجوار داره فى سنة ثمانين وخمسمائة [١١٨٤ – ١١٨٥ م]، ووقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية والمالكية وجعل فيها قاعة للإقراء أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبى ناظم الشاطبية ثم تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبى ثم الشيخ على ابن موسى الدهان وغيرهم، ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامة الإسكندرانى، ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم [انظر خزانة الكتب، الفصل الرابع]...وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها وقد تلاشت لخراب ما حولها(٣٩).

المدرسة الصاحبية

يقول المقريزى:

هذه المدرسة بالقاهرة فى سويقة الصاحب كان موضعها من جملة دار الوزير يعقوب بن كِلِّس ومن جملة دار الديباج أنشأها الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شكر وجعلها وقفًا على المالكية وبها درس نحو وخزانة كتب. ومازالت بيد أولاده فلما كان فى شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة [٢٠ يوليو – ١٧ أغسطس ١٣٥٧ م] جدد عمارتها القاضى علم الدين إبراهيم بن عبد اللطيف بن إبراهيم المعروف بابن الزبير ناظر الدولة فى أيام الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون واستجد فيها منبرًا فصار يصلى بها الجمعة إلى يومنا هذا ولم يكن قبل ذلك بها منبر ولا تصلى فيها الجمعة(٤٠).

وصفى الدين بن شكر هذا (٥٤٨ هـ / ١١٤٨ - ١١٨٩ م إلى ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ - ١٢٢٦ م) كان وزيرًا للعادل، وكان قد خدم صلاح الدين منذ سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٥ - ١١٨٦ م كرئيس لديوان الأسطول ثم استوزره الملك العادل سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ - ١١٩٢م. وعلى الرغم من نفيه سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ - ١٢١٣م بتحريض من الملك الكامل، فقد أعيد إلى الخدمة إبان الحملة الصليبية الخامسة ليحل الأزمة المالية التى ألمت بمصر[٤١]. وتاريخ إنشاء مدرسته(رقم ٣٢، خريطة ١) هذا غير مؤكد، ولكن بالنظر إلى فترات توليه لمناصبه، فتاريخ ٥٩٠ - ٦٠٠ هـ / ١١٩٣ - ١٢٠٤ م يعتبر تاريخًا لا يبعد كثيرًا عن المنطق.

أما سويقة الصاحب فتقع بالقرب من شارع الأزهر الحالى وشارع بين السورين، إلى الشرق مباشرة من الخليج[٤٢].

المدرسة الأزكشية

يقول عنها المقريزى:

> هذه المدرسة بالقاهرة على رأس السوق الذى كان يُعرف بالخرقيين ويُعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش. بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدى مملوك أسد الدين شيركوه وأحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعلها وقفًا على الفقهاء من الحنفية فقط فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة [١١٩٥ - ١١٩٦ م]. وكان أيازكوج رأس الأمراء الأسدية بديار مصر فى أيام السلطان صلاح الدين وأيام ابنه الملك العزيز عثمان وكان الأمير فخر الدين جهاركس رأس الصلاحية ولم يزل على ذلك إلى أن مات فى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة [١٢٠٢ - ١٢٠٣ م] ودفن بسفح المقطم بالقرب من رباط الأمير فخر الدين بن قزل[٤٣].

وتقع سويقة أمير الجيوش إلى الجنوب من باب الفتوح في شارع أمير الجيوش، إلى الغرب مباشرة من شارع المعز لدين الله[٤٤].

المدرسة السيفية

يقول عنها المقريزي:

> هذه المدرسة بالقاهرة فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين وموضعها من جملة دار الديباج. قال ابن عبد الظاهر كانت دارًا وهي من المدرسة القطبية فسكنها شيخ الشيوخ يعني صدر الدين محمد بن حموية وبنيت في وزارة صفي الدين عبد الله بن علي بن شكران سيف الإسلام ووقفها وولي فيها عماد الدين ولد القاضي صدر الدين يعني ابن درباس وسيف الإسلام هذا اسمه طغتكين بن أيوب[٤٥].

لقد أنشئت المدرسة السيفية (رقم ٣٤، خريطة ١) بالإضافة إلى المدرسة القطبية والمدرسة الصاحبية في موضع دار الديباج. وموضع دار الديباج حاليًا عند التقاء شارع الأزهر وشارع بين السورين إلى الشرق مباشرة مما كان في السابق الخليج. وقد أنشئت المدرسة السيفية قبل شوال سنة ٥٩٣ هـ (١٧ أغسطس – ١٥ سبتمبر ١١٩٧م) وهو تاريخ وفاة سيف الدين أيازكوج[٤٦].

مدرسة عز الدين عبد الوهاب

لم يذكر المقريزي هذه المدرسة على أهميتها؛ حيث إنها أول مدرسة حنبلية تنشأ في القاهرة[٤٧]. وكان عبد الوهاب هذا طبيبًا حنبليًا من دمشق، وهو من سلالة أبي الفرج الشيرازي، وصحب أسد الدين شيركوه عند مقدمه إلى القاهرة[٤٨].

ولا نعلم موضع هذه المدرسة ولا تاريخ إنشائها، على أن لابيدوس يجعله بعد وفاة صلاح الدين[٤٩].

المدرسة الغزنوية

يقول عنها المقريزى:

> هذه المدرسة برأس الموضع المعروف بسويقة أمير الجيوش تجاه المدرسة البازكوجية. بناها الأمير حسام الدين قايماز النجمى مملوك نجم الدين أيوب والد الملوك، وأقام بها الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن يوسف بن على بن محمد الغزنوى البغدادى المقرئ الفقيه الحنفي ودرس بها فعرفت به وكان إمامًا فى الفقه وسمع على الحافظ السلفى وغيره وقرأ بنفسه وسكن مصر آخر عمره... ومولده ببغداد فى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة (٥ مارس - ٤ أبريل ١١٢٨ م) وتوفى بالقاهرة يوم الاثنين النصف من ربيع الأول سنة تسع وتسعين وخمسمائة (١٨ نوفمبر - ١٧ ديسمبر ١٢٠٢ م) وهى من مدارس الحنفية[٥٠].

ويؤرخ لين-بول Lane-Poole إنشاء هذه المدرسة (رقم ٣٥، خريطة ١) بفترة الملك المنصور بن العزيز (٥٩٥ - ٥٩٦ هـ / ١١٩٨ - ١٢٠٠ م). ويرى كريزويل أنها أنشئت قبل سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ - ١١٩٩م [٥١]. وعلى الرغم من أن مصادرهما غير مؤكدة، فإن التاريخين لا يبدوان غير منطقيين، إذ إن المقريزى يقول إن الغزنوى أقام بمصر فى أواخر أيامه. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى بعض أوجه الشبه بين المدرستين الغزنوية والأزكشية؛ فكلتاهما بناها أحد أوائل مماليك الأيوبيين؛ حيث خدم أولهما نجم الدين أيوب وثانيهما أسد الدين شيركوه؛

وكلاهما أقيم فى الفترة نفسها، حوالى ٥٩٢ - ٥٩٩ هـ / ١١٩٥ - ١٢٠٣ م فى نفس المنطقة، وكرسا لنفس المذهب وهو المذهب الحنفى.

مدرسة العادل

يقول المقريزى:

> هذه المدرسة بخط الساحل بجوار الربع العادلى من مدينة مصر الذى وقف على الشافعى عمرها الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فدرس بها قاضى القضاة تقى الدين بن شاس فعرفت به وقيل لها مدرسة ابن شاس إلى اليوم وهى عامرة وعرف خطها بالقشاشين وهى للمالكية(٥٢).

ويضيف ابن دقماق أن الربع العادلى كان وقفًا على مصالح قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه. أما كون هذا الربع أيضًا من منشآت الملك العادل فهو أمر غير مؤكد، ولكنه محتمل بالطبع. ويستطرد ابن دقماق قائلاً:

لم يكن بها تدريس، وإنما كانت مسجد قاضى القضاة تقى الدين بن شاس رحمه الله تعالى وإنما ولده أقضى القضاة شرف الدين محمد عمر ربعا بخط الجامع الطولونى بحضرة المسجد الذى كان يجلس للحكم فيه يشتمل على طاحون وفندق داخله مخازن وحوانيت ظاهرة وعلوه طباق فطلبه منه الأمير سلار نائب السلطنة والأمير بيبرس قبل ملكه وبذلوا له مالاً جزيلاً فلم يقبل ووقفه على مدرس يجلس يدرس فى هذا المسجد وطلبة على مذهب الإمام مالك فأول من درس به أقضى القضاة محيى الدين ابن قاضى القضاة زين الدين أبى الحسن بن على بن مخلوف المالكى(٥٣).

إذا ما قارنا بين رواية المقريزى التى تذهب إلى أن قاضى القضاة ابن شاس قد درَّس في هذه المدرسة وبين ما ذهب إليه ابن دقماق من أنها لم تكن إلا مسجدًا لقاضى القضاة، فسنشعر بأن التعريف الدقيق للمدرسة – كمقابل للمسجد – يصبح موضعًا للتساؤل، وكذلك فيمكن الذهاب إلى وجود تضارب فى الروايتين. على أنه من المحتمل أن يكون ابن شاس قد قام بالفعل بالتدريس فى المسجد ثم أصبح مدرسة بمعنى الكلمة، كما يذهب ابن دقماق، بعد أن وقفه ابنه على المذهب المالكى.

وكانت مدرسة العادل (رقم ١٠٩، خريطة ٣) تقع فى مكان ما إلى الغرب مباشرة تقريبًا من جامع عمرو وإلى الجنوب الغربى من دير أبى سيفين. ويعتقد كازانوفا أن القشاشين خطأ، ويقترح أن صحتها إما الشاشيين أو الخشبيين[٥٤].

المدرسة المسرورية

يقول عنها المقريزى:

> هذه المدرسة بالقاهرة داخل درب شمس الدولة دار شمس الخواص مسرور أحد خدَّام القصر فجعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته وأن يوقف الفندق الصغير عليها وكان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام كانت بيده بيعت بعد موته وتولى ذلك القاضى كمال الدين خضر ودرَّس فيها وكان مسرور ممن اختص بالسلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب فقدمه على حلقته ولم يزل مقدمًا على الأيام الكاملية فانقطع إلى الله تعالى ولزم داره إلى أن مات ودفن بالقرافة إلى جانب مسجده وكان له بر وإحسان ومعروف من آثاره بالقاهرة فندق يعرف اليوم بخان مسرور الصغدى وله ربع بالشارع[٥٥].

وقد كانت دار شمس الدولة هذه تُعرف أيام الفاطميين بحارة الأمراء، وكانت تقع إلى الجنوب مباشرة من القصر الغربى الصغير. وبعد استيلاء الأيوبيين على الحكم أصبح هذا الحى مقرًا لشمس الدولة توران شاه، ومن هنا جاء اسمها الأخير هذا. وبما أن المدرسة (رقم ٣٦، خريطة ١) قد مارست وظيفتها بعد وفاة مسرور "فى الأيام الكاملية" فلنا أن نذهب إلى أن ذلك كان بعد تعيين الكامل نائبًا على مصر سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م. ويؤرخ كريزويل تأسيسها بسنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ – ١٢١٤ م، غير أننا لا نعرف مصدره فى ذلك[٥٧].

المدرسة الشريفية

يقول عنها المقريزى:

هذه المدرسة بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة. وقفها الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الدولة فخر الدين ثعلب... أمير الحاج والزائرين وأحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية وتمت[*] فى سنة اثنتى عشرة وستمائة [١٢١٥ – ١٢١٦ م]. وهى من مدارس الفقهاء الشافعية[٥٨].

ويشير المقريزى بعد ذلك إلى أن هذه المدرسة (رقم ٣٧، خريطة ١) كانت دار ابن ثعلب[٥٩]. وعلى ذلك فتاريخ تأسيسها يحتمل أن يكون فى الجزء الأخير من فترة حكم الملك العادل. أما حارة الجودرية فكانت تقع إلى الجنوب من حارة الأمراء، أى إلى الغرب من المدرسة الأشرفية حاليًا[٦٠].

(*) وردت فى الترجمة الإنجليزية "ومات"، ولكن صحتها فى المقريزى "وتمت"، لذلك آثرنا إثبات الكلمة كما أوردها المقريزى. (المترجم)

دار الحديث الكاملية

يقول عنها المقريزى:

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة وتعرف بدار الحديث الكاملية، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة [١٢١٥ – ١٢١٦ م] وهى ثانى دار عملت للحديث، فإن أول من بنى دارًا على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ووقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنشف ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر. وهذا الربع من إنشاء الملك الكامل وكان موضعه من جملة القصر الغربى ثم صار موضعًا يسكنه القماحون وكان موضع المدرسة سوقًا للرقيق ودارًا تُعرف بابن كستول. وأول من ولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على ابن دحية ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن على بن دحية...[ويتوالى سرد من درسوا بها]...وما برحت بيد أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة [١٤٠٠ – ١٤٠١ هـ] فتلاشت كما تلاشى غيرها...واستمر فيها دهرًا لا يدرس بها حتى نسيت أو كادت تنسى دروسها[٦١].

وقد بقى حتى الآن إيوان متهدم من دار الحديث (رقم ٣٨، خريطة ٩) يقع إلى الشمال مباشرة من مسجد السلطان برقوق بشارع المعز لدين الله.

المدرسة الصيرمية

هذه المدرسة [رقم ٣٩، خريطة ١] من داخل باب الجملون الصغير بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش فيما بينها وبين الجامع الحاكى بجوار الزيادة. بناها الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم أحد أمراء الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب، وتوفى فى تاسع عشر صفر سنة ست وثلاثين وستمائة [٢ أكتوبر ١٢٣٨][٦٢].

كانت سويقة أمير الجيوش تقع فيما يعرف حاليًا بشارع أمير الجيوش إلى الجنوب الغربى من جامع الحاكم .

المدرسة الفخرية

يقول عنها المقريزى:

> هذه المدرسة [رقم ٤٠، خريطة ١] بالقاهرة فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس عمرها الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومى أستادار الملك الكامل محمد بن العادل، وكان الفراغ منها فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة [١٢٢٥ – ١٢٢٦ هـ]. وكان موضعها أخيرًا يعرف بدار الأمير حسام الدين ساروح بن أرتق شادّ الدواوين. ومولد الأمير فخر الدين فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة [١١٥٦ – ١١٥٧م] بحلب...فمات بحران... فى ثامن عشر ذى الحجة سنة تسع وعشرين وستمائة [١٢٣١ – ١٢٣٢هـ]... وله من الآثار سوى هذه المدرسة المسجد الذى تجاهها وله أيضًا رباط بالقرافة وإلى جانبه كتاب سبيل وبنى بمكة رباطًا[٦٣].

كانت سويقة الصاحب ودار العدس تقعان فى حارة الوزيرية، أى فيما يعرف حالًيا بالقرب من التقاء شارع الأزهر بشارع بين السورين إلى الشرق مباشرة مما كان الخليج فى السابق(٦٤).

المدرسة الفائزية

حسب رواية المقريزى:

> هذه المدرسة فى مصر بخط [بياض فى النص] أنشأها الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب الفائزى قبل وزارته فى سنة ست وثلاثين وستمائة [١٢٣٨ – ١٢٣٩م]، ودرس بها القاضى محيى الدين عبد الله بن قاضى القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة ثم قاضى القضاة صدر الدين موهوب الجزرى وهى للشافعية(٦٥).

ويكمل ابن دقماق – الذى يؤرخ تأسيس المدرسة بسنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ – ١٢٤٠ م – سرد قائمة من قاموا بالتدريس بالمدرسة حتى العصر المملوكى بالطبع. ومن بين الأوقاف التى وقفت على هذه المدرسة، فيما ذكره ابن دقماق، الحمام المجاور لها ومنزلان علو بعضهما حوانيت سفل ذلك وست حوانيت أخرى وفندق وحكر أرض وزريبة. ويبدو أن هذه الأوقاف كلها كانت داخل الفسطاط أو بالقرب منها. على أن موضع المدرسة لم يذكر فى أى من المصدرين(٦٦).

المدرسة الصالحية

لا تزال واجهة مدرسة الملك الصالح قائمة حتى اليوم (رقم ٤١، خريطة ١) وكذلك قبر الملك الصالح فى شارع المعز لدين الله قبالة مدرسة قلاون. وهذه

المدرسة هى أول مدرسة تُقام فى مصر للمذاهب الأربعة. يقول عنها المقريزى فى خططه:

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقى فبنى فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب هاتين المدرستين فابتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ثالث عشر ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وستمائة [١٥ يونيو ١٢٤٢م] ودك أساس المدارس فى رابع عشر ربيع الآخر سنة أربعين [١٢ أكتوبر ١٢٤٢م] ورتب فيها دروسًا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة إحدى وأربعين وستمائة [١٢٤٣ – ١٢٤٤م]. وهو أول من عمل بديار مصر دروسًا أربعة فى مكان ودخل فى هذه المدارس باب القصر المعروف بباب الزهومة وموضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن ثم اختط ما وراء هذه المدارس فى سنة بضع وخمسين وستمائة وجعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية. وأول من درس بها من الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى الحنبلى الصالحى. وفى ...سنة ثمان وأربعين وستمائة [١٢٥٠ – ١٢٥١م] أقام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى فى نيابة السلطنة بديار مصر فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية هذه مع نواب دار العدل وانتصب لكشف المظالم واستمر جلوسه بها مدة...[قبة الصالح] هذه القبة بجوار المدرسة الصالحية كان موضعها قاعة شيخ المالكية بنتها عصمة الدين والدة خليل شجرة الدر لأجل مولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما مات وهو على مقاتلة الفرنج بناحية المنصورة فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة [١٢٤٩م] [٦٧].

ويضيف المقريزى أن جثمان الملك الصالح قد وضع سرًا فى قاعة من قاعات قلعة الروضة فى انتظار وصول الملك المعظم توران شاه من حصن كيفا. وفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ – ١٢٥١ م وبعد زواج شجرة الدر من الملك المعز أيبك وجلوسه على عرش السلطنة دفن جثمان الملك الصالح فى احتفال مهيب فى ضريحه الجديد فى بين القصرين[٦٨].

ويذكر المقريزى فى السلوك، فى أحداث سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ – ١٢٤١م أن أسرى الفرنجة استخدموا فى بناء قلعة الروضة والمدرسة الصالحية[٦٩]. ويقول ابن لقلق عن إنشاء المدرسة فى تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية:

> ثم إن السلطان خلد الله ملكه رسم بأن يعمر مدرسة بالقاهرة قدام الصاغة فى الموضع الذى كان يسكن فيه البياطرة قدام القصر وشرع فى ذلك ونقل البياطرة من هناك فتحولوا إلى ناحية باب البحر إلى صوب الركن المحلق وهدّ ذلك الجانب من القصر وهو ما يلى باب الزهومة إلى بحرى طول ماية ذراع بالعمل فى مثلها فى العرض... [٧٠]

وتحتاج تلك الروايات إلى بعض التوضيح منا؛ فالمقريزى فى خططه يتكلم عن بناء مدرستين. وتوضح محاولة كريزويل لتخيل ما كان عليه البناء، اعتمادًا على رواية المقريزى، أن المدرسة الصالحية كانت تنقسم إلى قسمين تمثل كل منهما زاوية قائمة مع الواجهة الرئيسية المطلة على بين القصرين ومواجهة للقبلة. ويتكون كل من القسمين – والذى لا يزال الشمالى منهما قائمًا حتى الآن – من صحن يقع على جانبيه إيوانان. وقد خصص لكل مذهب من المذاهب الأربعة إيوان، فكان الإيوانان الشماليان للمالكية والشافعية والجنوبيان للحنابلة والأحناف. وهكذا يتضح لنا تعبير "مدرستين" الذى ذكره المقريزى[٧١]. أما عن بناء ضريح الملك الصالح فى موقع قاعة المالكية – والذى لا يزال باقيًا – فيتناقض المقريزى

مع نفسه فى آخر هذه الفقرة؛ حيث يذكر أن القبة التى فيها قبر الملك الصالح مجاورة لإيوان الفقهاء المالكية(٧٢). ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن هناك جزءًا لا بأس به من القصر الفاطمى الشرقى ظل قائمًا حتى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ – ١٢٤١ م بالرغم من التغييرات الكبيرة التى صاحبت استيلاء الأيوبيين على القاهرة.

مدرسة ابن رشيق

يقول عنها المقريزى:

> هذه المدرسة للمالكية وهى بخط حمام الريس من مدينة مصر. كان الكانم من طوائف التكرور لما وصلوا إلى مصر فى سنة بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج دفعوا للقاضى عِلْم الدين ابن رشيق مالاً بناها به ودرس بها فعرفت به وصار لها فى بلاد التكرور سمعة عظيمة وكانوا يبعثون إليها فى غالب السنين المال(٧٣).

ويضيف ابن دقماق أن هذه المدرسة (رقم ١١٠، خريطة ٣) كانت لها سمعة عظيمة فى السودان بين بنى رشيق، وأنهم كانوا يرسلون إليها إعانة سنوية؛ حيث إن أوقافها كانت محدودة.

> درس بها الشيخ الإمام علم الدين بن رشيق إلى حين وفاته تدريسًا وإمامة ثم استقر فيها بعده ولده قاضى القضاة زين الدين وكان التكاررة إذا قدموا من بلادهم قاصدين الحجاز قبل بنائها ينزلون عند القاضى علم الدين بن رشيق فى داره عند حمام الريس فدفعوا إليه مالاً عمر به هذه المدرسة ودرس بها(٧٤).

ويرى كازانوفا أن حمام الريس تقع فى منتصف الطريق بين ســوق وردان ومسجد أبى السعود[٧٥]. ومن المثير هنا أن الحجاج السودانيين كانوا يسافرون إلى المناطق المقدسة مستخدمين الطريق البرى الملتف الأطول بدلاً من عبور البحــر الأحمر مباشرة إليها (مثل عبور ابن جبير من عيذاب إلى جدة ســنة ٥٧٨ هــــ / ١١٨٣م) [٧٦].

المدرسة القطبية فى حارة زويلة

يقول عنها المقريزى:

> هذه المدرسة [رقم ٤٢، خريطة ١] فـــى أول حـــارة زويلـــة برحبة كوكاى عرفت بالست الجليلة الكبرى عــصمة الــدين مؤنـــسة خاتون المعروفة بدار إقبال العلائى ابنة الملك العادل أبى بكــر بــن أيوب وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد وإليـــه نـــسبت وكانـــت ولادتها فى سنة ثلاث وستمائة [١٢٠٦ – ١٢٠٧ م] ووفاتها ... ســـنة ثلاث وتسعين وستمائة [١٢٩٣ – ١٢٩٤] ...[ثم يتحدث عن رجاحـــة عقلها وتدينها] ... وتركت مالاً جزيلاً وأوصت ببناء مدرســـة يجعـــل فيها فقهاء وقراء ويشترى لها وقف يغل فبنيت هذه المدرســـة وجعـــل فيها درس للشافعية ودرس للحنفية وقراء وهى إلى اليوم عامرة[٧٥].

وتقع حارة زويلة (والتى كانت متصلة فى الأصل بالباب الذى يحمل نفـس الاسم) فى القسم الجنوبى من القاهرة إلى الشمال من جامع المؤيد شيخ.

ملخص

من بين المدارس الخمس والعشرين التى أنشأها الأيوبيون فى القاهرة والفسطاط هناك سبع عشرة مدرسة تقع فى القاهرة وسبع فى الفسطاط وواحدة فى القرافة. خلال فترة حكم صلاح الدين (٥٦٥ – ٥٨٩ هـ / ١١٦٩ – ١١٩٣ م) أنشئت عشر مدارس، خمس منها فى القاهرة، وأربع فى الفسطاط، وواحدة عند قبة الإمام الشافعى. وكانت ست من هذه المدارس للشافعية، وواحدة للشافعية والمالكية، وواحدة للمالكية، واثنتان للأحناف. ومن بين المدارس الخمس التى أنشأها صلاح الدين نفسه كانت هناك ثلاث للشافعية وواحدة للمالكية وواحدة للأحناف.

فالمدارس الأيوبية المبكرة إذن كانت تفضل الشافعية بشكل أساسى، بينما كانت خدماتها للمذهبين المالكى والحنفى من باب ذر الرماد فى العيون.

وفى فترة حكم صلاح الدين أنشأ السلطان نفسه خمس مدارس، وأنشأ تقى الدين عمر مدرسة، وأحد الأمراء مدرسة، وزوجة أحد الأمراء مدرسة، والقاضى الفاضل مدرسة، ومدرسة أنشأها أحد تجار عسقلان. وباستثناء تلك المدرسة الأخيرة، كان لمنشئ تلك المدارس علاقات وثيقة مع الحكومة. وفيما يتعلق بالأوقاف فقد أوقف صلاح الدين على تلك المدارس أوقافًا مباشرة كما فعل أيضًا منشئوها، والذين أوقفوا عليها فى بعض الأحيان ممتلكات الأوقاف بما فيها قطع أراض وقرى وممتلكات تجارية وحمامات.

ومواقع تلك المدارس المبكرة تستحق منا نظرة متأنية؛ فأول مدرستين أنشأهما صلاح الدين وهما "الناصرية" و "القمحية" كانتا متاخمتين لجامع عمرو بالفسطاط، مما يشى بالأهمية والتقديس اللذين كان هذا الجامع لا يزال يحتفظ بهما بوصفه مركزًا دينيًا وإداريًا، وكذلك يشى اختيار الموقع بالأهمية التى كان يوليها صلاح الدين لإعادة إعمار الفسطاط بوصفها مركزًا تجاريًا وبحريًا، بعد الدمار

الذى لحق بها فى نهاية العصر الفاطمى. وقد أقيمت المدرستان فى مواقـــع ســـوق على أنقاض مبان أقدم لم يكن لها أهمية خاصة. وهناك مدرستان أخريان أقامهمـــا صلاح الدين عند ضريحين لهما أهمية كبرى وهما ضريحا الإمام الحسين [رضى الله عنه] والإمام الشافعى [رضى الله عنه]. والمدرسة الخامـــسة والأخيـــرة مـــن المدارس التى أنشأها صلاح الدين كانت تقع فى وسط القاهرة فى موضـــع قـــصر وزير فاطمى سابق. نرى من ذلك أن منشآت صلاح الدين تركزت فـــى الأمـــاكن التى كانت لها بالفعل تقديس خاص، خاصة عند السنة، وكذلك فى المناطق الحيوية تجاريًا فى القاهرة والفسطاط.

على أن المدارس غير السلطانية خلال الفترة نفسها اتبعـــت نمطًـــا مختلفًـــا بعض الشيء. فباستثناء مدرسة ابن الأرسوفى بالفسطاط – والتى أنـــشئت أيـــضا بالقرب من جامع عمرو فى منطقـــة تجارية – ارتبطت تلك المـــدارس بمقـــــار حالية أو سابقة: الكتبية بموضع دار الديباج (والتى كانت أيضًا موقعًا تجاريًـــا فـــى أواخر العصر الفاطمى) والمدرسة التقوية بموضع منازل العز، هو منظرة فاطمية، والعاشورية التى أعادت استخدام دار سابقة، والفاضلية التى أنشئت متاخمة لقـــصر القاضى الفاضل.

وإذا ما تحولنا إلى المدارس الخمس عشرة التى أنشئت فى مـــا بقـــى مـــن العصر الأيوبى (٥٨٩ – ٦٤٨ هـــ / ١١٩٣ – ١٢٥٠ م) فسنجد أن اثنتى عـــشرة مدرسة منها أنشئت فى القاهرة وثلاثًا فى الفسطاط. ومن بين تلك المدارس كانـــت هناك ثلاث مدارس للمالكية واثنتان للأحناف وواحدة للحنابلة ودار الحديث (والتـــى كانت شافعية فى الأساس) واثنتان للشافعية والأحناف معًا وواحدة للمذاهب الأربعة وأربع مدارس لم يكن لها مذهب محدد، مما يشير إلى توجـــه نحـــو قبـــول عـــام بالمذاهب الأربعة السنية. وقد أنشأ تلك المدارس ثلاثة مـــن الـــسلاطين (العـــادل والكامل والصالح) ووزيران، وأستادار، وثلاثة أمراء، ومملوك، وخادم فى القصر، وطبيب دمشقى، وجماعة من الحجاج السودانيين. وهكذا نرى أنه على الرغم مـــن

قلة عدد المنشآت السلطانية في تلك الفترة فإن معظمها بقى فى تلك الفترة أيضًا مرتبطًا بأفراد على علاقة وثيقة بالنخبة الحاكمة. وقد ذكرت أوقاف لسبع فقط من تلك المدارس، واشتملت على منشآت تجارية محلية وأراضٍ ودعم سلطانى مباشر، وكذلك على تبرعات من طائفة من السودانيين بالنسبة لمدرسة ابن رشيق.

أما بالنسبة لمواقعها، فقد كانت ثلاث منها تقع بالقرب من موقع دار الديباج (وهى قصر فاطمى أعيد استخدامه كسوق) فى غرب وسط القاهرة بالقرب من الخليج. وقد أنشأ تلك المدارس ابن شكر وزير الملك العادل ثم الملك الكامل وسيف الإسلام طغتكين وأستادار الملك الكامل، بالإضافة إلى المدرسة القطبية التى أنشأها أحد أمراء صلاح الدين. نحن هنا إذن أمام تركز للمدارس فى منطقة سوق أنشأتها كلها شخصيات سياسية مهمة. هذه الظاهرة نفسها تكررت فى سويقة أمير الجيوش فى القسم الشمالى من القاهرة حيث أنشئت ثلاث مدارس أنشأها مملوك من مماليك نجم الدين أيوب، وأميران من أمراء صلاح الدين، والملك الكامل. والمنشآت السلطانية الثلاث كانت تقع أيضًا فى مناطق تجارية بشكل أساسى، ولكنها كانت، بالإضافة إلى ذلك، مرتبطة بمراكز دينية و/أو إدارية سابقة؛ فمدرسة الملك العادل أقيمت، كما حدث مع مدارس أخرى، بالقرب من جامع عمرو بالفسطاط، بينما أقيمت مدرستا الملك الكامل والملك الصالح فى مناطق سوق ببين القصرين، وتقع فى جزء على الأقل من القصرين الغربى والشرقى الفاطميين على الترتيب. على أننا يجب أن ننظر إلى اختيار موقع المدرستين الأخيرتين ببعض الحرص. فبالرغم من أن الظن بأن هؤلاء السلاطين قد اختاروا مواقع مدارسهم فى هذا الموضع لمحو آثار الدولة السابقة، فإنهم فى الواقع لم يكونوا بحاجة لذلك فى هذا الظرف بالذات. فالدولة الفاطمية كانت قد انهارت (بالرغم من عدم اختفائها تمامًا) منذ أكثر من خمسين سنة، وبالتالى فلم يكن هناك خوف من عودة الإسماعيليين للظهور. والمراكز الإدارية انتقلت فى عهد الملك الكامل إلى القلعة ثم إلى الروضة فى عهد الملك الصالح. ومنطقة بين القصرين، بالرغم من امتلائها بالحوانيت والأسواق –

كما كانت عليه في أواخر العصر الفاطمي إلى حد ما أيضًا – فقد كانت لا تـزال منطقة مفتوحة نسبيًا عندما زارها ابن سعيد (حوالي سـنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ – ١٢٤٣ م). وكان مركز النشاط التجاري بالقاهرة والذي يقع على طريقها الرئيسي موقعًا مثاليًا لإقامة بناء ديني من قبل أي سلطان. ومما له أهمية أقـل، حقيقـة أن مواد البناء كانت موجودة بالفعل في المنطقة نتيجة تدمير الأجـزاء الباقيـة مـن القصر، على الأقل فيما يتعلق بمدرسة الملك الصالح.

وتشتمل المواقع الأخرى على مدرستي مـسرور والـشريف بـن ثعلـب، وكلاهما إلى الجنوب من القصر الغربي، وكلاهما أيضًا قـصر أعيـد اسـتخدامه يخص صاحب كل منهما. ولم يتم تحديد موضع كل من المدرسـتين اللتـين تقـع إحداهما في القاهرة والأخرى في الفسطاط. وآخر مدرستين في حديثنا هما واحـدة بالقرب من كوم الجارح في الفسطاط والأخرى في حارة زويلة، ولا نـستطيع أن نربطهما بأي أنماط طبوغرافية بالرغم من قرب كل منهما النسبي لمنطقة سوق.

نخلص من كل ذلك إلى أن المدارس الأيوبية أسـسها الـسلاطين وأفـراد الأسرة الحاكمة و / أو موظفو الحكومة وبعض الواهبين الآخـرين، وفـي حالـة واحدة جماعة من الحجاج السودان. وقد تراجعت سيادة المـدارس الـشافعية فـي عصر صلاح الدين، تدريجيًا، لتسمح بقبول عام بالمدارس على المذاهب الأخـرى بالقرب من نهاية الأسرة، بالرغم من عدم التساوي في العدد. وتـوحي حقيقـة أن صلاح الدين بنى خمسًا من بين الثماني مدارس السلطانية لشدة احتياجه إلى إعـادة المذهب السني بعد الهرطقة الإسماعيلية. وقد تأسست المدارس في عهـد صـلاح الدين حول المراكز التي تحظى بقدسية دينية أو أهمية إدارية (خاصـة مـا أعيـد تأهيله منها) في حين أنشئ بعضها في المناطق التجارية الكبرى. أما المنشآت غير السلطانية فعادة ما كانت منازل أو قصورًا فاطمية سابقة، وهي عادة استمرت حتى الفترة المتأخرة من العصر الأيوبي، وإن كانت بدرجة أقـل. وقـد كانـت إعـادة استخدام القصور السابقة، كما يشير كريزويل، فكرة عملية إلى حـد بعيد. وعـادة

ما كانت تلقى الدروس فى إيوانات. وفى أواخر العصر الأيوبى، وفى العصر المملوكى، عادةً ما كان عدد الإيوانات يماثل عدد المذاهب و / أو التخصصات الدينية التى تلقى دروسها فى المدرسة، ومثال ذلك مدارس السلاطين: الملك الصالح وبيبرس البندقدارى (الظاهرية) والناصر محمد والسلطان حسن. ومن السمات الثابتة فى قصور أواخر العصر الفاطمى والعصرين الأيوبى والمملوكى وجود قاعة – إيوانين يواجه كل منهما الآخر يتوسطهما صحن أوسط أو فوارة. ومثل هذا المعمار يسهل أن يتحول دون عناء إلى مدرسة تشتمل على أماكن للدرس وحجرات واسعة لإيواء الطلبة[٧٨].

ومعظم مدارس الفترة المتأخرة من العصر الأيوبى كانت مبانى أقيمت خصيصًا لهذا الغرض بالرغم من إقامتها وسط أنقاض منشآت فاطمية سابقة، مثل دار الديباج والقصرين الفاطميين الشرقى والغربى. وظهر تركز المدارس فى دار الديباج وسويقة أمير الجيوش وهى مناطق تجارية مهمة، وأنشأها أمراء وموظفون آخرون، ربما فى تسابق بينهم للتفوق فى عمل الخير. وأخيرًا، فآخر منشأتين سلطانيتين كانتا تقعان فى بين القصرين، مركز قصبة القاهرة.

مدرسة للأطفال

يقول ابن جبير :

> ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة، أنه أمر بعمارة محاضر، وألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم[٧٩].

ولم يذكر موقعها.

كما أشرنا فى السابق، فعلى الرغم من محاولة صلاح الدين المبكرة لاتباع مبدأ الشافعية بوجود مسجد جامع واحد فى كل مدينة أو بلدة، فقد كان هناك أربعة مساجد جامعة فى القاهرة فى الفترة التى زارها فيها ابن جبير، بخلاف مساجد ابن طولون وعمرو والروضة. والواقع أنه فى نهاية العصر الأيوبى كانت هناك تسعة مساجد جامعة مستخدمة فى القاهرة الكبرى، أى القاهرة والفسطاط والروضة وما حولها مباشرة، ليس من بينها الأزهر وابن طولون اللذان فقدا مكانتهما، ولو بشكل مؤقت على الأقل. على أن التمييز بين المسجد الجامع والمسجد استمر سائدًا على الرغم من أن هذا التمييز كان متداخلاً إلى حد كبير على أيام المقريزى، كما أن كلمة "جامع" هى المصطلح السائد بين القاهريين المعاصرين الآن عند الإشارة إلى أى مسجد.

لقد كان ما شيد من مساجد أيوبية قليلاً للغاية؛ حيث إن التركيز كان منصبًا على إعادة تصحيح العقيدة وتجديد وإعادة بناء المساجد التى كانت قد أقيمت فى العصر الفاطمى وما قبله. ويقع ضمن هذا التصنيف عشر منشآت حملت كلها - ولكن بشكل غير دائم - اسم "جامع" بين نهاية العصر الفاطمى ونهاية العصر الأيوبى، وتلقت دعمًا مباشرًا من السلطان أو من شخصيات وثيقة الصلة بالحكم وقد أقيم فى العصر الأيوبى ستة مساجد ومسجد جامع واحد، شيد اثنين منها أعضاء فى الأسرة الأيوبية، وشيد الباقين شخصيات سياسية ودينية مختلفة المكانة.

سياسة المساجد الأيوبية: إعادة بناء منشآت قائمة وتجديدها وإعادة توظيفها

الجامع الأزهر

نُزعت عن الجامع الأزهر (رقم ٤٣، خريطة ١) صفة "الجامع" فى عهد صلاح الدين، وظل كذلك حتى أعيدت له الخطبة فى عهد الظاهر بيبرس

البندقدارى. وقد قام صلاح الدين بنزع الشريط الفضى الشاهد على أعمال الفاطميين من محراب الأزهر، وفعل الشيء نفسه فى الجوامع الأخرى أيضًا. بالإضافة إلى ذلك فقد زاد فى ارتفاع المئذنة، بما يوحى باستمرار استخدام الأزهر كمسجد خلال العصر الأيوبى(٨٠).

جامع الحاكم

أنشأ هذا الجامع (رقم ٤٤، خريطة ١) الخليفة الفاطمى العزيز، وأتمه الحاكم، وقد أعلنه صلاح الدين الجامع الأساسى للقاهرة. ويقول عنه المقريزى:

يقول [ابن عبد الظاهر]: "الفسقية وسط الجامع بناها الصاحب عبد الله بن على بن شكر وأجرى الماء إليها وأزالها القاضى تاج الدين بن شكر وهو قاضى القضاة فى سنة ستين وستمائة [١٢٦١ – ١٢٦٢م] والزيادة التى إلى جانبه قيل إنها بناء ولده الظاهر على ولم يكملها وكان قد حبس فيها الفرنج فعملوا فيها كنائس هدمها الملك الناصر صلاح الدين وكان قد تغلب عليها وبنيت إصطبلات، وبلغنى أنها كانت فى الأيام المتقدمة قد جعلت إهراء للغلال فلما كان فى الأيام الصالحية ووزارة معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ للملك الصالح أيوب ولد الكامل ثبت عند الحاكم أنها من الجامع وأن بها محرابًا فانتزعت وأخرج الخيل منها وبنى فيها ما هو الآن فى الأيام المعزية على يد الركن الصيرفى ولم يسقف(٨١).

وقد كانت زيادة جامع الحاكم، على الأقل جزئيًا، تقع فى الجهة الجنوبية الغربية، ولازال مدخلها باقياً حتى الآن ويعرف بزاوية أبى الخير الكليباتى(٨٢).

جامع عمرو

جامع عمرو هو أول مسجد يقام فى مصر، وقد بقى السرة الحقيقية للفسطاط طوال تاريخها. وبعد حريق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م شهد الجامع

والمنطقة المحيطة به أعمال ترميم وإعادة بناء بوصفها مركزًا دينيًا ومركزًا تجاريًا حيويًا. وفى إطار سياسة إحياء المذهب السنى قام صلاح الدين بنشاط هائل فيما يتعلق بإعادة بناء جامع عمرو وترميمه، وكذلك قام ببناء أول مدرستين ملاصقتين له.

ويبدو أن جامع عمرو قد أصابه القليل من الضرر عند حريق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م، على الرغم من أن المقريزى لم يذكر هذا الدمار فى وصفه للجامع نفسه. بيد أنه عند حديثه عن جامع القرافة ذكر أن جامع عمرو قد أحرقه ابن سماقة بأمر من جوهر مؤتمن الخلافة الفاطمية. وعندما سُئل جوهر عن ذلك قال إنه إنما أقدم على حرق الجامع حتى لا يُخطب فيه للعباسيين[٨٣]. ومع افتقارنا لشهادة على الحريق من المقريزى فى موضع آخر، وصمت ابن دقماق حول هذا الموضوع، وغياب الدليل الأثرى، فلو كان حريق جامع عمرو حقيقة، فلابد أنه كان قليل الأثر.

ويقول المقريزى عما حدث بعد حريق ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م:

> وتراجع المصريون شيئًا بعد شىء إلى مصر وتشعث الجامع فلما استبد السلطان صلاح الدين بمملكة مصر بعد موت العاضد جدد الجامع العتيق بمصر فى سنة ثمان وستين وخمسمائة وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه ورسم عليه اسمه وجعل فى سقاية قاعة الخطابة قصبة إلى السطح يرتفق بها أهل السطح وعمر المنظرة التى تحت المئذنة الكبيرة وجعل لها سقاية وعمر فى كنف دار عمرو الصغرى البحرى مما يلى الغربى قصبة أخرى إلى محاذاة السطح وجعل لها ممشاة من السطح إليها يرتفق بها أهل السطح وعمر غرفة الساعات وحررت فلم تزل مستمرة إلى أثناء أيام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى أول من ملك من المماليك وجدد بياض الجامع وأزال شعثه وجلى عمده وأصلح رخامه حتى صار جميعه مفروشًا

بالرخام وليس فى سائر أرضه شىء بغير رخام حتى تحت الحصر[٨٤].

وذكر ابن جبير فى معرض حديثه عن أوقاف صلاح الدين:"وذُكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائد نحو الثلاثين دينارًا مصرية فى كل يوم، تتفرق فى مصالحه، ومرتبات قومته وسدنته وأئمته والقراء فيه. "[٨٥]

وقد تأسست داخل جامع عمرو العديد من الزوايا التى كان كل منها، فى واقع الأمر، عبارة عن قسم مخصص لدروس أحد الفقهاء، فكانت الزاوية تلعب هنا دور المدرسة. ومن بين الزوايا الثمانى التى ذكرها المقريزى كانت هناك اثنتان وقفًا من العصر الأيوبى، فى حين يبدو أن بقيتها كانت منشآت مملوكية. وفى ذلك يقول المقريزى:

> ...زاوية الإمام الشافعى...يقال إنه درس بها الشافعى فعرفت به وعليها أرض بناحية سندبيس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء.
>
> ...الزاوية المجدية بصدر الجامع فيما بين المحراب الكبير ومحراب الخمس داخل المقصورة الوسطى بجوار المحراب الكبير رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبى المحاسن مهلب بن حسن بن بركات بن على بن غياث المهلبى الأزدى البهنسى الشافعى وزير الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب بحران وقرر فى تدريسها قريبه قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى. وعمل على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة ويعد تدريسها من المناصب الجليلة وتوفى المجد فى صفر سنة ثمان

وعشرين وستمائة بدمشق (٩ ديسمبر ١٢٣٠ – ٦ يناير ١٢٣١م) عن ثلاث وستين سنة[٨٦].

ولم يقدر لجامع عمرو أن يهنأ طويلاً بتجديداته. فسعيد المغربى يقول فى وصفه لأحوال سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م تقريباً:

> إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع أشبيلية وجامع مراكش، ثم دخلت إليه فعاينت جامعًا كبيرًا قديم البناء غير مزخرف ولا محفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتبسط فيه وأبصرت العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه معبرًا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق والبيّاعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك والناس يأكلون منه فى أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منهم رزقًا وفضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع وفى زواياه والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان والصبيان يلعبون فى صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة إلا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده فى جامع أشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه. ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك فعلمت أنه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك، ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب إلا بالجاه والتعب[٨٧].

شهد جامع عمرو، إذن، فى عهد الأيوبيين دورة كاملة من الافتقار للتـرميم إلى البؤس التام. وفى عهد الملك الصالح لم تكن أعمال إعادة البناء والتجديد التـى أجريت له فى عهد صلاح الدين بادية. بيد أن التقديس الذى حظى به الجامع كأول مسجد يقام فى مصر وأحد حصون الإسلام السنى ظل عنصرًا باقيًا له.

جامع ابن طولون

يقول ابن جبير:

> وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبى العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة، الواسـعة البنيان، جعله السلطان مأوًى للغرباء من المغاربة، يسكنونه ويُحلِّقـون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر. ومن أعجب ما حـدثنا بـه أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يدًا لأحد عليهم فقدموا من أنفسهم حاكما يمتثلون أمره، ويتحـاكمون فـى طوارئ أمورهم عنده، واستصحبوا الدعة والعافية، وتفرغـوا لعبـادة ربهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الـذى هـم بسبيله(٨٨).

جامع المقس

أنشأ جامع المقس الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بالقرب من جـامع أولاد عنان الحالى (إلى الجنوب مباشرة من ميدان رمسيس).

ورواية المقريزى عن جامع المقس توقعنا فى اللـبس، وسـنوردها هاهنـا بترتيبها التاريخى:

٥٠

ولما بنى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب هذا السور الذى على القاهرة وأراد أن يوصله بسور مصر من خارج باب البحر إلى الكوم الأحمر حيث منشأة المهرانى اليوم وكان المتولى لعمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى أنشأ بجوار جامع المقس برجًا كبيرًا عرف بقلعة المقس[٨٩].

فلما أمر السلطان صلاح الدين بإدارة السور على مصر والقاهرة تولى ذلك بهاء الدين قراقوش وجعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقس وبنى فيه برجًا يشرف على النيل وبنى مسجده جامعًا واتصلت العمارة منه إلى البلد وصار تقام فيه الجمع[٩٠].

وفى رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة [٢١ سبتمبر – ٢١ أكتوبر ١١٩١م] انشقت زربية من هذا الجامع فى شهر رمضان لكثرة زيادة ماء النيل وخيف على الجامع السقوط فأمر بعمارتها[٩١].

فلما كان فى سنة سبعين وسبعمائة [١٣٦٨ – ١٣٦٩م] جدد بناء هذا الجامع الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى وهدم القلعة وجعل مكانها جنينة[٩٢].

توحى الفقرة الأولى بأن البرج قد أقيم بالقرب من جامع المقس وليس فى موقعه. والفقرة الثانية التى تذكر أن قراقوش بنى البرج ومسجدًا جامعًا تحتاج إلى بعض التمحيص. فمن غير المحتمل أن يكون قراقوش قد شيد جامعًا ثانيًا فى نفس المنطقة. وعلى ذلك فأى بناء هو إما تجديد أو، كما يقترح كازانوفا، أن المسجد كان مدمرًا فأقيم مكانه البرج ثم أعيد بناء المسجد فى موضع قريب[٩٣]. وبما أننا نفتقر إلى المزيد من الأدلة النصية فالسؤال يظل مطروحًا.

جامع قيدان

يقول المقريزى:

هذا الجامع خارج القاهرة على جانب الخليج الشرقى ظاهر باب الفتوح مما يلى قناطر الإوز تجاه أرض البعل كان مسجدًا قديم البناء فجدده الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى محرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة [١٢ أكتوبر – ١٠ نوفمبر ١٢٠٠] وجدد حوض السبيل الذى فيه ثم إن الأمير مظفر الدين قيدان الرومى عمل به منبرًا لإقامة الخطبة يوم الجمعة وكان عامرًا بعمارة ما حوله[٩٤].

الجامع الذى بجوار قبر الشافعى بالقرافة

يقول المقريزى:

هذا الجامع كان مسجدًا صغيرًا، فلما كثر الناس بالقرافة الصغرى عندما عمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة بجوار قبر الإمام الشافعى رضى الله عنه وجعل لها مدرسًا وطلبة زاد الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى المسجد المذكور ونصب به منبرًا وخطب فيه وصليت الجمعة به فى سنة سبع وستمائة [١٢١٠-١٢١١م] [٩٥].

جامع القرافة

يقول المقريزى:

هذا الجامع يُعرف الآن بجامع الأولياء وهو بالقرافة الكبرى وكان موضعه يعرف فى القديم عند فتح مصر بخطة المغافر وهو

مسجد بنى عبد الله بن مانع بن مورع يعـرف بمـسجد القبـة. قـال القضاعى كان القراء يحضرون فيه ثم بنى عليه المسجد الجامع الجديد بنته السيدة المعزية فى سنة ست وسـتين وثلثمائـة [٩٧٦ - ٩٧٧م] وهى أم العزيز بالله نزار ولد المعز لدين الله أم ولد من العرب(٩٦).

كما ذكرنا آنفًا عند وصفنا لجامع عمرو، فقد أمر بحرقه هو وجامع القرافـة سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م لمنع الخطبة للعباسيين فيهما. بيد أننا متأكدون بشكل أكبر من أن دمارا شديدا أصاب جامع القرافة؛ حيث إن المقريزى يقـول إن محرابـه الأخضر هو الشيء الوحيد الذى بقى سليمًا فيه. كما أنه ذكر أن المسجد قد أعيـد بناؤه "فى أيام المستنصر". وعلى الرغم من أننا غير متأكدين إن كان المستنـصر الذى يقصده هو الخليفة العباسـى فـى بغـداد (٦٢٣ - ٦٤٠ هـــ / ١٢٢٦ - ١٢٤٢م) أم أخاه الذى يقال له المستنصر أيضًا، والذى عينه بيبرس خليفة "دميـة" فى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٦١م، فيبدو أنه قصد أولهما؛ حيـث إن ابن سعيد ذكر مسجدًا جامعًا فى وصفه للقرافة(٩٧).

المساجد الجامعة بالروضة: جامع غين وجامع المقياس

أشار ابن حوقل إلى وجود مسجد جامع فى الروضة (حوالى سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨ م) (٩٨). بيد أن روايتى المقريزى وابن دقماق تبـدوان متناقـضتين بعـض الشيء، وسوف نمحصهما فيما يلى. يقول المقريزى:

قال ابن المتوج المسجد الجامع بروضة مصر يعـرف بجـامع غين وهو القديم، ولم تزل الخطبة قائمة فيه إلى أن عمر جامع المقيـاس فبطلت الخطبة منه، ولم تزل الخطبة بطالة منه إلى الدولة الظاهريـة

[أى بيبرس البندقدارى]... غين أحد خدام الخليفة الحاكم بأمر الله خلع عليه(*) ... سنة اثنتين وأربعمائة [١٠١١-١٠١٢م] (٩٩)

ورواية ابن دقماق مشابهة فيما عدا بعض التفاصيل عن غين ليست بذات بال هنا.

بيد أن النصين يختلفان اختلافًا بينًا فى وصف جامع المقياس (رقم ١١١، خريطة ٣). فطبقًا لابن دقماق:

عمره الأفضل ابن أمير الجيوش بدر فى سنة [ ] ثم جدده السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وكان أمام بابه كنيسة تعرف بابن لقلق البترك لليعاقبة[١٢١٦ – ١٢٤٣م] (١٠٠).

ويتوقف وصف المقريزى لجامع المقس بشكل مفاجئ (المخطوط الأصلى الذى اعتمدت عليه طبعة بولاق خلا من الكتابة فى هذا الموضع) بعد ذكره أن الجامع يقع بالقرب من مقياس النيل. بيد أنه يقول فى موضع آخر عند حديثه عن جامع الروضة وقلعة الروضة "قال ابن المتوج هذا الجامع بناه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب." وبقية النص مشابه لوصف ابن دقماق لجامع المقياس(١٠١).

ويقول ابن لقلق فى "تاريخ البطاركة" إنه فى أثناء بناء قلعة الروضة (حوالى ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢-١٢٤٣ م)

...ثم إنه [السلطان] رسم تخلى كنيسة الجزيرة وجامع المقياس ويخرج من بهما، وكان بالكنيسة رجل قسيس كبير السن ضعيف

---

* عبارة "خلع عليه" ترجمها المؤلف فى النص الإنجليزى dismissed from office أى خلعه من وظيفته، والمعنيان متضادان بالطبع، ولا نحسب ذلك إلا لعدم انتباه المؤلف عند ترجمته إلى كلمة"عليه" فظنها خلعه. ولو انتبه المؤلف لبقية الجملة لزال عنه هذا الالتباس، فهى تقول "خلع عليه فى تاسع ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة وقلده سيفًا وأعطاه سجلاً قرئ فإذا فيه أنه لقب بقائد القواد... (المترجم)

البصر يسمى إفرهام، وكان له في الكنيسة المذكورة ستين سنة فأخرج منها وسمر بابها وأخرج ابن أبى رداد من جامع المقياس، ولـم يعلـم السبب في ذلك فقوم قالوا إن السلطان يريد أن يعمل من جانب الكنيسة طريقًا إلى الأبراج التى عملها على المقياس وقوم يقولون إنـه كـره تخطى الناس على باب داره[١٠٢].

وبعد ذلك وفى أحداث السنة نفسها يقول "كنيسة الجزيرة هدمت إلى الأرض وغيرها فى عماير القلعة." [١٠٣]

ويشير المقريزى إلى أن الجامع (يعتقد أنه يعود لعهد الملك الـصالح) بقـى دائمًا تحت إشراف بنى الرداد. [١٠٤]

نخلص من ذلك إلى أن جامع غين، والذى يعود على الأقل لعصر الحـاكم، كان هو المسجد الجامع الوحيد فى الروضة. وتلاه جامع المقياس الذى بناه الأفضل ابن الجيوشى، وربما لعب دور المسجد العادى فقط. وجامع المقيـاس إما أنه رمم أو أعيد بناؤه فى عهد الملك الصالح؛ فالشواهد على ذلك تثير الالتباس. فابن دقماق يقول إن الجامع قد بناه الأفضل وجدده الصالح، بينما يذكر المقريـزى أن الملـك الصالح عمر المسجد. وهذا التعبير الأخير، كما يشير كازانوفا، حمل فـى بعـض النصوص التى ترجع للعصور الوسطى، معنى الترميم[١٠٥] ويؤكد نص ابن لقلـق أن جامع المقياس وكنيسة اليعاقبة قد أخلاهما الملك الصالح، وهو ما يـشير إلـى وجود سابق على ذلك التاريخ للمسجد. بيد أنه يضيف أن الكنيسة ومبانى أخرى قد دمرت، مما يثير التساؤل حول ما إذا كان جامع المقياس من بينها، ثم بنـى فـى مكان آخر فيما بعد. وربما يفسر ذلك عدم اكتمال وصف المقريزى لجامع المقياس ووصفه المنفصل للجامع فى قلعة الروضة (أى أن الأول قد دمره الصالح وأحـل الثانى محله).

بيد أن هذه النظرية، أو الموازنة، لا تستقيم. فجامع المقياس الذى ذكره ابن دقماق يمكن إثبات أنه هو نفس المنشأة التى أطلق عليه المقريزى الجامع الذى فى قلعة الروضة. وقد ذكر ابن دقماق، تحديدًا، ما جرى عليه من تجديدات، فلو كان الجامع قد تهدم وأعيد بناؤه فلا يعتقد أن ذلك من الممكن أن يسقط من روايته. بالإضافة إلى أن جامع المقياس لو كان قد أصابه الدمار فى إطار الإزالة الشاملة التى شملت كنيسة اليعاقبة فمن المرجح أن ابن لقلق كان سيذكر ذلك بوضوح. ولكن يبقى احتمال أن الجامع قد رممه الملك الصالح وأنه كان يقع قريبًا نسبيًا من قصره فى الطرف الجنوبى من الجزيرة[١٠٦].

أما جامع غين، فلو سلمنا بصحة اعتقاد كريزويل بأن مجموعة القلعة كانت تضم النصف الجنوبى من الجزيرة، فهو يقع إذن فى القسم الشمالى من الروضة خارج سور القلعة. وقد أعيدت إليه الخطبة سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ – ١٢٦٢م؛ حيث "كثرت عمائر الناس حوله [أى جامع غين] فى الروضة وقل الناس فى القلعة، وصاروا يجدون مشقة فى مشيهم من أوائل الروضة [إلى جامع المقياس] [١٠٧].

جامع محمود بالقرافة

يقع هذا الجامع بالقرافة الصغرى فى سفح جبل المقطم، ويرجع تاريخ بنائه إلى حوالى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م. وطبقاً لابن المتوج، فقد كان أول من خطب فيه السيد الشريف شهاب الدين الحسين بن محمد قاضى العسكر والمدرس بالمدرسة الناصرية (أسسها صلاح الدين) بجوار جامع عمرو، وتوفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ – ١٢٥٨ م[١٠٨].

المساجد الأيوبية: العمائر التى أنشأوها

مسجد نجم الدين

أسسه نجم الدين أيوب، أبو صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ – ١١٧١م وكان يقع خارج باب النصر وجعل إلى جانبه حوض ماء للسبيل ترده الدواب(١٠٩).

مسجد رسلان

طبقًا للمقريزى:

> هذا المسجد بحارة اليانسية عرف بالشيخ الصالح رسلان لإقامته به وقد حكيت عنه كرامات ومات به فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة [١١٩٤ – ١١٩٥م]. وكان يتقوت من أجرة خياطته للثياب(١١٠).
>
> وكانت حارة اليانسية تقع إلى الجنوب الشرقى من باب زويلة بين الباب والقلعة.

الجامع بمنشأة المهرانى

كانت منشأة المهرانى أرضًا غرينية تقع إلى الشمال من فم الخليج، بينه وبستان الخشاب (انظر الفصل الثالث). وقد أنشأ القاضى الفاضل بهذا الموضع بستانًا، وأقام مسجدًا على طرف البستان، وأقيمت حوله مبانٍ أخرى. بيد أن البستان والمسجد وما حوله من منشآت أتى عليها النيل بعد سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ – ١٢٦٢م. وقد أقام الجامع الصاحب بهاء الدين بن حنا بطلب من خطيبه الموفق الديباجى(١١١).

جامع الملك الكامل فى القلعة

كان هناك جامع فى القلعة أثناء حكم الظاهر بيبرس خطب فيه الخليفة العباسى الحاكم. ويعتقد كازانوفا أن هذا الجامع يعود إلى عهد الملك الكامل، وأنه كان يقع في موضع جامع الناصر محمد بن قلاوون[١١٢].

مسجد فخر الدين بن قزل

هذا المسجد (رقم ٤٥، خريطة ١) أنشأه فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومى، أستادار الملك الكامل، وكان مواجها لمدرسته (الفخرية) بين سويقة الصاحب ودرب العداس. ولم يذكر المقريزى هذا المسجد في موضع منفرد، ولكنه ذكره فى معرض وصفه للمدرسة الفخرية. تعود المدرسة إلى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ – ١٢٢٦ م ، وفخر الدين قد توفى سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ – ١٢٣٢م، وهو ما يعنى أن المسجد قد أقيم بين هذين التاريخين[١١٣].

وكانت سويقة الصاحب ودار العدس تقعان فى حارة الوزيرية، أى بالقرب من التقاء شارع الأزهر الحالى مع شارع بين السورين إلى الشرق مباشرة مما كان فى السابق الخليج.

مسجد صواب

قال المقريزى:

> هذا المسجد خارج القاهرة بخط الصليبية. عُرِف بالطواشى شمس الدين صواب مقدم المماليك السلطانية ومات فى ... سنة اثنتين وأربعين وستمائة [١٢٤٤ – ١٢٤٦ م] ودفن فيه[١١٤].

وكان خط الصليبية يقع بالقرب من تقاطع الشارع الأعظم مع شارع الصليبة، إلى الشمال الشرقي من جامع ابن طولون.

المسجد فى حوض ابن هنس

كان حوض ابن هنس يقع إلى الشرق قليلاً من بركة الفيل ملاصقًا لحارة حلب (انظر الفصل السادس). والحوض والمسجد كلاهما كانا من أوقاف سعد الدين مسعود بن هنس أحد الحجاب الخاص للملك الصالح، وقد أقام ابن هنس مسجدًا مرتفعًا بأعلى الحوض، ويعنى ذلك بلا شك بجواره مباشرة. وقد أنشئ هذا الوقف فى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ - ١٢٥٠ م، وهى السنة التى تُوفى فيها ابن هنس، والذى دفن بالقرب من الحوض[١١٥].

ملخص

فيما يتعلق بالجوامع فى عهد صلاح الدين، فقد قطعت الخطبة فى الأزهر، وأصبح جامع الحاكم هو المسجد الجامع الأساسى الذى تقام فيه الجمعة فى القاهرة. وتم ترميم جامع عمرو بوصفه مركزًا مهمًا للإسلام السنى وموضعًا شاهدًا على تجديد شباب الفسطاط. وتوقف استخدام مسجد ابن طولون كجامع وأصبح مأوى للغرباء من المغاربة، كما تم ترميم أو ربما إعادة بناء جامع المقس، لا ليخدم الميناء الذى قلت أهميته، ولكن ليواكب التوسع الهائل المنتظر من جراء تمديد أسوار القاهرة وبناء قلعة قراقوش.

والجوامع الستة التى ظهرت فى أواخر العصر الأيوبى لم تكن تمشيًا مع إعادة اتخاذ القاهرة مركزًا للمذهب السنى ومركزًا سياسيًا أساسيًا، ولكنها جاءت لمواكبة حركة السكان التى نتجت مما ترتب على تلك العوامل من آثار مادية. ففى

حالة القرافة تم رفع مرتبة مسجدين ليصبحا مسجدين جامعين، كما أعيد بناء جامع القرافة، وكان ذلك في جانب كبير منه نتيجة لزيادة عدد السكان فى القرافة بسبب منشآت صلاح الدين والملك الكامل عند ضريح الإمام الشافعي. كذلك فقد أصبح جامع قيدان، خارج باب الفتوح، مسجدًا جامعًا، وكان ذلك بلا شك بسبب تركز السكان في تلك المنطقة بعد تمديد سور القاهرة حتى المقس. أما ترميم أو إعادة بناء جامع المقياس فقد كان نتيجة مباشرة لإنشاء الملك الصالح لقلعته في هذا الموضع. وأخيرًا، جامع منشأة المهرانى، وهو الوحيد الذى أنشئ كمسجد جامع في العصر الأيوبى، وقد أنشأه القاضى الفاضل لخدمة من اجتذبتهم منشآته على الشاطئ الغربى للخليج، فكان إرهاصًا للأحكار التى نشأت إلى الشمال في منطقة اللوق.

ومن بين المساجد الستة التى أقيمت فى العصر الأيوبى، لم يكن داخل القاهرة منها إلا مسجد واحد فقط، وهو ما يعكس أمرين: أولهما استمرار استخدام المساجد التى كانت قائمة بالفعل في المدينة الفاطمية، وثانيهما انتقال السكان إلى الضواحي. فمسجد نجم الدين أيوب يعكس التطور الذى حدث فى منطقة الحسينية. ومن بين الثلاثة المساجد التى تقع بين القاهرة والفسطاط، يعتبر مسجد رسلان في حارة اليانسية منشأة فى منطقة عسكرية فاطمية هجرت، طبقًا لعبد اللطيف البغدادى، خلال المجاعة التى حدثت بين عامى ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م و ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م. ومسجد صواب والمسجد الذى بحوض ابن هنس، واللذان تأسسا خلال عهد الملك الصالح كانا يقعان فى صليبة ابن طولون والشاطئ الشرقى لبركة الفيل على الترتيب. وقد وصف سعيد المغربى تلك المناطق بأنها كانت عامرة في زمانه، ولكن إلى أى مدى كانت عامرة، فهذا موضع نقاش، كما أشرنا فى الفصل الثالث. وأخيرًا فالجامع الذى أنشئ فى القلعة، ويعتقد أن الملك الكامل هو الذى أنشأه، كان يخدم احتياجات تأسيس القصر.

خوانق ورُبُط(*) وزوايا

يعرف المقريزى الخانقاه بأنها جعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعـــالى، أما الرباط فهو دار يسكنها أهل طريق الله(١١٦). وبينما يربك(**)هذا التمييز كاتـــب هذه السطور، نجد معجم كازانوفا يعرف الخانقاه بأنها دير كبير للصوفية، والرباط بأنه دير أو مأوى، مما يوحى بمجرد اختلاف فى الحجم(***).(١١٧) والزاوية يقصد بها مسجد صغير أو مدرسة أو (خاصة فى حالة جامع عمرو) قسم فى مسجد كبير يستخدم تحديدًا لأغراض التدريس. ويقول القلقشندى إن الربط والخوانق لم توجـــد فى مصر قبل العصر الأيوبى، ويبدو أن ذلك ينطبق على الزوايا أيضًا، على الأقل بالنسبة لما كان منها مستقلاً عن منشآت سابقة(١١٨).

الخانقاه الصلاحية

يقول المقريزى:

> هذه الخانكاه بخط رحبة باب العيد من القاهرة، كانت أولاً دارًا تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء، وهـــو الأســـتاذ قنبـــر، ويقال عنبر، وذكر ابن ميسر أن اسمه بيان ولقبه سعيد السعداء، أحد

(*) فى النص الإنجليزى ورد جمع رباط "رباطات"، ولا أدرى من أين جاء المؤلف بهذا الجمع، فالمقريزى يجمعها رُبُط، وكذلك ورد جمعها فى المعجم الوسيط.

(**) لا أدرى سببًا لارتباك فهم المؤلف هنا، فعبارة المقريزى واضحة: الخانقاة للعبادة والانقطاع لله، والرباط للسكنى. (المترجم)

(***) أختلف مع ما ذهب إليه المؤلف من أن الاختلاف فى الحجم فقط، فالغرض من إنشاء كل منهما مختلف، وإن اشترك الاثنان فى بعض الوظائف. (المترجم)

الأستاذين المحنكين خدام القصر عتيق(*) الخليفة المستنصر... وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة. فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها وفتح من دار الوزارة إليها سرداباً تحت الأرض ليمر فيه ثم سكنها الوزير شاور بن مجير في أيام وزارته ثم ابنه الكامل، فلما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة [١١٧٣ – ١١٧٤ م] وولى عليهم شيخاً ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة وقيسارية الشراب بالقاهرة وناحية دهمرو من البهنساوية وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فما دونها كانت للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطاني ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره ورتب للصوفية فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبنى لهم حماماً بجوارهم فكانت أول خانكاه عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ واستمر ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة [١٤٠٣ – ١٤٠٤م] واتضعت الأحوال وتلاشت الرتب(١١٩).

كانت الخانقاه الصلاحية (رقم ٤٦، خريطة ١) تقع فى شارع الجمالية مقابلة تقريباً لمدرسة قارسنقر(١٢٠).

(*) سقطت كلمة "عتيق" من النص الإنجليزى، ربما لأنها أشكلت على المؤلف لورودها بعد كلمة "القصر" فظنها القصر العتيق، وهو ما لا يتفق مع السياق فأسقطها،ومعناها أن بيان الملقب بسعيد السعداء كان عتيق الخليفة المستنصر، أى كان من أرقائه فأعتقه. (المترجم)

الرباط بالمقس

طبقًا لابن خلكان فقد أنشأ قراقوش رباطًا بالمقس، ولكن لا توجد معلومات أخرى عنه(١٢١).

رباط صفى الدين بن شكر

أنشأ صفى الدين بن شكر رباطًا (رقم ٤٧، خريطة ١) وحمامًا بالقرب من مدرسته (الصاحبية)، وكانت المدرسة الصاحبية تقع فى سويقة الصاحب بالقرب من التقاء شارع الأزهر وشارع بين السورين، إلى الشرق مباشرة من الخليج(١٢٢).

رباط فخر الدين بن قزل

أنشأ فخر الدين بن قزل، أستادار الملك الكامل، رباطًا فى القرافة وبجواره كتاب سبيل. وقد توفى ابن قزل سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ – ١٢٣٢م(١٢٣).

زاوية القصرى

يقول المقريزى:

> هذه الزاوية بخط المقس خارج القاهرة عرفت بالشيخ أبى عبد الله محمد بن موسى عبد الله بن حسن القصرى،... الفقيه المالكى المغربى، قدم من قصر كتامة بالمغرب إلى القاهرة، وانقطع بهذه الزاوية على طريقة جميلة من العبادة وطلب العلم إلى أن مات بها فى ... سنة ثلاث وثلاثين وستمائة [١٢٣٥ – ١٢٣٦م](١٢٤).

زاوية الشيخ أبي الخير

هذه الزاوية بخط دار النحاس بحضرة بستان العالمة مطلة على بحر النيـــل عمرها لأبي الخير السلطان لملك الصالح نجم الدين أيوب فلم يزل بها إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى وبقى بها أولاده(١٢٥). وخط دار النحاس هذه كانت تقع علـــى شاطئ النيل بالفسطاط إلى الجنوب مباشرة من فم الخليج(١٢٦).

زاوية الخدام

يقول المقريزى أن هذه الزاوية كانت تقع خارج باب النصر فيما بين شـــقة باب الفتوح من الحسينية وبين شقة الحسينية خارج باب النصر "أنشأها الطواشـــى بلال الفراجى، وجعلها وقفًا على الخدام الحبش الأجناد في ســـنة ســـبع وأربعـــين وستمائة [١٢٤٩ – ١٢٥٠م] ."(١٢٧)

ملخص

تأسست بالقاهرة والفسطاط فى العصر الأيوبى خانقاه واحدة وثلاثـــة ربـــط وثلاث زوايا. وتمثل الخانقاه التى أنشأها صلاح الدين واحدة مـــن أعمـــال البـــر والسياسة التى كان يهدف منها إلى استعادة المذهب السنى لمكانته، وكانت تقع فـــى قلب المدينة الفاطمية. وقد أوجد إنشاؤها، طبقًا للابيدوس، "مركزًا للتنظيم الصوفى يماثل المكانة التى يتبوأها القاضى على رأس المذهب الشافعى."(١٢٨) وكـــان وراء إنشاء الربط علية القوم من الساسة، فكان رباط قراقوش في المقس، تلك المنطقـــة التى استعادت حيويتها بفضله، ورباط ابن شكر بالقرب من مدرسته ورباط فخـــر الدين في القرافة، تلك المنطقة المتخمة بالأوقاف الدينية. وبالنـــسبة للزوايـــا التـــى تأسست فى أخريات العصر الأيوبى فثلاثتها كانت تقع فى ضواحى المناطق التـــى

عادت كثافتها السكانية إليها (أى: زاوية القصرى فى المقس، وزاوية الشيخ أبى الخير التى أسسها الملك الصالح على أرض جديدة كونها طرح النهر بالفسطاط وكانت قريبة نسبياً من قلعته الجديدة بالروضة، وزاوية الخدام بالحسينية.) تلك الزوايا يبدو أنها تأسست لشخصيات دينية قليلة الشأن نسبياً. أما تلك التى كانت بجامع عمرو فهى ظاهرة مختلفة وقد ناقشناها فيما سبق.

ويبدو أن الخوانق والربط والزوايا (ككيانات مستقلة) قد أدخلت إلى القاهرة والفسطاط فى العصر الأيوبى. وعلى الرغم من قلة عددها فإنها كانت، مع ذلك، النموذج الذى أثار تنافسًا محمومًا فى العصر المملوكى(*).

المارستانات

أنشأ صلاح الدين مارستانًا (أو بيمارستانًا) فى القاهرة وآخر فى الفسطاط. ومصادرنا الأساسية حول المنشأتين هى نصوص المقريزى والقلقشندى وابن جبير، والتى سنناقشها فيما يلى.

يقول المقريزى:

(*) عادةً ما يعزو المؤرخون تشجيع الأيوبيين، ومن بعدهم المماليك، للتصوف والمتصوفة إما إلى حب الخير والثواب، أو إلى رغبتهم فى إشاعة العزوف عن الدنيا بين الرعية - خاصة فى عهد المماليك - ليستطيعوا الاستئثار بخيرات البلاد بسهولة أكبر. على أنى أرى لذلك سببًا قد يكون أقرب للمنطق، وربما خفى على الكثير من المؤرخين. هذا السبب هو أن الشافعي، الذى كان صلاح الدين على مذهبه، واحتفى به أيما احتفاء يعتبر أيضًا من أعمدة التصوف، ويحظى عند المتصوفة بمكانة خاصة. هذه الحقيقة كانت بلا أدنى شك حاضرة وشائعة على أيام صلاح الدين، وبالتالى فقد كان من الطبيعى أن يشجع الرجل، ثم ورثة حكمه، الصوفية، لما للشافعى من إجلال عندهم، ولما للتصوف من مكانة عنده. (المترجم)

قال القاضي الفاضل في متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة [١١٨٢ م]: "في تاسع ذي القعدة أمر السلطان - يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب - بفتح مارستان للمرضى والضعفاء فاختير له مكان بالقصر وأفرد برسمه من أجرة الرباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار وغلات جهاتها الفيوم واستخدم له أطباء وطبائعيين وجرايجيين ومشارف وعاملاً وخدامًا ووجد الناس به رفقًا وإليه مستروحًا وبه نفعًا وكذلك بمصر أمر بفتح مارستانها القديم وأفرد برسمه من ديوان الأحباس ما تقدير ارتفاعه عشرون دينارًا واستخدم له طبيب وعامل ومشارف وارتفق به الضعفاء وكثر بسبب ذلك الدعاء. وقال ابن عبد الظاهر: "كان قاعة بناها العزيز بالله في سنة أربع وثمانين وثلثمائة وقيل إن القرآن مكتوب في حيطانها ومن خواصها أنه لا يدخلها نمل الطلسم بها. ولما قيل ذلك لصلاح الدين رحمه الله قال هذا يصلح أن يكون مارستانًا وسألت مباشريه عن ذلك فقالوا إنه صحيح. وكان قديمًا المارستان فيما بلغني القشاشين [سوق جامعي القش] وأظنه المكان المعروف بدار الديلم انتهى [أي رواية ابن عبد الظاهر] والقشاشين المذكورة تعرف اليوم بالخراطين المسلوك فيها إلى الخيميين والجامع الأزهر(١٢٩).

ويورد القلقشندي رواية مختلفة قليلاً - وأكثر وضوحًا - عن رواية ابن عبد الظاهر:

بلغني أن البيمارستان كان أولاً بالقشاشين، يعني المكان المعروف الآن بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر، وكانت هناك دار الضرب بناها المأمون البطائحي وزير الآمر قبالة البيمارستان المذكور...ثم لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية واستولى على القصر، كان في القصر قاعة

بناها العزيز بن المعز...فجعلها السلطان صلاح الدين بيمارستانًا، وهو البيمارستان العتيق الذى داخل القصر، وهو باقٍ على هيئته إلى الآن[١٣٠].

ويقول ابن جبير:

> ومما شاهدناه أيضًا من مفاخر هذا السلطان [أى صلاح الدين] المارستان الذى بمدينة القاهرة. وهو قصر من القصور الرائقة حسنًا واتساعًا أبرزه لهذه الفضيلة تأجرًا واحتسابًا، وعين قيّمًا من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسَى. وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم وبإزاء هذا الموضع، موضع مقتطع للنساء المرضى. ولهن أيضًا من يكفلهن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد، اتخذت محابس للمجانين. ولهم أيضًا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم، ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد فى الاعتناء بها، والمثابرة عليها غاية التأكيد. وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه[١٣١].

يبدو أن مارستانى صلاح الدين بالقاهر والفسطاط كانا قد حلا محل منشأتين سابقتين على العصر الأيوبى، فحل المارستان العتيق، الذى أنشأه صلاح الدين فى القاهرة محل مارستان فاطمى فى سوق الخراطين (وكان يقع طبقًا لرافيس، تقريبًا فى مواجهة مدرسة الأشرف فى شارع المعز لدين الله)، كان قد أنشئ فى إيوان مجدد من القصر الفاطمى. وبالنسبة لفتح المارستان القديم بالفسطاط، فبالرغم من أن تعيينه يظل محل تساؤل، فإنه ربما يشير إلى مارستان كافور الإخشيدى[١٣٢].

مناطق الجبانات

تعتبر القرافة هى الموضع الأصلى لجبانة المسلمين فى الفسطاط والقاهرة، وتمتد هذه الجبانة العظيمة حاليًا إلى الجنوب الشرقى من مشهد السيدة نفيسة ويحدها المقطم من الشرق وتلال الفسطاط من الغرب. يقول المقريزى:

لأهل مدينة مصر ولأهل القاهرة عدة مقابر وهى القرافة. فما كان منها فى سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى وما كان منها فى شرقى مصر بجوار المساكن يقال له القرافة الكبرى. وفى القرافة الكبرى كانت مدافن أموات المسلمين منذ افتتحت أرض مصر واختط العرب مدينة الفسطاط. ولم يكن لهم مقبرة سواها، فلما قدم القائد جوهر من قبل المعز لدين الله وبنى القاهرة وسكنها الخلفاء اتخذوا بها تربة عرفت بتربة الزعفران قبروا فيها أمواتهم، ودفن رعيتهم من مات منهم فى القرافة إلى أن اختطت الحارات خارج باب زويلة فقبر سكانها موتاهم خارج باب زويلة مما يلى الجامع فيما بين جامع الصالح وقلعة الجبل وكثرت المقابر بها عند حدوث الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر ثم لما مات أمير الجيوش بدر الجمالى دفن خارج باب النصر فاتخذ الناس هنالك مقابر موتاهم وكثرت مقابر أهل الحسينية فى هذه الجهة ثم دفن الناس الأموات خارج القاهرة فى الموضع الذى عرف بميدان القبق فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر وبنوا هناك الترب الجليلة ودفن الناس أيضاً خارج القاهرة فيما بين باب الفتوح والخندق[١٣٣].

ويضيف فى فقرة أخرى عن القرافة:

واعلم أن الناس فى القديم إنما كانوا يقبرون موتاهم فيما بين مسجد الفتح وسفح المقطم واتخذوا الترب الجليلة أيضًا فيما بين مصلى

خولان وخط المغافر التى موضعها الآن كيمان تـراب وتعـرف الآن بالقرافة الكبرى فلما دفن الملك الكامل... ابنه فى سنة ثمان وسـتمائة [١٢١١ – ١٢١٢] بجوار قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعي وبنـى القبة العظيمة على قبر الشافعي وأجرى لها الماء من بركـة الحـبش بقناطر متصلة منها نقل الناس الأبنية من القرافة الكبرى إلى ما حول الشافعى وأنشأوا هناك الترب فعرفت بالقرافـة الـصغرى وأخـذت عمائرها فى الزيادة...وأما القطعة التى تلى قلعة الجبل فتجددت بعـد السبعمائة من سنى الهجرة [١٣٠٠ – ١٣٠١ م] (١٣٤)

كانت القرافة، حتى فى العصر الأيوبى، حيًّا قائمًا بذاته؛ حيث كانـت قبلـة للزائرين وكانت تعجُّ بالأضرحة والمساجد والجواسق، كما كان بها سـوق. وقـد بلغت كثرة زائريها حدًّا وُجد معه بعض الأدلاء، ومهدت له الطرق لتيسير حركـة الزائرين. وكانت بالإضافة إلى ذلك متنزهًا لأهالى القاهرة والفـسطاط. وقبـل أن نتطرق لتحليل وضع القرافة فى العصر الأيوبى، سوف نتناول ما ورد من وصف معاصر للجبانة، وأهم الأضرحة بها، والنظام الذى فُرض فى زيـارة الأضـرحة الكبرى فى عهد الملك الكامل، والمقابر والأضرحة التى أقامها الأيوبيون أنفسهم.

وصف ابن جبير:

وفى ليلة اليوم المذكور [الأربعاء ١١ ذو الحجة ٥٧٨ هـ / ٨ أبريل ١١٨٣م] بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة، وهـى أيـضًا إحـدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله علـيهم، وأهل البيت رضوان الله عليهم، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة...

وأسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة إنما تلقيناها من التواريخ الثابتة عليها مع تواتر الأخبار بصحة ذلك، والله أعلم بها. وعلى كـل

واحد منها بناء حفيل، فهى بأسرها روضات بديعة الإتقان عجيبة البنيان، قد وكل بها قَوَمة يسكنون فيها ويحفظونها، ومنظرها منظر عجيب، والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر...

مشهد الإمام الشافعى رضى الله عنه، وهو من المشاهد العظيمة احتفالاً واتساعًا، وبنى بإزائه مدرسة لم يُعمَر بالبلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام، إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى. وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله، ويقول: زد احتفالاً وتأنقًا، وعلينا القيام بمئونة ذلك كله. فسبحان الذى جعله صلاح دينه كاسمه. ولقينا هذا الرجل الخبوشانى المذكور تبركًا بدعائه، لأنه قد كان ذُكر لنا أمره بالأندلس. فألفيناه فى مسجده بالقاهرة، وفى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور، وهو بيت ضيق الفناء، فدعا لنا. وانصرفنا ولم نلق من رجال مصر سواه...

ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية، ومشاهد معمورة، يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء، والإجراء على كل موضع منها متصل من قِبَل السلطان فى كل شهر. والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك، وحُقّق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيِّفٌ على ألفى دينار مصرية فى الشهر، وهى أربعة آلاف دينار مؤمنية(١٣٥).

وصف ياقوت الرومى:

[القرافة] هى جبانة أهل مصر، وفيها مبان رائعة ومحال واسعة وسوق عظيمة، وبها مشاهد أولياء وتُرَب قواد مثل ابن طولون...

شاهدة على الجلال والعظمة. وفيها قبر الإمام ... الشافعى فى مدرسة لفقهاء الشافعية. وهى من متنزهات أهل القاهرة ومصر، خاصة أيام الأعياد(١٣٦).

وصف ابن سعيد

ذكر ابن سعيد المغربى (حوالى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ – ١٢٤١م):

وبت ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط وهى فى شرقيها بها منازل الأعيان بالفسطاط والقاهرة، وقبور عليها مبان معتنى بها، وفيها القبة العالية العظيمة المزخرفة التى فيها قبر الإمام الشافعى رضى الله عنه وبها مسجد جامع وترب كثيرة عليها أوقاف للفقراء ومدرسة كبيرة للشافعية ولا تكاد تخلو من طرب، ولاسيما فى الليالى المقمرة، وهى معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم(١٣٧).

الزيارات

على الرغم من أن زيارة القرافة عادة ما كانت تتم بشكل فردى، فإن محاولات قد جرت لحشد الزوار إلى بعض الأضرحة المباركة فى ليال بعينها متخذين إليها طرقًا محددة. فقد وضع الأيوبيون لزيارة مشهد السيدة نفيسة نقطة بداية (ونهاية). وفى ذلك يقول المقريزى:

اعلم أن زيارة القرافة كانت أولاً يوم الأربعاء ثم صارت ليلة الجمعة. وأما زيارة يوم السبت فقيل إنها قديمة وقيل متأخرة. وأول من زار يوم الأربعاء وابتدأ بالزيارة من مشهد السيدة نفيسة الشيخ صالح أبو محمد عبد الله بن رافع بن يزحم بن رافع السارعى الشافعى المغافرى الزوار المعروف بعابد ومولده سنة إحدى وستين وخمسمائة

[١١٦٥ م] ووفاته بالهلالية خارج باب زويلة في ... سنة ثمان وثلاثين وستمائة [١٢٤٠ – ١٢٤١ م] ودفن بسفح المقطم على تربة بني نهار بحرى تربة الرديني. وأول من زار ليلة الجمعة الشيخ الصالح المقرى أبو الحسن على بن أحمد بن جوشن المعروف بابن الجباس والد شرف الدين محمد بن على بن أحمد بن الجباش، فجمع الناس وزار بهم في ليلة الجمعة في كل أسبوع وزار معه في بعض الليالي السلطان الملك الكامل... ومشى معه أكابر العلماء ... وحكى الموفق بن عثمان عن القضاعي أنه كان يحث على زيارة سبعة قبور[١٣٨].

ويورد المقريزى قائمة بقبور سبعة مشايخ هم: الدينورى وعبد الصمد البغدادى والمزنى والقاضى المفضل بن فضالة والقمنى وذو النون والقاضى بكار بن قتيبة. ويورد المقريزى أيضًا قائمتين أخريين تقترح كل منهما سبعة أخر[١٣٩].

ويضيف ماسينيون، جمعًا من عدة مصادر، ما يلى:

بدأت الزيارة الرسمية الأسبوعية في مساء الجمعة في عهد الملك الكامل، وكان ذلك بإيعاز من ابن الجباس... وبتشجيع من أستاذه الروحى فخر الفارسي، وربما قبلهم من أمه الملكة شمس شاه.

وكان هناك نقيب للزوار وشيوخ الزيارة وصاحب الشرطة للقرافة.

. وهذا التنظيم الفريد في العالم الإسلامي اقتضته الضرورة نظرًا للعدد الكبير للزوار نساءً كانوا أم رجالاً ونساءً، والذين كانوا يتوافدون على القرافة بكرةً وعشيًّا دونما وجود إشراف بين المقابر[١٤٠].

بعض العمائر الجنزية الأيوبية

كانت العمائر الجنزية الأيوبية المهمة تقع كلها في القرافة ، باستثناء ضريح الملك الصالح بمدرسته في القاهرة. وسوف نذكرها بترتيبها الزمني فيما يلي.

مصلى ابن الأرسوفي (المصلى الشريفية)

طبقًا للمقريزي "كان بدرب القرافة بحارة الجباسين وخطة الصدف بناه أبو محمد عبد الله بن الأرسوفي الشامي التاجر سنة سبع وسبعين وخمسمائة [١١٨١ – ١١٨٢ م] [١٤١] وابن الأرسوفي هذا كان تاجرًا من عسقلان وأقام مدرسة بالفسطاط سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ – ١١٧٥م وتوفي بالفسطاط سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ – ١١٩٧ م. ومن المحتمل أن يكون قد دفن في مصلاه أو بالقرب منه.

قبر ابن فروح الشاطبي

يقع ضريح ابن فروح (كذا) الشاطبي "القارئ العظيم"، طبقًا لماسينيون، إلى الجنوب الشرقي من القرافة بمحاذاة المقطم، ويقال إنه متصل بضريح القاضي الفاضل. وقد توفي الشاطبي سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ – ١١٩٩ م[١٤٢] .

قبر شهاب الدين الطوسي

يقع إلى الجنوب الغربي من ضريح الإمام الشافعي. ويقول ماسينيون عن شهاب الدين الطوسي (توفي ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ – ١٢٠٠ م) إنه كان:

> فقيهًا شافعيًا وواعظًا مفوهًا مستقل الشخصية أثار الكثير من الحنق [من الشيعة والحنابلة على حد سواء] في بغداد، ثم استقدمه

صلاح الدين إلى القاهرة حيث ولاه خانقاه السعداء أولاً ثم منازل العز [٥٩٧ هـ / ١١٨٣ - ١١٨٤م] وكان مصلحًا أخلاقيًا[١٤٣].

قبر الإمام الشافعى

كما أشرنا فى السابق، فقد تمثل اهتمام الأيوبيين بهذا الضريح المهم فى بناء مدرسة صلاح الدين بجواره. أما القبة العظيمة التى تعلو الضريح (مازالت قائمة) فقد أقامها الملك الكامل سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ - ١٢١٢ م وضمنها مقابر ابنه وأمه شمس شاه والملك العزيز. وقد تكلفت القبة، طبقًا لرواية المقريزى، ٥٠,٠٠٠ دينار مصرية. وقد أجرى لها الملك الكامل الماء من بركة الحبش ورتب لقبر أمه قراءً للقرآن وكان يوزع بها الصدقات. (هل اختلف ذلك عما كان يجرى بضريح الشافعى نفسه؟ بقى ذلك محل تساؤل). وقد نقل عدد من المقابر لمواضع أخرى بالقرافة أثناء تشييد القبة. بيد أن هذا البناء الجديد سرعان ما اجتذب المبانى والناس إلى منطقة ضريح الشافعى (القرافة الصغرى) فأهملت القرافة الكبرى فى الشرق والجنوب الشرقى وهجرت[١٤٤].

ضريح أبى منصور إسماعيل فخر الدين بن ثعلب

تقع أطلال ضريح الشريف ابن ثعلب (رقم ١١٢، خريطة ٣) على الجانب الغربى من شارع الإمام الشافعى على مقربة من قبر الشافعى وإلى الجنوب منه. وقد تولى ابن ثعلب إمارة الحج سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤ - ١١٩٥ م، وكان من أمراء الملك العادل، وأنشأ المدرسة الشريفية بالقاهرة. ويرجع تاريخ الضريح إلى تاريخ وفاته سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ - ١٢١٦ م. ويعتقد كريزويل أن وجود الضريح وإيوان يعنى أن هذا القبر ربما كان جزءًا من مدرسة ذات إيوانين[١٤٥].

ضريح الفخر الفارسى

(رقم ١٠٣، خريطة ٣). يقع ضريح الفخر الفارسى (تــوفى ٦٢٢ هـــ / ١٢٢٥ – ١٢٢٦ م) فى الطرف الجنوبى من القرافة (بوضعها الحالى) فى شــارع سيدى عقبة، وإلى الجنوب الشرقى من قبر الإمام الليث(١٤٦).

قبر أبى العباس أحمد هرار

كان هذا القبر، طبقًا لماسينيون، يقع بالقرافة الكبرى بــالقرب مــن مــسجد الفتح. وقد كان هــرار ناســكًا، وتــوفى حــوالى ســنة ٦٣٠ هـــ / ١٢٣٢ – ١٢٣٣م(١٤٧).

قبر الخلفاء العباسيين

يقع قبر الخلفاء العباسيين (رقم ١١٣، خريطة ٣) بجــوار مــشهد الــسيدة نفيسة. وأقدم نُصُب فيه لأبى نِدْله رسول الخليفة العباسى فى بغــداد (تــوفى ٦٤٠ هـــ/ ١٢٤٢ – ١٢٤٣ م) وهو ما يوحى بأن الضريح نفسه كان من منشآته هــو. ودفن فى نفس الضريح بعد ذلك أبناء السلطان بيبرس البندقدارى وبعــض أبنــاء سلالة الخلفاء العباسيين الذين نقلهم بيبرس من بغداد إلى القاهرة ليــضفى شــرعية على سلطنته(١٤٨).

قبر أبى السعود الواسطى

كان أبو السعود الواسطى ناسكًا توفى سنة ٦٤٤ هـــ / ١٢٤٦ – ١٢٤٧ م، وتقع مقبرته على حافة المقطم إلى الجنوب من قبر الشاطبى(١٤٩).

قبر شجرة الدر

أنشئت مقبرة أرملة الملك الصالح (رقم ١١٤، خريطة ٣) سنة ٦٤٨ – ٦٤٩ هـ / ١٢٥٠ م، وتقع فى شارع الخليفة بأقصى الطرف الشمالى من القرافة.

جبانات النصارى واليهود

تقع جبانات النصارى بالقاهرة والفسطاط، كما وصفها أبو صالح الأرمنى، فى منطقة من الفسطاط كانت تُعرف بالحمراء، وإلى الجنوب من الفسطاط بالقرب من بركة الحبش. وعادة، ولكن ليس دائمًا، ما كانت مقابرهم مرتبطة بالكنائس و/أو الأديرة. ونخص بالذكر منها الجبانة التى تقع خارج كنيسة الحمراء العظيمة وتلك التى تقع خارج كنيسة ودير أبى مينا (إلى الغرب من مشهد زين العابدين بالقرب من فم الخليج) وجبانة كنيسة القديس أبى نفر والتي كانت تقع طبقًا لابن دقماق بالحمراء الوسطى بخط البكارة[١٥٠]. وعلى الرغم من وجود عدد من الكنائس والأديرة في منطقة بركة الحبش، فإن الجبانات التى ذكرها أبو صالح يبدو أنها غير مرتبطة بها، وهو ما يوضحه وصفه؛ حيث يقول:

> هناك مدافن للنصارى الأقباط اليعاقبة وبطاركة مصر بمنطقة الحبش، وقد دفن بها جثمان الأنبا زخارياس البطرك الرابع والستون ويتبرك الناس به...وفيها أيضًا مقابر بطاركة مصر، وبالقرب منها بئران يجرى الماء منهما أنشأ أحدهما أبو الحسن سيد بن منصور الكاتب وثانيهما الناصر حفار القبور. وبالمدافن أثر غريب من الحجر الأسوانى نحتت فيه نقط على شكل صليب... وعلى الطرف العلوى لتلك الأرض تقع جبانة لليهود والسامريين... بيد أن الملكانيين ليس لهم جبانة فى منطقة الحبش، ولكنهم يدفنون بمقابر داخل كنائسهم

وبالتل الذى يقوم عليه دير القصير. ويـدفن الأرمـن والنـسطوريون كذلك فى كنائسهم[١٥١].

ملخص

كانت القرافة فى العصر الأيوبى جبانة فريدة فى العـالم الإسـلامى. فقـد جمعت بين عدد من المظاهر المتناقضة، فكانت مركز تقديس دينى ومتنزهًا، كمـا كانت مقصد الزائرين الفرادى، ومحط محاولة لتنظيم زيارات جماعيـة. وكانـت تضم المقابر والمشاهد المهيبة جنبًا إلى جنب مع القصور والأسواق، وكـان بهـا النبلاء والعلماء مجاورين للفقراء الذين يعيشون وسط المقابر. وكان صلاح الـدين والملك الكامل أكثر بنى أيوب أيادى على القرافة، فتمثلت أيادى صلاح الدين فـى المدرسة التى أنشأها بجوار ضريح الشافعى إلى جانب دعمـه المـادى لمنـشآت القرافة، وكان للملك الكامل الفضل فى الاهتمام بالزيارات وإقامته للقبة التى تعلـو قبر الشافعى. وقد اجتذبت هذه القبة المدافن والسكان إلى القرافة الصغرى، فهجرت القرافة الكبرى.

لقد أقيمت كل المقابر الكبرى فى العصر الأيـوبى، باسـتثناء قبـر الملـك الصالح، فى القرافة. وعلى الرغم من وجود جبانات فى منطقة الـدرب الأحمـر والحسينية، على الأقل منذ أواخر العصر الفاطمى، فإن تلك الجبانات لم يـرد لهـا ذكر فى التاريخ الأيوبى، كما أن جبانة الدرب الأحمر ربما نقلها الأيوبيون أثنـاء بناء القلعة. أما مدافن النصارى واليهود، والتى كان بعضها محط تقـديس، فقـد كانت تقع فى منطقة الفسطاط وبركة الحبش، وعادة، ولكن ليس دائما، مـا كانـت مرتبطة بالكنائس والأديرة.

الكنائس والأديرة في العصر الأيوبى المبكر

يعدّ أبو صالح الأرمنى هو المصدر الأساسى فيما يتعلق بالكنائس والأديرة بالقاهرة والفسطاط فى عهد صلاح الدين. بيد أن روايته تركز على المنشآت الواقعة فى الجنوب والجنوب الغربى من القاهرة، ولا تقدم، بحال من الأحوال، قائمة كاملة بالمؤسسات المسيحية فى منطقة القاهرة الكبرى. ومع التسليم بأن التركز الأكبر للكنائس والأديرة كان فى منطقة الحمراء والفسطاط وبركة الحبش، بوجه عام، فإن أبا صالح يتجاهل تمامًا الكنائس التى كانت تقع داخل القاهرة نفسها، بل والكنائس والأديرة الواقعة فى قصر الشمع بالفسطاط. فقد تركز اهتمامه على التقلبات التى شهدتها الكنائس والأديرة التى تقع فى المناطق المطروقة، خاصة فيما يتعلق بالمشاعر المناوءة للمسيحية بفعل كراهية مسلمى البلاد للصليبيين،أو برغبة الغوغاء فى نهب تلك المنشآت التى لا تتمتع نسبياً بالحماية، كما اهتم أيضًا بأعمال الترميم التى شهدتها فى عهد صلاح الدين.

ذكرنا فيما سبق، عند حديثنا عن حريق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م ، موقع أهم المؤسسات المسيحية فى الحمراء (انظر الفصل الثالث). ويهمنا هنا أن نتناول الهجمات المتتالية التى تعرضت لها الكنائس والأديرة والتمييز ضدها، وكذلك تواريخ ترميمها و/ أو إعادة افتتاحها. فقد أحرق الغز والكرد كنيسة الحمراء الكبرى وكنيسة الملاك جبريل ودير القديس مينا فى سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م أو تقريبًا فى تلك السنة، ثم جرى ترميمها على الترتيب سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ – ١١٦٥م فى عهد الخليفة العاضد، وخلال وزارة شاور (أى خلال السنوات الثمانى التى تلت تدميرها). وهناك كنيستان أخريان هما كنيسة القديس أبى نقر وكنيسة أبى السيفين، وقد احترقتا فى حريق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ثم أصابتهما أعمال العنف التى قام بها الغوغاء بعيد الحريق. وقد رممتا سنة ٥٧٨ –٥٧٩ هـ / ١١٨٣ و ٥٧٠ – ٥٧١ هـ / ١١٧٤ – ١١٧٦ م على الترتيب. وشملت أعمال الترميم الأخرى كنيستين صغيرتين أو هيكلين اختُلف فى

نسبة كل منهما إلى كنيسة الحمراء وكنيسة أبى السيفين. وقد جرت تلك الترميمات التى ربما أعادت بناء ما أتى عليه الحريق فى أعوام ٥٦٨هـ / ١١٧٢ – ١١٧٣م و٥٧١ – ٥٧٢ هـ / ١١٧٥ – ١١٧٧م و٥٧٦ – ٥٧٧ هـ / ١١٨٠ – ١١٨٢م[١٥٢]

وقد جرى نهب أربع كنائس في منطقة القاهرة، دونما ذكر لحرقها، هى كنائس القديس بقطر ومارمرقس فى الجيزة وقد هاجمها الغز والكرد دون أن نعلم لذلك تاريخًا، وكنيسة لم تسم فى الحمراء مطلة على الخليج نهبت أيضًا فى وقت حريق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م، وكنيسة القديس يوحنا فى بركة الحبش، والتى هاجمها السودان (لا نعرف التاريخ) ثم أعيد ترميمها سنة ٥٧٩ – ٥٨٠هـ/ ١١٨٤ م. ومن بين تلك الأربعة لسنا متأكدين إلا من ترميم الأخيرة فقط[١٥٣].

بالإضافة إلى ذلك، فهناك كنيستان أغلقتا ثم أعاد الحكام المسلمون فتحهما. فقد أغلقت كنيسة الزهرى بسبب مواجهات وقعت بين المسلمين والمسيحيين سنة ٥٧٢ – ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م ثم أعيد فتحها بأمر من صلاح الدين بعد وقت قصير. وثانيتهما هى كنيسة البساتين التى كانت للأرمن ثم أصبحت بعد ذلك من كنائس الأقباط، وقد أغلقها الفقيه الطوسى سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م، ثم أعيد فتحها بأمر من الملك العادل فى السنة التالية. وتشمل الكنائس الأخرى التى شهدت أعمال ترميم أو أعيد افتتاحها كنائس الحيوانات الأربعة فى الحمراء سنة ٥٧١ – ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م وكنيسة القديس مينا ببركة الحبش سنة ٥٧٣ هـ / ١٤٧٨م ومطبخ فى الحمراء أعيد بناؤه ككنيسة كرست للسيدة العذراء سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٧ م[١٥٤].

وعلى الرغم من أعمال الحرق والنهب والإغلاق التى شهدتها الكنائس والأديرة فى منطقة القاهرة، فإن حكومة صلاح الدين لم تسمح فقط بترميم المنشآت المضارة وإعادة فتح الكنائس المغلقة بشكل رسمى، ولكنها سمحت أيضًا بتجديد بل وبتوسيع بعض المؤسسات التى لم يصبها من المسلمين ضرر.

الكنائس والأديرة فى أواخر العصر الأيوبى

إن معلوماتنا عن الكنائس فى أواخر العصر الأيوبى، والتى استقيناها أساسًا من تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، قليلة ومتفرقة وغير ذات دلالة كبيرة. فنحن نعلم أن زريبة كنيسة الروضة بالمقياس قد انهارت سنة ٦٣٤ – ٦٣٥ هـ / ١٢٣٦ – ١٢٣٧ م فأتى النيل على بستانها وعلى جزء من بنائها، كما خُشى أن يصل الماء إلى جامع المقس القريب منها. وعهد الملك الكامل إلى البطرك بإجراء الترميمات اللازمة، فقام بعمارة عظيمة تكلفت ألف دينار. بيد أن الكنيسة لم تهنأ طويلاً بهذه الترميمات حيث أمر الملك الصالح بإغلاقها سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ – ١٢٤٣ م لفتح الطريق لبناء القلعة. وهناك ملاحظة جانبية تجدر الإشارة إليها هنا، وهى أن كنيسة أبى السيفين بالفسطاط قد استخدمت لإيواء أسرى الفرنجة الذين استخدموا فى بناء قلعة الروضة(١٥٥).

الكُنُس

يذكر بنيامين الطليطلى الذى وضع كتابه أثناء خلافة العاضد أن الفسطاط كان بها ألفا يهودى وكنيسين. ومن المحتمل، ولكن ليس من المؤكد، أن يكون قد زار الفسطاط بعد حريقها الذى وقع سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م(١٥٦).

ملخص

أوردنا فيما سبق ملخصًا لكل نوع من المؤسسات الدينية فيما تقدم من هذا الفصل. بيد أننا نود أن نشير هنا إلى تنوع الرعاية التى أولاها أهم أربعة سلاطين لتلك المؤسسات، وهم صلاح الدين والملك العادل والملك الكامل والملك الصالح. فصلاح الدين كان أول من أدخل المدرسة والخانقاه إلى مصر. كان غرضه من

المدارس إعادة المذهب السنى إلى مصر ومن الخانقاوات خلق مركزًا للصوفية يوازى وضع القاضى على رأس المذهب الشافعى، والذى كان الحاكم هو الذى يسميه." (١٥٧) كذلك قام بترميم المساجد الكبرى وأسس المستشفيات ومدرسة للفقراء ومأوى للغرباء من المغاربة. وكان جانب عظيم من صيانة المقابر والأضرحة ذات القدسية الخاصة فى القرافة يعتمد على ما يجريه عليها السلطان بشكل منتظم، كما هو الحال مع كل المؤسسات الإسلامية فى القاهرة والفسطاط، على حد زعم ابن جبير(١٥٨).

وكان مرد سخاء صلاح الدين حاجته إلى اجتثاث جذور المذهب الإسماعيلى، مضافاً إلى ذلك، وبلا أدنى شك، ميله الأصيل للبر. وقد كان وازعه الدينى هو السلاح الأمضى الذى اجتث الهرطقة الفاطمية حتى أن نجمها أفل أثناء حياته. وعلى الرغم من أن من تلاه من سلاطين بنى أيوب لم يكونوا غير مكترثين بالأعمال الدينية، فقد افتقروا إلى الدافع السياسى الذى كان عند صلاح الدين ، عند إقامة منشآتهم. وعلى قلة أعمالهم عددًا فإنها لم تقل عن أعمال صلاح الدين أهمية. فالملك العادل أنشأ مدرسة واحدة، وربما أوقف ربعًا على قبر الإمام الشافعى. أما الملك الكامل فقد أسس أول دار للحديث فى مصر، وأنفق بسخاء على قبر الإمام الشافعى، ورعى أول زيارة رسمية للقرافة فى أيام الجمعة. والملك الصالح، بالإضافة إلى إنشائه لأول مدرسة ذات أربعة إيوانات، فقد أنفق بسخاء على ترميم وإعادة بناء مساجد القاهرة والفسطاط(١٥٩). لقد استمرت أعمال ترميم المنشآت الدينية التى بدأها صلاح الدين بنشاط، ولكن بإيقاع أخف – حتى نهاية الأسرة، ولم يكن وراءها السلاطين والأسرة فقط، ولكن أيضًا رجال الدين والدولة والأثرياء.

الهوامش

(١) Creswell, vol. 2, p. 105

(٢) Lapidus, original text, p. 7

(٣) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٤٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) Pedersen, pp. 327-29; al-Mawardi, pp. 215-18

(٦) ابن دقماق ج ٤، ص ٧٨ .

(٧) Pedersen, p. 328; Nasir-I Khusraw, p. 134ff., 147

(٨) المقريزى،المواعظ، ج ٢، ص ٢٧٥ .

(٩) المصدر السابق، صص ٢٧٥-٢٧٦ .

(١٠) Ibn Jubayr, Travels, pp. 42-47

(١١) Lapidus, p. 284 (cf. original manuscript)

(١٢) Ibid., p. 283

(١٣) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٣ .

(١٤) طبقًا للقلقشندى، كانت المدرسة القمحية سابقة عليها، انظر ج ٣، ص ٣٤٣؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٣ .

(١٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٣٦٣ - ٣٦٤؛ ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٣؛ القلقشندى، ج ٣، ص ٣٤٣ .

(١٦) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٤؛ ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٥؛ القلقشندى، ج ٣، ص ٣٤٣ .

(١٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(١٨) المصدر السابق، ص ٤٠٠ .

(١٩) Ibn Jubayr, Travels, p. 40؛ انظر أيضًا، رحلة ابن جبير، صص ٢٢-٢٣ .

(٢٠) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٥ .

(٢١) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦٤؛ ج ٢، ص ١٠٤؛ Raymond and Wiet, plan 2

(٢٢) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٤٢٧ .

(٢٣) المصدر السابق، صص ٤٢٧-٤٢٨ .

(٢٤) Ibn Jubayr, Travels, pp. 36-37

(٢٥) Berchem, pp. 100-102

(٢٦) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٤ .

(٢٧) ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٨؛ Casanova, "Foustat", pp. 132-33, 140

(٢٨) Casanova, "foustat", pp. 134-35, 140-41

(٢٩) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٣٦٥-٣٦٦ .

(٣٠) Clerget, vol. 1, p. 129

(٣١) القلقشندى، ج ٣، ص ٣٤٣؛ Casanova, "Foustat", pp. 96-99

(٣٢) ابن دقماق، ج ٤، صص ٩٣-٩٤ .

(٣٣) أبو شامة، ج ٢، ص ٤٨٧ .

(٣٤) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٤ ،

(٣٥) المصدر السابق، ص ١٨٤-١٨٥ .

(٣٦) Humphreys, pp. 48-50

(٣٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٨ .

(٣٨) المصدر السابق، ص ١٤ .

(٣٩) المصدر السابق، ص ٣٦٦ .

(٤٠) المصدر السابق، ص ٣٧١ .

(٤١) Humphreys, pp. 140, 145, 437-38

(٤٢) Raymond and Wiet, plan 2, K8

(٤٣) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٧ .

(٤٤) Raymond and Wiet, pp. 183-84, 230; plan 3, F6

(٤٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٨ .

(٤٦) المصدر السابق.

(٤٧) Lapidus, p. 283

(٤٨) Laoust, pp. 126-27

(٤٩) Lapidus, p. 283

(٥٠) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٩٠ .

(٥١) Creswell, vol. 2, p. 105; Lane-Poole. Cairo, p. 318

(٥٢) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٥ .

(٥٣) ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٨ .

(٥٤) Casanova, "Foustat", p. 211

(٥٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٧٨ .

(٥٦) المصدر السابق، ص ٣٧ .

(٥٧) Creswell, vol. 2, p. 105

(٥٨) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٧٣ .

(٥٩) المصدر السابق، ص ٣٧٤ .

(٦٠) Clerget, vol. 1, p. 129

(٦١) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٧٥ .

(٦٢) المصدر السابق، ص ٣٧٨ .

(٦٣) المصدر السابق، صص ٣٦٧– ٣٦٨ .

(٦٤) المصدر السابق، ص ٤٢؛ Raymond and Wiet, pp. 200-201

(٦٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٥ .

(٦٦) ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٢ .

(٦٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٧٤ .

(٦٨) المصدر السابق، صص ٣٧٤–٣٧٥ .

(٦٩) المقريزى، السلوك، زيادة، مج ١، ج ٢، ص ٣٥٠ .

(٧٠) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ٢، ص ١١٩ .

(٧١) Creswell, vol. 2, pp. 94-100

(٧٢) المقريزى، المواعظ، ج٢، ص ٣٧٥ .

(٧٣) المصدر السابق، ص ٣٦٥ .

(٧٤) ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٦ .

(٧٥) Casanova, "Foustat", pp. 148-49

(٧٦) Ibn Jubayr, Voyages, part 1, pp. 78-82

(٧٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٨ .

(٧٨) Creswell, vol. 2, pp. 129-31

(٧٩) Ibn Jubayr, Travels, p. 45

(٨٠) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٢٧٥؛ Creswell, vol.1, p. 37

(٨١) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٢٧٨، قارن القلقشندى، ج ٣، صص ٣٦٠-٣٦١ .

(٨٢) Survey, sheet 1, no. 477

(٨٣) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٨٤) المصدر السابق، ص ٢٥١؛ قارن ابن دقماق، ج ٤، ص ٦٩ .

(٨٥) Ibn Jubayr, Travels, p. 42

(٨٦) المقريزى،المواعظ، ج ٢، صص ٢٥٥-٢٥٦ .

(٨٧) المصدر السابق، ج ١، صص ٣٤١ - ٣٤٢ .

(٨٨) Ibn Jubayr, Travels, p. 44

(٨٩) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٢٨٣ .

(٩٠) المصدر السابق، صص ٢٨٣-٢٨٤ .

(٩١) المصدر السابق، ص ٢٨٣ .

(٩٢) المصدر السابق.

(٩٣) Casanova, "Citadelle", p. 539

(٩٤) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٣١٢-٣١٣ .

(٩٥) المصدر السابق، ص ٢٩٦ .

(٩٦) المصدر السابق، ص ٣١٨ .

(٩٧) المصدر السابق، صص ٣١٩ - ٣٢٠، ٤٤٤ .

(٩٨) ابن حوقل، ص ١٤٥ .

(٩٩) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٢٩٧ .

(١٠٠) ابن دقماق، ج ٤، صص ١١٥-١١٦ .

(١٠١) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٢٩٠، ٢٩٧ .

(١٠٢) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ص ٢، ص ١٣٨ .

(١٠٣) المصدر السابق، ص ١٤١ .

(١٠٤) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٢٩٧ .

(١٠٥) Casanova, "Citadelle", p. 535

(١٠٦) Creswell, vol.2, pp. 84-87

(١٠٧) Ibid., p. 85؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص .٢٩٧

(١٠٨) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٢٩٦-٢٩٧ .

(١٠٩) المصدر السابق، صص ٤١٢-٤١٣ .

(١١٠) المصدر السابق، ص٤١١

(١١١) المصدر السابق، ج ١، صص ٣٤٥-٣٤٦، ج ٢، ص ٢٩٨ .

(١١٢) Casanova, "Citadelle", p. 595

(١١٣) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٣٦٧-٣٦٨ .

(١١٤) المصدر السابق، ص ٤١٣ .

(١١٥) المصدر السابق، ص ١٣٣ .

(١١٦) المصدر السابق، صص ٤١٤، ٤٢٧ .

(١١٧) Casanova, "Foustat", pp. xxxiv-xxxv

(١١٨) القلقشندى، ج ٣، ص ٣٦٤ .

(١١٩) المقريزى، المواعظ، جزء ٢، ص ٤١٥ .

(١٢٠) Survey, sheet 1, no. 31

(١٢١) ابن خلكان، ج ٢، ص ٥٢٠ .

(١٢٢) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٠٤ .

(١٢٣) المصدر السابق، صص ٣٦٧-٣٦٨. كتاب سبيل على ما نعتقد يعني سبيل - كتاب، أي كتاب وسبيل معًا، فإن صح ذلك فهو أول أقدم مثال على هذا النوع من المنشآت في القاهرة على حد علمي.

(١٢٤) المصدر السابق، ص ٤٣٤ .

(١٢٥) ابن دقماق، ج ٤، ص ١٠٣ .

(١٢٦) Casanova, "Foustat", pp. 78,86

(١٢٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٤٣٢ .

(١٢٨) Lapidus, p. 20

(١٢٩) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٤٠٧ .

(١٣٠) القلقشندى، ج. ٣، ص ٣٧٥ .

(١٣١) Ibn Jubayr, Travels, pp. 43-44

(١٣٢) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٤٠٦؛ قارن ابن دقماق ج ٤، ص ٩٩ .

(١٣٣) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٤٤٢-٤٤٣ .

(١٣٤) المصدر السابق، ص ٤٤٤ .

(١٣٥) Ibn Jubayr, Travels, pp. 39-42، رحلة ابن جبير، صص ٢٠-٢٤. أسقطت من الاقتباس الذى أوردته عن ابن جبير قائمة طويلة بأسماء من دفن بالقرافة من علية القوم لعدم أهميتها هنا.

(١٣٦) Yagut al-Rumi, vol. 4, p. 48

(١٣٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ٤٥٤ .

(١٣٨) المصدر السابق، صص ٤٦٠-٤٦١ .

(١٣٩) المصدر السابق .

(١٤٠) Massignon, p. 43

(١٤١) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٤٥٤ .

(١٤٢) Massignon, p. 66

(١٤٣) Ibid., p. 62

(١٤٤) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٤٤٤-٤٤٥، ٤٦١-٤٦٢؛ Suluk, Blochet, vol. 9, pp. 99, 149

(١٤٥) Creswell, vol.2, p. 79

(١٤٦) Massignon, p. 61

(١٤٧) Ibid., pp. 54-55

(١٤٨) Creswell, vol.2, pp. 88-94

(١٤٩) Massignon, p. 66

(١٥٠) Abu Salih, pp. 91, 107, 114؛ ابن دقماق، ج ٤، ص ١٠٨ .

(١٥١) Abu Salih, pp. 135-36

(١٥٢) Ibid., pp. 87-91, 94-95, 104-106, 111-12, 116, 119-24

(١٥٣) Ibid., pp. 95, 127, 174 - 75

(١٥٤) Ibid., pp. 11-13, 25-26, 91-92, 131-32

(١٥٥) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج. ق، ج ٢، ص ٧٧، ١٠٧، ١١٩، ١٣٨ .

(١٥٦) Benjamin of Tudela, p. 147

(١٥٧) Lapidus, p. 286, footnote 10

(١٥٨) Ibn Jubayr, Travels, pp. 42, 44-45

(١٥٩) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ٢، ص ١٠٨ .

الفصل الثامن

المؤسسات التجارية

أسهم المناخ التجارى الملائم الذي توفر فى عهد الأيوبيين (انظر الفصل الثانى) فى استمرار تطور المرافق الصناعية والتجارية فى القاهرة والفسطاط، والتى استمرت على النمط الطبوغرافى الذى وجد أيام الفاطميين. لقد أنشئت الأسواق فى الأساس لخدمة الاحتياجات الآنية لمؤسسة الخلافة: مجمع القصر والإدارة، والعسكر. وفى أثناء فتح القاهرة للعامة الذى بدأه بدر الجمالى وأكمله صلاح الدين، نشأت أسواق جديدة لخدمة احتياجات الوافدين الجدد، والعسكر، وغيرهم. وقد أنشئت تلك الأسواق فى القاهرة وفى أطلال المناطق المهجورة فى القطائع والعسكر[١]. وظل المركز التجارى الرئيسي فى منطقة القاهرة والفسطاط هو قصبة القاهرة، شريانها الكبير الممتد من باب الفتوح إلى باب زويلة وجنوبًا – ولكن بدرجة أقل من الأهمية – إلى صليبة ابن طولون. وعلى الرغم من انتقال مركز السلطة إلى القلعة، ثم إلى جزيرة الروضة، فقد ظلت المنتجات الفاخرة تُباع فى القصبة. وظلت السلع الأساسية متوفرة للعامة فى الفسطاط وفى منطقة الصليبة، بينما انتقلت الأسواق والمخازن المهمة بالنسبة للسلطان وجنده إلى منطقة القلعة، ثم إلى شاطئ الفسطاط والجيزة فى عهد الملك الصالح[٢].

وصف المقريزى مؤسسات القاهرة التجارية بالتفصيل. وقد ترجم وصفه وعلق عليه رايموند وفييت Raymond and Wiet. [٣] وتشمل هذه المؤسسات السوق، والقيسارية، والخان، والفندق. وسوف نناقش ما ينتمى منها إلى العصرين الفاطمى والأيوبى فى السطور التالية.

أسواق وسويقات

كانت كلمة سوق، فى قاهرة العصور الوسطى، تطلق على باعة وحوانيت فى شارع ما، يبيعون نوعًا معينًا من السلع أو يقدمون خدمة معينة. أما السويقة، وهى مصغر سوق، فتختلف عن السوق فى الحجم، على الرغم من أن هذا الاختلاف، وفقًا لوصف المقريزى، ليس ملحوظًا. ويستحيل علينا الحصول على صورة كاملة لأسواق القاهرة الفاطمية والأيوبية لسببين؛ أولهما، كما يشير المقريزى، أنه:

> كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيء كثير جدًا قد باد أكثرها وكفاك دليلاً على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقًا أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتًا. وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربى، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر؟[٤]

ثانيًا، لا يقدم وصف المقريزى، فى كل الحالات، أي تواريخ للأسواق. على أن تلك التى ذكر تاريخها تعطينا صورة محددة عن النمط الطبوغرافى ونوعية

السلع التى كانت تباع فى أسواق القاهرة فى أواخر العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى.

سوق الشوّايين(*)

كانت سوق الشوايين (رقم ٤٨، خريطة ١) – وفقًا للمقريزى – أول سوق وضع بالقاهرة، أثناء خلافة المعز سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥-٩٧٦ م، وكانت فى الأصل سوق الشرايحيين (الجزارين) الذين تم نقلهم بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ – ١٣٠١ م. وتمتد هذه السوق من باب حارة الروم إلى سوق الحلاويين، أى إلى الشرق من القصبة (شارع المعز لدين الله) بجوار جامع الفخرانى(٥).

سويقة الصاحب

تقع سويقة الصاحب (رقم ٤٩، خريطة ١) إلى الغرب من الجامع الأزهر بالقرب من الشاطئ الشرقى للخليج. وكانت تعرف فى البداية بسويقة الوزير، حيث كانت على باب دار الوزير يعقوب بن كلس، وزير الخليفة الفاطمى العزيز. وقد عرفت داره فيما بعد بدار الديباج، حيث كان ينسج فيها الديباج، وهو الحرير.

عرف هذا السوق بالسوق الكبير فى أخريات الدولة الفاطمية. فلما ولى صفى الدين عبد الله بن شكر الدميرى وزارة الملك العادل أبى بكر بن أيوب سكن فى هذا الخط وأنشأ به مدرسته التى تعرف إلى اليوم بالمدرسة الصاحبية، وأنشأ به أيضًا رباطه وحمامه

(*) أصلها الشوائين، وخففت الهمزة إلى ياء، وهم المشتغلون بالشواء، أى الكبابجية بالمصطلح الحديث. (المترجم)

المجاورين للمدرسة المذكورة. عرفت من حينئذ هذه السويقة بسويقة الصاحب. [٦]

ويضيف المقريزى أن هذه السوق كان فيها أكثر ما يحتاج إليه من المآكل لوفور نعم من يسكن هنالك من الوزراء وأعيان الكتاب[٧].

سوق الشماعين

كان سوق الشماعين (باعة الشمع، رقم ٥٠، خريطة ١) يقع فى القصبة بالقرب من الجامع الأقمر. وكان سوقًا للقماحين فى العصر الفاطمى، وربما كان سابقًا على إنشاء الجامع (٥١٩ هـ / ١١٢٥-١١٢٦ م)، ولسنا متأكدين من حالته فى العصر الأيوبى. ويذهب وصف المقريزى - على غموضه النسبى - إلى أن حوانيته كانت تصطف على جانبى القصبة وبطول واجهة الجامع[٨].

سوق باب الزهومة وما حوله

أخذ سوق باب الزهومة (رقم ٥١، خريطة ١) اسمه من اسم باب فى الركن الجنوبى الشرقى بالقصر الفاطمى الشرقى. وكان فى العصر الفاطمى سوقًا للصيارفة، وكان حوله عدد من الأسواق، لم يفرد المقريزى وصفًا لكل منها، لذلك سنورد روايته عن هذا السوق كاملة. يقول المقريزى:

> كان موضع هذا السوق فى الدولة الفاطمية سوق الصيارفة، ويقابله سوق السيوفيين من حيث الخشيبة إلى نحو رأس سوق الحريريين اليوم، وسوق العنبر الذى كان إذ ذاك سجنًا يُعرف بالمعونة، ويقابل السيوفيين إذ ذاك سوق الزجاجين، وينتهى إلى سوق القشاشين الذى يعرف اليوم بالخراطين. فلما زالت الدولة الفاطمية تغير ذلك كله، فصار سوق السيوفيين من جوار الصاغة إلى درب

السلسلة وبنى فيما بين المدرسة الصالحية وبين الصاغة سوق فيه حوانيت مما يلى المدرسة الصالحية يباع فيها الأمشاط بسوق الأمشاطيين، وفيه حوانيت فيما بين الحوانيت التى يُباع فيها الأمشاط وبين الصاغة، بعضها سكن الصيارف، وبعضها سكن النقليين، وهم الذين يبيعون الفستق واللوز والزبيب ونحوه. وفي وسط هذا البناء سوق الكتبيين، يحيط به سوق الأمشاطيين، وسوق النقليين. وجميع ذلك جار فى أوقاف المارستان المنصورى. وكان سوق باب الزهومة من أجلّ أسواق القاهرة وأفخرها، موصوفًا بحسن المآكل وطيبها[٩].

بعد سقوط الدولة الفاطمية تأسس عدد من الأسواق فى منطقة باب الزهومة عند الطرف الجنوبى لبين القصرين، أو أزيل منها. وباستثناء الصاغة وسوق الكتبيين، التى ربما تأسست بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠-١٣٠١ م، فلسنا متأكدين أي من هذه الأسواق أنشئ فى العصر الأيوبى وأيها أنشئ فى عصر المماليك البحرية. على أن لنا أن نذهب إلى أن تلك العملية بدأت بعد تسنم صلاح الدين لسدة الحكم[١٠].

سوق المحايريين

كان سوق المحايريين (رقم ٥٢، خريطة ١) يقع إلى الشمال من الجامع الأقمر، وربما ملاصقًا له. ويروى المقريزى قصة غير مؤكدة ربما تشى بوجود هذا السوق فى عهد الحاكم[١١].

سوق البندقانيين

كانت سوق البندقانيين (صناع قسى البنادق، رقم ٥٣، خريطة ١) تقع إلى الغرب مباشرة من الأزهر، فى منتصف المسافة بينه وبين الخليج. يقول المقريزى:

كان يعرف قديمًا بسوق بئر زويلة، وكان هناك بئر قديمة تُعرف ببئر زويلة برسم إصطبل الجميزة الذى كان فيه خيول الخلفاء الفاطميين...فلما زالت الدولة [دولة الفاطميين] واختط موضع إصطبل الجميزة الدور وغيرها وعرف موضع الإصطبل بالبندقانيين قيل لهذا السوق سوق البندقانيين[١٢].

ويضيف فى فقرة أخرى " فلما زالت الدولة [الفاطمية] اختط وصارت فيه مساكن وسوق من جملته عدة دكاكين لعمل قسى البنادق فعرف الخط بالبندقانيين."[١٣]

سوق حارة برجوان

كان هذا السوق (رقم ٥٤، خريطة ١) يُعرف فى العصر الفاطمى بسوق أمير الجيوش (وهو غير سويقة أمير الجيوش). وقد أسسه بدر الجمالى عند مدخل حارة برجوان، إلى الشمال قليلاً من الجامع الأقمر فى شارع المعز لدين الله. وقد أدرك المقريزى فى شبابه هذا السوق، وكان أكبر سوق فى القاهرة تباع فيه الأطعمة، والخضراوات، واللحوم، ولكنه تعطل بأسره سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ – ١٤٠٤ م[١٤].

سوق باب الفتوح

يقع هذا السوق (رقم ٥٥، خريطة ١) فيما يعرف بشارع المعز الآن، أى القصبة، وكان عند مدخل حارة بهاء الدين، بغرب القصبة. وقد أنشئ هذا السوق عندما أقام بهاء الدين قراقوش دارًا له فى تلك المنطقة. وفى زمن المقريزى كانت اللحوم والخضراوات تُباع فى هذا السوق[١٥].

سوق السلاح

كان سوق السلاح (رقم ٥٦، خريطة ١) يقع فى وسط بين القصرين، بين مدرسة بيبرس البندقدارى ومدخل قصر بشتاك. وقد أنشئ هذا السوق بعد سقوط الدولة الفاطمية، وكانت تُباع فيه "القسي والنشاب والزرديات(*) وغير ذلك من آلات السلاح"[١٦].

سويقة أمير الجيوش

كان هذا السوق (رقم ٥٧، خريطة ١) يقع فى موضع شارع أمير الجيوش الحالى، وهو الطريق الواصل بين شارع المعز وشارع بورسعيد فى القسم الشمالى الشرقى من القاهرة. وكان هذا الشارع يجرى فى زمانه من القصبة إلى باب القنطرة على الخليج، بين حارة بهاء الدين وحارة برجوان. وكانت تعرف بسوق الخروقيين [باعة الخِرَق] فيما بعد زوال الدولة الفاطمية، وفى هذا السوق عمر الأمير مازكوج الأسدى مدرسته المعروفة الآن بالأزكجية [انظر الفصل السابع]."[١٧]

سوق المهامزيين

كانت هذه السوق (رقم ٥٨، خريطة ١) تقع فى القصبة، إلى الغرب من الجامع الأزهر فى مواجهة دار الضرب. وقد تأسست بعد سقوط الدولة الفاطمية[١٨].

(*) الزرديات: الدروع. (المترجم)

سوق الشرابشيين

أنشئ هذا السوق (رقم ٥٩، خريطة ١) بعد سقوط الدولة الفاطمية أيضًا وكان يُبَاع فيه الخِلَق التى يُلبِسُها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم. وقيل له سوق الشرابشيين نسبة إلى الشربوش وهو شىء يشبه التاج يجعل على الرأس بغير عمامة كان يلبسه السلطان لمن يؤمره من الأتراك. وقد استمرت هذه العادة أيام المماليك البحرية. ومعلوماتنا عن ظروف هذا السوق أيام الأيوبيين غير مؤكدة، ولكن لنا أن نعتقد بأنه قد أنشئ لبيع الخِلَع. وكان سوق الشرابشيين يقع فى القصبة، عند موقع جامع الغورى الآن، أو بالقرب منه[١٩].

سوق بين القصرين

كان هذا السوق (رقم ٦٠، خريطة ١) يقع فى القسم الشمالى من الساحة التى تتوسط القصرين الفاطميين، وأصبح سوقًا للأطعمة بعد زوال الدولة الفاطمية وتغيير استخدام القصرين[٢٠].

سويقة البلشون

يقول المقريزى:

> هذه السويقة خارج باب الفتوح، عُرفت بسابق الدين سنقر البلشون أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وسلاح دراِيته، وكان له أيضًا بستان بالمقس خارج القاهرة من جوار الدكة يُعرف ببستان البلشون[٢١].

سوق الجملون الصغير

كان سوق الجملون الصغير (رقم ٦٢، خريطة ١) يقع إلى الشرق من القصبة، فى موضع شارع دبيا الحالى غرب وكالة قوصون وجنوب زيادة جامع الحاكم. وقد أنشأه الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم، أحد أمراء الملك الكامل. وقد أنشأ ابن صيرم أيضًا المدرسة الصيرمية فى هذا السوق أو بجواره (انظر الفصل السابع)، وكذلك بستان ابن صيرم خارج باب الفتوح. وكان باعة وصناع الثياب يشغلون هذا السوق فى أيام المقريزى[٢٢].

سويقة المسعودى

يقول المقريزى:

> هذه السويقة من حقوق حارة زويلة بالقاهرة، تنسب إلى الأمير صارم الدين قايماز المسعودى مملوك الملك المسعود أقسيس ابن الملك الكامل وولى المسعودى هذا ولاية القاهرة وكان ظالمًا غاشمًا جبارًا[٢٣].

قُتِل المسعودى سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٦٥ – ١٢٦٦ م، وتاريخ هذه السويقة يبقى محل تساؤل. يرى رايموند أن هذه السويقة (رقم ٦٣، خريطة ١) تقع فى وسط الجزء الغربى من القاهرة، شمال سويقة الصاحب[٢٤].

الصاغة

كانت الصاغة (رقم ٦٤، خريطة ١) تقع فى مواجهة المدرسة الصالحية، إلى الجنوب مباشرة من مدرسة قلاوون. وقد احتلت الصاغة موقع مطابخ القصر فى الركن الجنوبى الشرقى للقصر الفاطمى الغربى، وهى سابقة على مدرسة الملك

الصالح، مما يشهد على الدمار الذى أصاب هذا القسم من القصر الغربى قبل سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ - ١٢٤٢ م[٢٥].

سوق البياطرة

كانت سوق البياطرة (رقم ٦٥، خريطة ١) تقع بين الصاغة والقصر الشرقى، وقد نقلت إلى هذا الموقع من ركن المحلق فى وقت بناء المدرسة الصالحية. وكان ركن المحلق يقع خلف الجامع الأقمر مباشرة. ولم يورد المقريزى لهذه السوق ذكرًا[٢٦].

ملخص

ذكر المقريزى وابن لقلق ثمانية عشر سوقًا فى العصر الأيوبى، سبعة منها كانت قد تأسست فى عهد الفاطميين، بينما تأسست الأحد عشر الأخر فى عهود سلاطين أيوبيين، أو ذُكر أنها تأسست "بعد سقوط الدولة الفاطمية". وكان بالقصبة أحد عشر سوقًا، وأربعة فى غرب المدينة وشمال غربها، واثنان فى الجزء الشمالى الشرقى، وواحد خارج باب الفتوح. والأسواق الأربعة التى أنشأها أفراد ليسوا بسلاطين، كان واحد منها من منشآت بدر الجمالى، وثلاثة من منشآت مماليك و/أو أمراء أيوبيين.

لا نستطيع أن نميز نمطًا متبعًا يربط بين موقع السوق والمنتجات أو الخدمات التى يقدمها. على أن الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة يتمثل فى سوق السلاح الذى أنشئ فى بين القصرين، وهى منطقة تشى بأهمية هذا السوق، حيث إنها منطقة متوسطة قريبة من مركز الحكم. وقد نقل هذا السوق فيما بعد - ربما فى بداية عهد المماليك - إلى الرميلة، أسفل القلعة[٢٧]. وقد شجع فتح بين القصرين

أمام العامة على تركيز جديد للأسواق فى تلك المنطقة، خاصة بالقرب من باب الزهومة. واستفادت هذه الأسواق، والتى لم تكن ذات صبغة معينة، من المساحة الهائلة لهذا الميدان الذى يحتل موقعًا مركزيًا، أُخلى بشكل مفاجئ. على أننا ينبغى أن نعيد التأكيد على أن قائمة الأسواق التى قدمناها هنا أبعد ما تكون عن الكمال، وما لم تظهر نصوص جديدة، فستبقى قائمتنا هذه قائمة مقتضبة على أفضل تقدير.

القياسر

قياسر جمع قيسارية، وأصلها إغريقى، وتعنى منشأة حضرية. وتطلق هذه الكلمة على السوق المغطاة التى لها حجم معين، وهى بناء مربع على شكل رواق يضم حجرات نوم، ومخازن، وحوانيت للباعة. "القياسر أكبر من الأسواق، وتتكون من عدة أروقة مسقوفة، بينما يحتوى السوق على رواق واحد فقط. وتحتوى القياسر على ورش للصناعة، بينما تعرض الأسواق بضائع للبيع فقط. وأخيرًا، كان صناع كل حرفة، أو باعة كل نوع من البضائع يتركزون فى نفس القيسارية أو السوق، ولو احتوت قيسارية واحدة على عدد من الصناعات، فكل منها تتجمع فى رواق واحد."(٢٨)

على الرغم من وجود استثناءات لما يراه ديساسى DeSacy من أن "الأسواق تبيع البضائع فقط"، فإن فرضيته الأساسية ربما تكون صحيحة.

وهناك ثمانى قياسر تأسست فى عصرى الفاطميين والأيوبيين، وسوف نتناولها فيما يلى:

قيسارية ابن قريش

كانت هذه القيسارية (رقم ٦٦، خريطة ١) تقع عند مدخل سوق الجملون الكبير، إلى الغرب مباشرة من القصبة، وإلى الشمال من مدرسة الغورى. يقول عنها ابن عبد الظاهر:

استجدها القاضى المرتضى ابن قريش فى الأيام الناصرية الصلاحية وكان مكانها إسطبلاً. وهو ... أحد كتاب الإنشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قتل شهيدًا على عكا فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة [١٦ يونيو، ١١٩٠]، ودفن بالقدس، ومولده فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وسمع السلفى وغيره[٢٩].

قيسارية ابن أبى أسامة

كانت هذه القيسارية (رقم ٦٧، خريطة ١) تقع على الجانب الغربى من القصبة، إلى الشمال مباشرة من مدرسة الغورى، وكانت وقفًا أنشأه الشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة، كاتب الإنشاء فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر. وقد أُرخ الوقف بسنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م. وحالتها فى العصر الأيوبى غير مؤكدة، ولكن فى أيام المقريزى كان يسكنها تجار الخردة[٣٠].

قيسارية ابن يحيى

كانت هذه القيسارية (رقم ٦٨، خريطة ١) تقع إلى الجنوب قليلاً من مدرسة الغورى، بغرب القصبة. يقول عنها المقريزى:

أنشأها القاضى المفضل هبة الله بن يحيى التميمى المعدل، كان موثقًا كاتبًا فى الشروط الحكمية فى حدود سنة أربعين وخمسمائة [١١٤٥-١١٤٦م] فى الدولة الفاطمية، ثم صار من جملة العدول، وبقى إلى سنة ثمانين [١١٨٤-١١٨٥م]...ثم لما حدثت المحن فى سنة ست وثمانمائة تلاشى أمرها[٣١].

قيسارية بجوار مدرسة الغورى

كانت هناك قيسارية (رقم ٦٩، خريطة ١)، لا يُعرف اسمها(*)، تقع إلى الغرب من القصبة، وإلى الشمال قليلاً من مدرسة الغورى. يقول عنها المقريزى:

> بعضها وقفه القاضى الأشرف بن القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على البيسانى على ملء الصهريج بدرب ملوخيا، وبعضها وقف الصالح طلائع بن رُزّيك[٣٢].

قيسارية الشرب

كانت تقع على القصبة، إلى الجنوب مباشرة من مدرسة الغورى. وكانت هذه القيسارية (رقم ٧٠، خريطة ١) وقفًا لصلاح الدين الأيوبى على صوفية خانقاه سعيد السعداء، وكانت فى الأصل إسطبلاً[٣٣].

قيسارية الفاضل

كانت قيسارية الفاضل (رقم ٧١، خريطة ١) تقع على القصبة فى مواجهة جامع المؤيد شيخ، وقد اتخذت اسمها من القاضى الفاضل، وقيل إنها وقفت بضع عشرة مرة فى أوقات مختلفة، وكانت فى وقت المقريزى وقفًا على المارستان المنصورى[٣٤].

قيسارية جهاركس

بناها الأمير فخر الدين جهاركس سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥-١١٩٦ م. كانت هذه القيسارية (رقم ٧٢، خريطة ١) تقع على الجانب الشرقى من القصبة، إلى

(*) سقط اسمها من نسخة الخطط التى بين أيدينا. (المترجم)

الجنوب من ضريح الغورى(٣٥). وكان جهاركس مملوكًا لصلاح الدين، ثم أصبح أستادارًا للملك العزيز عثمان، وكان على رأس المماليك الصالحية، كما لعب أدوارًا مهمة ومختلفة فى ولاية عهد العزيز عثمان وتثبيت الملك العادل(٣٦). وقد ساق المقريزى روايتين عن حال هذه القيسارية فى عهد الأيوبيين.

كانت قبل ذلك يعرف مكانها بفندق الفراخ، ولم تزل فى يد ورثته، وانتقل إلى الأمير علم الدين يتمش منها جزء بالميراث عن زوجته، وإلى بنت شومان من أهل دمشق، ثم اشتريت لوالدة الخليل المسماة بشجر الدر الصالحية فى سنة خمس وخمسين وستمائة [١٢٥٧-١٢٥٨م]... وذكر بعض المؤرخين أن صاحبها جهاركس نادى عليها حين فرغت فبلغت خمسة وتسعين ألف دينار على الشريف فخر الدين إسماعيل بن ثعلب(٣٧).

ويذكر المقريزى نقلاً عن ابن خلكان:

[فخر الدين جهاركس] بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه. رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون: لم نر فى شيء من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها وإحكام بنائها، وبنى بأعلاها مسجدًا كبيرًا، وربعًا معلقًا، وتوفى فى بعض شهور سنة ثمان وستمائة [١١١١ - ١٢١٢ م] بدمشق(٣٨).

قيسارية الفائزى

كانت قيسارية الفائزى (رقم ٧٣، خريطة ١) تقع على الجانب الشرقى من القصبة، إلى الجنوب من التقائها الحالى بشارع جوهر القائد. وقد عرفت فيما بعد

بقيسارية النشابين وكانت تقع عند مدخل سوق الخراطين، بالقرب من سوق المهمازيين، وكان لها باب يواجه كلاً من هذين السوقين[٣٩]. وقد أنشأها الأسعد شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن صاعد بن وهيب الفارسى، كان من جملة نصارى صعيد مصر، وقدم إلى القاهرة وأسلم فى أيام الملك الكامل،

وخدم عند الملك الفائز إبراهيم بن الملك العادل فنسب إليه،
وتولى نظر الديوان فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب مدة يسيرة،
ثم ولى بعض أعمال ديار مصر[٤٠].

وقد خلع من هذه الوظيفة لاتهامه بالاستيلاء على بعض الأراضى، فسجن ثم أفرج عنه وسافر إلى دمشق وخدم بها الأمير جمال الدين (موسى بن) يغمور. وعاد إلى مصر مع الملك المعظم توران شاه سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ – ١٢٥٠ م، وأصبح بعد ذلك وزيرًا للملك المعز أيبك. وبعد تنصيب الملك المنصور على (٦٥٥ هـ / ١٢٥٧–١٢٥٨م) بفترة قصيرة اتُهِم بالتآمر لعزل السلطان الصغير وتولية الملك الناصر يوسف الأيوبى صاحب دمشق، فسجن وتم خنقه[٤١].

ملخص

أنشأ الفاطميون والأيوبيون ثمانى قياسر، سبع منها تأسست على القصبة أو بالقرب منها، فى المنطقة التى تقع غرب الجامع الأزهر، وكانت ست منها تقع بجوار الموضع الذى أنشئت فيه، فيما بعد، مجموعة الغورى، وقد استفادت هذه القياسر من موقعها المركزى. أما ثامنة القياسر فقد أنشأت على القصبة أيضًا، ولكن فى مواجهة الموضع الذى أنشئ فيه مسجد المؤيد شيخ. وقد أنشأ خمسًا من هذه القياسر رجال ديوان الإنشاء ذوى الخلفيات الدينية، بينما أنشأ كل من صلاح الدين، وأستادار، ووزير الثلاثة الأخرى. وقد جعلت أربع منها أملاكًا لأوقاف.

الخانات والفنادق

كان تعبيرا خان وفندق مترادفين فى أيام المقريزى. وقد تأسست أربعة فنادق وخانات فى القاهرة أيام الأيوبيين. وكان تخطيطها العام عبارة عن مساحة مربعة يحيط بها سور، ولها فناء تحيط به المخازن و/أو الإسطبلات لخدمة التجار المسافرين، ودور علوى (واحد فى العادة) يحتوى على حجرات للنوم. وعلى الرغم من أن كلمة "فندق" كانت تطلق عادة - خاصة فى الإسكندرية - على الفنادق والمخازن الخاصة بالتجار الأجانب، فإن هذا التمييز لا نستطيع تطبيقه بحرفيته على القاهرة خلال العصر الأيوبى(٤٢).

وعلى الرغم من أن ناصر خسرو أكد وجود خانات فى القاهرة فى العصر الفاطمى، فإن المقريزى لم يذكر أيًا منها.

خان منكورش

كان خان منكورش (رقم ٧٤، خريطة ١) يقع، وفقًا للمقريزى، فى خط سوق الخيميين، بالقرب من الجامع الأزهر؛ أى أنه كان تقريبًا فى منتصف المسافة حاليًا بين الجامع الأزهر والقصبة.

قال ابن عبد الظاهر: خان منكورش بناه الأمير ركن الدين منكورش زوج أم الأوحد بن العادل، ثم انتقل إلى ورثته، ثم انتقل إلى الأمير صلاح الدين أحمد بن شعبان الأربلى، فوقفه ثم تحيل ولده فى إبطال وقفه، فاشتراه منه الملك الصالح بعشرة آلاف دينار مصرية، وجعله مرصدًا لوالدة الخليل، ثم انتقل عنها، انتهى. قال مؤلفه [أى ابن عبد الظاهر] ومنكورش هذا كان أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وتقدم حتى صار أحد الأمراء الصالحية، وعُرف بالشجاعة والنجدة، وإصابة الرأى، وجودة الرمى، وثبات الجأش، فلما

مات فى شوال سنة سبع وسبعين وخمسمائة [٧ فبراير - ٧ مارس ١١٨٢] أخذ إقطاعه الأمير ياركوج الأسدى(٤٣).

خان السبيل

يقول المقريزى:

هذا الخان خارج باب الفتوح. قال ابن عبد الظاهر: خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى، خادم أسد الدين شيركوه وعتيقه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة، وبه بئر ساقية وحوض(٤٤).

خان مسرور

يقول المقريزى:

خان مسرور [رقم ٧٦، ٧٧، خريطة ١] مكانان، أحدهما كبير والآخر صغير. فالكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الحريريين، كان موضعه خزانة الدرق [أى الدروع] التى تقدم ذكرها فى خزائن القصر، والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر، كان ساحة يباع فيها الرقيق، بعدما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق. قال ابن الطوير: خزانة الدرق كانت فى المكان الذى هو خان مسرور(٤٥).

ويستطرد المقريزى نقلاً عن عبد الظاهر فيقول:

مسرور هذا من خدام القصر خدم الدولة المصرية، واختص بالسلطان صلاح الدين رحمه الله، وقدمه على حلقته، ولم يزل مقدمًا فى كل وقت، وله بر وإحسان ومعروف، ويقصد فى كل حسنة وأجر

> وبر، وبطل الخدمة في الأيام الكاملية وانقطع إلى الله تعالى ولزم داره، ثم بنى الفندق الصغير إلى جانبه، وكان قبل بنائه ساحة يُباع فيها الرقيق، اشترى ثلثها من والدى رحمه الله، والثلثين من ورثة ابن عنتر، وكان قد ملك الفندق الكبير لغلامه ريحان، وحبسه عليه ثم من بعده على الأسرى والفقراء بالحرمين، وهو مائة بيت إلا بيتًا، وبه مسجد تُقام فيه الجماع والجمع. ولمسرور المذكور بر كثير بالشام وبمصر، وكان قد وصى أن تعمل داره، وهي بخط حارة الأمراء، مدرسة ويوقف الفندق الصغير عليها، وكانت له ضيعة بالشام بيعت للأمير سيف الدين أبي الحسن القيمرى بجملة كبيرة، وعمرت المدرسة المذكورة بعد وفاته[٤٦].

يوافق رايموند وفييت على ما ذهب إليه رافيس من أن موضع الخان الكبير كان إلى الشرق من القصبة، بالقرب من تقاطعها الحالي مع شارع جوهر القائد. أما الخان الصغير – على يمنة من سلك من ســوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر – فموضعه أكثر غموضًا. ولكن، بما أن المقريزى ذكر أن المدرسة المسرورية كانت تقع في درب شمس الدولة، إلى الجنوب مباشرة من القصر الغربي (انظر الفصل السابع)، فلنا، إذن، أن نعتقد بأن الخان الصغير كان يقع في تلك المنطقة أيضًا[٤٧].

فندق ابن قريش

يقول المقريزى:

> قال ابن عبد الظاهر: فندق ابن قريش استجده القاضي شرف الدين إبراهيم بن قريش كاتب الإنشاء وانتقل إلى ورثته، انتهى. إبراهيم بن عبد الرحمين بن علي بن عبد العزيز بن علي بن قريش

أبو إسحاق القرشي المخزومي المصري الكاتب شرف الدين أحد الكتاب المجيدين خطًا وإنشاء خدم في دولة الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وفي دولة ابنه الملك الكامل محمد بديوان الإنشاء، وسمع الحديث بمكة ومصر وحدث، وكانت ولادته بالقاهرة في أول يوم من ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة [١ مايو ١١٧٧م]، وقرأ القرآن وحفظ كثيرًا من كتاب المهذب في الفقه على مذهب الإمام الشافعي، وبرع في الأدب وكتب بخطه ما يزيد على أربعمائة مجلد، ومات في الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة [١٩ أكتوبر ١٢٤٥ م]. [٤٨]

موضع هذا الفندق غير مؤكد. وقيسارية صفي الدين، أبي شرف الدين كانت تقع إلى الشمال من موضع مدرسة الغوري[٤٩].

ملخص

أنشئت في العصر الأيوبي أربع خانات وفنادق، اثنان منها في وسط القاهرة، على القصبة أو بالقرب منها، والثالثة خارج باب الفتوح، بينما لا نعرف موضع الرابعة على وجه التحديد. وقد أنشأها جميعًا كبار رجال الدولة الأيوبية، من ذوي المناصب العسكرية أو الدينية أو الإدارية. وقد أوقف ثلاثًا منها على الأقل.

ربع أنشأه الملك الكامل

كما أشرنا في وصفنا لدار الحديث التي أنشأها الملك الكامل، فقد أنشأ الكامل ربعًا (رقم ٧٩، خريطة ١) وأوقفه على دار الحديث هذه. ويورد كازانوفا تعريف

لين للربع فى اللهجة المصرية بأنه "صف من المساكن المنفصلة الواقعة فوق حوانيت ومخازن، يخدمها سلم واحد"(٥٠). وكان هذا الربع يقع على باب الخرنشف ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر... وكان موضعه من جملة القصر الغربى ثم صار موضعًا يسكنه القماحون." (٥١) وهذا هو الربع الأيوبى الوحيد الذى أشير إليه ككيان مستقل فى القاهرة.

منطقة القلعة

يذكر المقريزى أن الملك الكامل نقل أسواق الخيول والحمير والجمال إلى الرميلة بأسفل القلعة(٥٢). وعلى الرغم من أن أسواقًا أخرى ضرورية للاحتياجات العسكرية بالقلعة، مثل سوق السلاح، قد نقلت دون شك إلى هذه المنطقة فى فترة لاحقة، فإن هذه الأسواق التى أنشأها الملك الكامل فقط هى التى يمكن نسبتها بالتأكيد إلى العصر الأيوبى. كذلك ليس هناك أى دليل على وجود نشاط تجارى مهم فى الدرب الأحمر خلال تلك الفترة.

الفسطاط والجيزة

معلوماتنا عن الأنشطة الاقتصادية فى الفسطاط فى العصر الأيوبى متفرقة ومتناثرة وكثيرًا ما تتسم بالتناقض. فالعديد من المؤسسات التى وصفها ابن دقماق (أسواق، وخانات، وفنادق، ... إلخ) غير كاملة التوثيق، ولا مؤرخة، وإن حدث وذكر لها تاريخًا فعادة ما يشير إلى مؤسسات من قبل العصر الفاطمى غير مؤكدة الاستخدام فى العصر الأيوبى. بيد أن الروايات العامة القليلة المتوفرة – خاصة روايات ابن لقلق وابن سعيد – تؤكد كثرة المنشآت القائمة. سوف ندرس، أولاً، مجمل الوضع الصناعى والتجارى فى الفسطاط والجيزة، ثم ننتقل إلى دراسة كل مؤسسة من المؤسسات التى كان نشاطها على أهمية خاصة للأيوبيين.

كما أشرنا فى السابق (الفصل الثالث)، لم يؤد حريق الفسطاط سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨ م، على كارثيته، إلى تقليص الحدود الشرقية للفسطاط بشكل كبير، وفقًا للأدلة الأثرية. هذا بالإضافة إلى أن حفائر بهجت وسكانلون فى هذه المناطق الشرقية لم تكشف سوى عن منازل، مع عناصر مملوكية قليلة الأهمية فى حالات معدودة[٥٣]. وظل المركز التجارى والصناعى، كالعادة، محصورًا فى مثلث يحده شاطئ النيل من باب القنطرة إلى فم الخليج، وخط يمتد من الشرق إلى الغرب من فم الخليج إلى باب الصفاء، وخط يمتد من باب الصفاء إلى باب القنطرة، مارًا إلى الشرق مباشرة من جامع عمرو وقصر الشمع[٥٤]. ويمكن أن يُعزَى نمو هذه المنطقة، تجاريًا، إلى عاملين: القرب من النيل، والتركيز المبكر للأسواق حول جامع عمرو. لا بد أن حريق ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م قد مسَّ هذا المثلث فى مناطق متفرقة، ولكن النشاط التجارى للفسطاط، والذى كان نهريًا فى الأساس، لم يتضرر نسبيًا.

يقول بنيامين التطيلى (تقريبًا سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م) إن الفسطاط كانت تفاخر بالعديد من الأسواق والفنادق. ويشير ابن جبير، بعد ذلك بنحو ١٣ سنة، إلى أن المدينة أعيد بناؤها بشكل شبه كامل بعد الحريق. بيد أنه لم يذكر مؤسسات تجارية بعينها[٥٥]. وفيما عدا بعض المنشآت الفردية، فليس لدينا إلا القليل من المعلومات الأخرى حول الفسطاط حتى سقوط دمياط فى يد الصليبيين سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩م. وعندما واجه الملك الكامل ضائقة مالية أعاد صفى الدين بن شكر إلى الوزارة، وكان قد وليها أيام الملك العادل. ومن بين الإجراءات الصارمة التى اتخذها ابن شكر تعطيل دور الوكالات جميعًا وكل الفنادق "التى تباع فيها البضايع مثل الكتان وغيره، ورسم أن لا يباع شيء إلا بدار وكالة السلطان التى بدار الملك، وأن تكون السمسرة للسلطان." [٥٦]

ونعود هنا، مرة أخرى، إلى وصف ابن سعيد للنشاط التجارى فى الفسطاط (انظر الفصل الثالث). فقد لاحظ ابن سعيد عند وصوله إلى الفسطاط (حوالي سنة

٦٤٠ هـ / ١٢٤٢-١٢٤٣ م) كثرة مراسي الميناء ووصول المراكب محملة بالبضائع الأجنبية والمحلية، ورخص الأسعار في أسواقها لقربها من النيل، وامتداد الأسواق بسبب بناء قلعة الروضة، وانتقال سوق العسكر من القاهرة إلى قيسارية بنيت أمام جسر المراكب الموصل إلى الروضة. وفيما يتعلق بالصناعة لاحظ ابن سعيد وجود تشغيل و/أو تصنيع للسكر، والصابون، والزجاج، والحديد، والنحاس، والورق، والتي لم يكن أي منها يصنع في القاهرة. ولا بد أن نشاط البناء كان في ازدهار أيضًا نظرًا لقيام أمراء الملك الصالح (وفقًا لابن سعيد) ببناء الدور والجواسق على امتداد شاطئ الفسطاط.

على أن هذا الوصف يتناقض تمامًا مع رواية ابن لقلق التي أشارت إلى ميل الملك الصالح، سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢-١٢٤٣ م إلى نقل الكثير من النشاط التجاري من الفسطاط إلى الجيزة.

> ورسم السلطان عز نصره أن ينتقل من كل سوق قوم إلى الجيزة ويقيموا بها لأن قصده أن يعمرها، وقيل إنه قاس لعمارتها مقدار إسكندرية طولا وعرضا ورسم بأن ينقل الشواني إلى بر الجيزة وتعمر هناك، وأن تعمر الأمراء لهم هناك أدراً ليكون مقام السلطان في قلعة الجزيرة والأمراء في الجيزة ونقل أصناف عماير المراكب الحربية والنيلية من صناعة مصر إلى صناعة اختطها بالجزيرة(٥٧).

ثم يضيف عند ذكره لتعميق قناة الفسطاط:

> ونقل سوق الغلات والعلافين أصحاب المقاعد الذين كانوا على الساحل وأدر الأملاك التي يباع فيها البطيخ والفقوس والخيار وما يجري مجراها إلى الكوم الأحمر قبلي مصر ما خلا دار الأملاك إلى الجيزة لما عزم على حفر هذه المواضع(٥٨).

لم يذكر أي كاتب معاصر آخر أو أي مؤرخ متأخر هذا النقل الكبير للأملاك التجارية والسكنية إلى الجيزة، كما أنه ليست هناك من أدلة على حدوث

مثل هذا العمل. ولصمت ابن سعيد هنا دلالته المهمة؛ ففي غياب أدلة أخرى لنا أن نذهب إلى أن هذا المشروع لم يكن سوى حلم للملك الصالح لم يتحقق قط، ربما كان يبغي من ورائه المزيد من العزلة له ولمماليكه البحرية في قلعته بالروضة. ونستطيع أن نتحقق من استمرار الازدهار التجاري في الفسطاط من استعراضنا لوصف المنشآت فيما يلي.

الأسواق

كانت الفسطاط، كما أشرنا في السابق، تعجُّ بالأسواق في العصر الأيوبي، وكان العديد منها قائمًا قبل العصر الفاطمي. على أننا نستطيع أن ننسب سوقًا واحدًا للعصر الأيوبي وهو سوق القلعة الذي نقل من القاهرة إلى قيسارية بناها الملك الصالح أمام الجسر الموصل إلى الروضة، و"كانت تباع فيه الفراء والجوخ وما إليها." [٥٩]

الخانات

لم يذكر ابن سعيد خانات الفسطاط إلا ذكرًا عابرًا؛ حيث قال إنها أصغر من خانات القاهرة. أما ابن دقماق فلم يرد لها ذكر عنده، ربما لاستخدامه تعبير فنادق أو قياسر بدلاً منه[٦٠].

الفنادق

لا نستطيع أن ننسب إلى العصر الأيوبي سوى أربعة فنادق على وجه اليقين، على الرغم من ذكر بنيامين التطيلي لـــ "العديد من الفنادق" في زيارته للفسطاط[٦١].

فندق أبي الثناء

عند وصول ابن جبير إلى الفسطاط نزل بفندق أبي الثناء "في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو ابن العاص رضي الله عنه، في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور." (٦٢)

فنادق الكارم

فندقان بناهما تقي الدين عمر، الفندق الكبير (رقم ٩٧، خريطة ٣)، والفندق الصغير (رقم ٩٦، خريطة ٣)، وعرفا بفنادق الكارم، وكانا يقعان بخط الملاحين قبالة سوق الفطايريين، وكان الصغير إلى الشمال والكبير إلى الجنوب. ويرى كزانوفا أن الصغير كان يقع إلى الغرب من المسجد السويدي الآن، والكبير إلى الجنوب منه.

ويربط صبحي لبيب الفندقين بتجار الكارم، ويقول إن تقي الدين عمر أنشأهما سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣-١١٨٤ م. ويذكر ابن دقماق أن فندق (وليس فنادق) الكارم كانت وقفاً لتقي الدين عمر، ولنا أن نرى أن التعبيرين مترادفان هنا. وعلى الرغم من أن المستفيد من الوقف لم يذكر صراحة، فربما كانت المدرسة التقوية هي التي أوقف عليها الفندقان، إلى جانب منشآت أخرى (انظر الفصل السابع) (٦٣).

فندق النخلة

كان في موضع فندق النخلة (رقم ١٠٢، خريطة ٣) إسطبل، وقد أوقف الفندق الأمير تقي الدين عمر على المدرسة التقوية. وكان الفندق يقع على الطرف الشرقي للسوق الكبير، بجوار المدرسة التقوية مباشرة (على شاطئ النيل قبالة المقياس) (٦٤).

القياسر

يذكر ابن دقماق خمس عشرة قيسارية، ثمان منها على الأقل كانت قائمة قبل العصر الأيوبي، وثلاث يمكن نسبتها تأكيدًا إلى هذا العصر[٦٥].

قيساريتا ابن الأرسوفي

كانت قيساريتا ابن الأرسوفي الكبرى (رقم ٩٩، خريطة ٣) والصغرى (رقم ١٠٠، خريطة ٣) تقعان إلى الشمال الغربي مباشرة من جامع عمرو بن العاص بين النحاسين والبزازين. وكلاهما كان موقوفًا على مدرسة ابن الأرسوفي (انظر الفصل السابع) القريبة في البزازين. وكان ابن الأرسوفي تاجرًا من عسقلان، وتوفي سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦-١١٩٧ م[٦٦].

قيسارية الملك الصالح

ذكر ابن سعيد – كما أشرنا في السابق – أن الملك الصالح أقام قيسارية عظيمة (رقم ٩٨، خريطة ٣) قبالة جسر المراكب الموصل إلى الروضة. ونُقِل سوق العسكر من القاهرة إليها، وكانت تُباع بها الفراء والجوخ وما إليها[٦٧].

الربوع

ذكر للعصر الأيوبي ربعان في الفسطاط. أولهما ربع تقي الدين عمر الذي أنشأه بالقرب من فندقه الصغير.[٦٨] وثانيهما الربع العادلي (رقم ٩٥، خريطة ٣) والذي أنشأه الملك العادل، وكان يقع بالقرب من شاطئ النيل إلى الجنوب الغربي من دير أبي السيفين، وإلى الشمال من المدرسة العادلية، والمعروفة أيضًا بمدرسة ابن شاش. على أن هذا الربع كان موقوفًا على قبر الإمام الشافعي.[٦٩]

الدور / الوكالات

كانت بالقاهرة والفسطاط منشأتان تجاريتان في العصرين الفاطمي والأيوبي، يطلق على كل منهما دار أو دار الوكالة. ويبدو أن معنى كلمة "وكالة" قد مر بتغيرات بين القرنين الخامس والثامن الهجريين.

وكانت دار الوكالة منذ البداية "منشأة حكومية يقوم فيها الموظفون الماليون للدولة بتقدير قيمة البضائع المستوردة أو المارة بالبلاد في طريقها إلى أماكن أخرى ليقدروا قيمة المكوس أو الجمارك المفروضة عليها." (٧٠) على أن تلك الكلمة أصبحت في زمن المقريزي – وقد ندر استخدامها آنذاك – مرادفة لكلمتي فندق وخان. (٧١) وحول موضوع مصطلح "وكالة" يقول رايموند: "كانت شائعة في العصر الفاطمي، وربما أبطل الأيوبيون استخدامها، ثم عادت للحياة مرة أخرى منذ القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي." (٧٢) على أن مذهب رايموند هذا موضع تساؤل، فيما يتعلق بالقاهرة والفسطاط؛ أولاً لأن هناك أدلة على بضع وكالات فاطمية، وثانيًا لورود ذكر لنشاط كبير للوكالة في العصر الأيوبي، وثالثًا لأن المقريزي لم يذكر سوى ثلاث منها، ولم يورد ابن دقماق لها أي ذكر (على الرغم من أنها تكاثرت تكاثرًا كبيرًا في أواخر العصر المملوكي وفي العصر العثماني). وسوف نتناول هذه الدور التجارية بالدراسة، كل على حدة، في محاولة للتعرف على وظيفتها ومدى انتشارها في أواخر العصر الفاطمي وفي العصر الأيوبي.

دار الملك

كانت دار الملك (رقم ٩١، خريطة ٣) تقع عند الطرف الجنوبي الغربي للفسطاط، بالقرب من باب القنطرة، وقد أنشأها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧–١١٠٨ م، وإليها نقل مقر إقامته وجهازه الإداري من دار

الوزارة في القاهرة. وعند موته تحولت دار الملك إلى جوسق للخليفة. وقد ذكر المقريزي أنها أصبحت دار المتجر في عهد الكامل، ويرى كازانوفا أن دار المتجر هذه عبارة عن مستودع تجاري يشبه الفندق أو "الوكالة" بتعبيره. ويقول المقريزي إنها أصبحت دار الوكالة في عهد بيبرس البندقدارى فقط. ويتناقض ذلك مع رواية ابن لقلق التي ذكر فيها أن ابن شكر قد استخدم دار الملك إبان حملة الصليبيين على دمياط بوصفها دار الوكالة التي تأخذ فيها الحكومة السمسرة، وذلك في مقابل الوكالات والفنادق التي كانت قائمة بالفعل في القاهرة والفسطاط. (٧٣)

دار الوكالة لابن ميسر في الفسطاط

أنشأها ابن ميسر، وهو مهاجر قدم من قيسارية، وولاه بدر الجمالي الدرس والخطبة في جامع عمرو. وقد توفي ابن ميسر سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١-١١٢٢ م. وليست لدينا أية معلومات عن موقع هذه المنشأة أو استخدامها. (٧٤)

دار الوكالة في القاهرة

كانت دار الوكالة تقع بالقرب من دار الضرب، إلى الغرب من الجامع الأزهر. وقد أنشأها المأمون البطائحي وزير الخليفة الآمر سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢-١١٢٣م، ليستخدمها التجار القادمون من سوريا والعراق وغيرهما، وكانت، وفقًا لما ذكره المقريزي، دار الوكالة الأولى في القاهرة. (٧٥)

دار التمر (الدار الفاضلية)

كانت هذه المنشأة (رقم ٩٢، خريطة ٣) تقع بالقرب من مخازن غلال يوسف على شاطئ النيل جنوب غربي قصر الشمع. (٧٦) ونعلم من روايات ابن

دقماق والمقريزي أن دار التمر أنشأها القاضي الفاضل على أرض انحسر عنها ماء النيل بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦-١١٠٧ م، وأنه أوقفها على فداء الأسرى المسلمين من الفرنجة. (٧٧) وقد استمر هذا الوقف، على الأقل حتى زمن ابن عبد الظاهر (٦٢٠-٦٩٢ هـ / ١٢٢٣ - ١٢٩٢ م). وحسبما ذكر القاضي جمال الدين بن شيث، فقد كان القاضي الفاضل يملك ربعًا كبيرًا، وعندما سافر إلى الحج أوقفه على فداء أسرى المسلمين من الفرنجة. (٧٨)

يقول المقريزى:

> قال ابن المتوج: ومن جملة الأوقاف الوقف الفاضلي، وهو الدار المشهورة بصناعة التمر الوقف على فكاك الأسرى من يد العدو، المشتملة على مخازن أخصاص وشون ومنازل علوية وحوانيت بمجازها وظاهرها، وهي اثنا عشر حانوتًا، وخمسة مقاعد، وثمانية وخمسون مخزنًا، وخمسة عشر خُصًّا، وست قاعات، وساحة، وست شون، وخمسة وسبعون منزلاً، وخمسة مقاعد علوية؛ الأجرة عن ذلك جميعه إلى آخر شعبان سنة تسع وثمانين وستمائة في كل شهر ألف ومائة وست وثلاثون درهمًا نقرة (٧٩).

على الرغم من أن هذا الوقف قد شهد توسيعًا كبيرًا سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠م، فإنه كان بلا شك يحتل مساحة عظيمة في أواخر العصر الأيوبي. على أننا لا نستطيع أن نعتبره إلا مؤسسة تجارية مركبة ضخمة موقوفة، ولا علاقة محددة لها مع التجار الأجانب أو مؤسسات جباية الضرائب الحكومية. ولا ندري شيئًا عن أصل تسميته الثانية: صناعة التمر. ويشير كازانوفا إلى أن كلمة "صناعة" كانت تطلق على أرصفة السفن بوجه عام، وهو ما قد يشير إلى موضع رصيف سابق في تلك المنطقة قبل انحسار النيل عنها(٨٠). وربما يشير "التمر" إلى إحدى السلع العديدة التي كان يتجر فيها في تلك المؤسسة المتعددة الوجوه.

دار الوكالة للأنبا يوحنا

كان الأنبا يوحنا البطرك الرابع والسبعين للكنيسة المصرية، وكان اسمه قبل تقديمه سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ – ١١٩٠ م أبا المجد بن أبى غالب بن سورس، وكان ذا مال ويسار، "وكان له دار وكالة بمدينة مصر يتجر فيها ويبيع ويشتري أصناف البضايع، وله سكرية لعمل السكر، وطواحين وأملاك." (٨١) ولم يذكر لها موقع.

الوكالات الأيوبية المتأخرة

كما ذكرنا من قبل، أدت الأزمة المالية التي تسببت فيها الحملة الصليبية على دمياط سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م إلى إغلاق دور الوكالة والفنادق في الفسطاط والقاهرة التي "كانت تبيع البضايع مثل الكتان وغيره".(٨٢) ومن حينها اقتصر بيع تلك السلع على "دار وكالة السلطان التى بدار الملك، وأن تكون السمسرة للسلطان."(٨٣) وهو ما يوحي بوجود الغديد من تلك المنشآت المسماة "دار الوكالة" قائمًا في القاهرة والفسطاط سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩م، ولن وظيفتها كانت وظيفة الفنادق نفسها، أي أنها كانت مؤسسات خاصة لا تقوم بجمع العوائد الحكومية. وكانت دار الوكالة للكامل (دار المتجر عند المقريزي) على ما يبدو مؤسسة هامشية أولتها السلطات كل النشاط بضغط الضرورة السياسية والاقتصادية.

ملخص

من بين الوكالات التي تعود إلى أواخر العصر الفاطمي والعصر الأيوبي التي درسناها، لم تلعب دور الوكالة بشكل مؤكد، أي المؤسسة الحكومية التي تجبي الرسوم الجمركية، سوى دار الملك. أما الوكالات الأخرى، فيبدو أنها كانت

تلعب دور الفنادق، على الرغم من أن ذلك لا ينفي استخدامها أحيانًا في جمع السمسرة الحكومية أو وجود موظفين ماليين حكوميين فيها. وأول دار وكالة في القاهرة، على الرغم من أن الذي أنشأها هو الوزير مأمون البطائحي، ربما كانت أيضًا مجرد فندق خاص. أما دار التمر التي كانت وقفًا أنشأه القاضي الفاضل، فكانت مؤسسة متعددة الوجوه، تمارس فيها التجارة المحلية فقط.

مخازن الغلال ومنشآت التخزين المرتبطة بها

مخازن المكوس؟

كانت الأرض الغرينية التي أضافت إلى شاطئ الفسطاط بعد سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦ م عامرة بالعديد من المخازن، التي ربما كانت كلها مخازن غلال، إلى جانب دار للمكوس تأسست في أواخر العصر الفاطمي، ثم أبطلها الأيوبيون.

شون وأهراء(*) يوسف

كانت شون وأهراء يوسف (رقم ٩٤، خريطة ٣) تقع، وفقًا لكازانوفا، على النيل بالقرب من جسر المراكب الموصل إلى الروضة، ملاصقة لدار التمر. كذلك يرى، اعتمادًا على إشارات متفرقة لابن دقماق، أن الشون كانت تمتد على النيل إلى الشمال مباشرة من أهراء يوسف. وحسب المعلومات المتوفرة، يثور التساؤل حول ما إذا كانت تلك منشآت منفصلة في واقع الأمر؛ حيث كانت بلا شك شيئًا واحدًا عند زيارة فرمونت سنة ١٧٣٥ م. [٨٤] ويرى لين-بول أن تلك كانت أهراء يوسف التي ذكرها بنيامين التطيلي (حوالي ٥٦٦ هـ / ١١٧٠-١١٧١ م). [٨٤] على أن هذه النظرية ، إذا ما درسنا النص بدقة أكبر، لا تنهض؛ فبنيامين كان

(*) الأهراء هي مخازن لتخزين الغلال. (المترجم)

يشير بلا شك إلى الأهرامات. [٨٥] ويسوق كازانوفا دليلاً أكثر إقناعًا على أن تلك الأهراء كانت قائمة في زمن صلاح الدين. فهو يشير أولاً إلى أن الأهراء السلطانية هي نفسها أهراء يوسف. [٨٦] وثانيًا، يذكر المقريزي "صناعة أخرى"، وكلمة صناعة تشير عادة إلى أرصفة السفن، ويعتقد كازانوفا أنها كانت في موضع تل الأهراء، إن لم تكن هي نفسها الأهراء. [٨٧] وقد ورد في قائمة المكوس التي أعدها القاضي الفاضل لصلاح الدين ذكر هذه الصناعة في عشرة مواضع. [٨٨] وكانت وظيفتها، كما يشير المقريزي في موضع آخر، هي جباية المكوس. يقول كازانوفا:

> لعبت هذه [الصناعة] دور مخزن الميناء الذي تخزن فيه العديد من السلع، فكانت على الإجمال شونة الدولة، في مقابل الشون القائمة حولها والمملوكة لأفراد. ومن المحتمل أن النظام كان يقتضي في الأصل أن يودع الجميع بضائعهم هناك ثم يدفعوا عليها رسومًا للدخول، والتخزين والخروج حسب آلية مالية تكاد تشبه ما يحدث في العصر الحديث. وبمجرد إلغاء صلاح الدين لتلك الرسوم، أصبح في مقدور الجميع تخزين سلعهم بحرية وبناء شون امتدت على طول شاطئ النهر بجوار شون الحكومة. [٨٩]

يبدو، إذن، أن بعض تلك المخازن على الأقل قد تأسس في أواخر العصر الفاطمي بغرض تحصيل الجمارك و/أو المكوس، والتي ألغى صلاح الدين معظمها سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م. [٩٠] وعلى الرغم من أنه من الجلي أن سلعًا متنوعة كانت تخزن هناك لأغراض الجمارك، فإن مصطلحى أهراء وشون يوحيان بأنها كانت في الأساس مخازن للغلال، وأن هذا المعنى هو الذي قصد فيها فقط. ولنا أن نؤكد أن هذه المستودعات الجمركية قد تأسست في أواخر العصر الفاطمي فقط، استنادًا إلى ما ذكره المقريزى من أن: ١) النيل انحسر عن تلك المنطقة بعد

سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦-١١٠٧ فقط، و٢) أن المكوس أعيدت مع انهيار الدولة الفاطمية بعد أن كان أحمد بن طولون قد أبطلها. [٩١] ويذكر المقريزي أن الملك العزيز أعاد المكوس، بيد أن تأثير ذلك على تلك المخازن غير مؤكد. [٩٢] ومن الجدير بالذكر هنا أن دار القاضي الفاضل التي كانت تضم مخازن وشونًا كانت ملاصقة لتلك المنطقة، بيد أنها كانت معفاة من أي ضرائب؛ لأنها كانت أملاك وقف.

شون بالقرب من فم الخليج

كانت هذه الشون (رقم ٩٣، خريطة ٢) تقع في موضع المدرسة الطيبرسية، على أرض غرينية إلى الجنوب مما يعرف الآن ببرج مجرى العيون الذي أنشأه الغوري. [٩٣] ويقول ابن دقماق عند وصفه لهذه المدرسة:

> هذه المدرسة كان مكانها في الأيام الصالحية النجمية في سنة أربع وأربعين وستمائة [١٢٤٦-١٢٤٧م] شون يخزن فيها الغلال ثم نقلت الغلال منها وجعلت شونة للأتبان والسلطانية ثم جعل بعضها إسطبلا لدواب المرمة لعمارة قلعة الجزيرة ثم خلت من ذلك كله وسوغت أجرتها في نفقات الدار القطبية واستقر الحال في خلوها إلى سنة أربع وخمسين في الدولة المعزية. [٩٤]

يجب اعتبار التاريخ الذي أرخ ابن دقماق به إنشاء إسطبلات الملك الصالح خطأ؛ لأن قلعة الروضة انتهى العمل بها سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣-١٢٤٤ م (انظر الفصل الثالث). على أن ترتيبه الزمني مقبول بوجه عام.

ملخص

على الرغم من أن المناخ التجاري الجيد في العصر الأيوبي كان له بلا شك تأثير مهم على القاهرة والفسطاط، فإن افتقارنا إلى المصادر يمنعنا من إقامة مقارنة دقيقة بين منشآت التجارة والصناعة في العصرين الفاطمي والأيوبي. وقد بقيت الملامح الطبوغرافية الأساسية كما هي: القصبة في القاهرة، وجامع عمرو ومناطق الشاطئ في الفسطاط. واقتصرت الامتدادات أساسًا على تلك المرتبطة ببناء قلعة الجبل وقلعة الروضة على يد صلاح الدين والملك الصالح على الترتيب. على أن القلعتين اجتذبتا الأسواق المتخصصة في خدمة حاشية السلطان العسكرية فقط. وربما لم تتأثر مناطق الأسواق في الفسطاط بحريق ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م لسببين رئيسيين وهما: أنها كانت مركزة حول جامع عمرو الذي لم يصبه تغيير، نسبيًا، وأنها أصبحت الميناء الوحيد الصالح للاستخدام في المنطقة بعد تراكم الطمي في المقس.

الهوامش

(١) المقريزى، المواعظ، جزء ١، صص ٣٣٧، ٣٦٤؛ ج ٢، ص ٢٦٥ .

(٢) Clerget, vol.2, pp. 140-50؛ تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية، مج ٤، ج ٢، ص ١٣٧ .

(٣) Raymond, André and Gaston Wiet. Les marchés du Caire, Cairo: 1979

(٤) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٩٤؛ Raymond and Wiet, P. 94

(٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٠٠؛ Raymond and Wiet, pp. 177-80

(٦) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٠٤؛ Raymond and Wiet, pp. 200-201

(٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٠٤؛ Raymond and Wiet, pp. 200-201

(٨) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٩٦؛ Raymond and Wiet, pp.155-56

(٩) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٩٧؛ Raymond and Wiet, pp. 163-64

(١٠) المقريزى، المواعظ، ج. ٢، ص ١٠٢؛ Raymond and Wiet, p. 189 .

(١١) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ١٠١-١٠٢؛ Raymond and Wiet, pp.186-87

(١٢) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ١٠٤-١٠٥؛ Raymond and Wiet, pp. 200-201

(١٣) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣١ .

(١٤) المصدر السابق، صص ٩٥-٩٦؛ Raymond and Wiet, pp. 151-55

(١٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٩٥؛ Raymond and Wiet, pp.149-50

(١٦) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٩٧؛ Raymond and Wiet, pp. 160-61

(١٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٠١؛ Raymond and Wiet, pp. 183-84

(١٨) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٩٧-٩٨؛ Raymond and Wiet, pp. 165-66

(١٩) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص. ٣٧٤؛ ج ٢، صص ٩٨-٩٩؛ Raymond and Wiet, pp. 169-74

(٢٠) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص٢ ٢٨-٢٩، ٩٧ .

(٢١) المصدر السابق، ص ١٠٦؛ Raymond and Wiet, p. 208

(٢٢) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ١٠١، ٢٧٨؛ Raymond and Wiet, pp. 184-86

(٢٣) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٠٦؛ Raymond and Wiet, pp. 206-207

(٢٤) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٠٦؛ Raymond and Wiet, pp. 206-207

(٢٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٠٢؛ Raymond and Wiet, pp. 187-88

(٢٦) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ٢، ص ١١٩ .

(٢٧) Raymond and Wiet, pp. 160-61

(٢٨) Cited by Raymond and Wiet, p. 19

(٢٩) Ibid., p. 112؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٨٦ .

(٣٠) Raymond and Wiet, p. 113؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٨٦ .

(٣١) Raymond and Wiet, p. 129؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٩٠-٩١؛ Description de l'Egypte: Etat Moderne, vol.1, plate 26

(٣٢) Raymond and Wiet, p. 124؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٨٩ .

(٣٣) Raymond and Wiet, pp. 112-13؛ المقريزى، المواعظ ج ٢، ص ٨٦ .

(٣٤) Raymond and Wiet, p. 122؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٨٩ .

(٣٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٨٧؛ Raymond and Wiet, p. 115

(٣٦) المقريزى، المواعظ ج ٢، صص ٨٧-٨٩؛ Raymond and Wiet, pp.116, 120-22; Humphreys, pp. 93, 110-11, 117-18

(٣٧) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٨٧؛ Raymond and Wiet, p. 115

(٣٨) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٨٧؛ Raymond and Wiet, p. 116

(٣٩) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٨٩؛ Raymond and Wiet, p. 125

(٤٠) المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٨٩-٩٠؛ Raymond and Wiet, p. 125-26

(٤١) المقريزى، المواعظ ج ٢، صص ٨٩-٩٠؛ Raymond and Wiet, p. 125-28

(٤٢) Raymond and Wiet, pp. 2-15; 'Abd al-Latif al-Baghdadi, pp. 303-304

(٤٣) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٩٣؛ Raymond and Wiet, pp. 138-39

(٤٤) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٩٣؛ Raymond and Wiet, p. 138

(٤٥) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٩٢؛ Raymond and Wiet, pp. 133-34

(٤٦) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ١٩٢؛ Raymond and Wiet, pp. 134-35؛ قارن الفصل السابع، المدرسة المنصورية .

(٤٧) Raymond and Wiet, p. 134, footnote 1؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٧٨؛ انظر الفصل السابع.

(٤٨) Raymond and Wiet, pp. 139-40؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٩٣ .

(٤٩) Raymond and Wiet, p. 139, footnote 3

(٥٠) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٧٥؛ Casanova, "Foustat", p. xxxv, footnote 3

(٥١) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٧٥ .

(٥٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٤ .

(٥٣) Scanlon, "Preliminary Report 1965", part 1, part 2

(٥٤) Casanova, "Foustat", plan 1

(٥٥) Benjamin of Tudela, vol. 1, p. 149; Ibn Jubayr, Travels, p. 46

(٥٦) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ١، ص ٢٣ .

(٥٧) المصدر السابق، ج ٢، صص ١٣٧ .

(٥٨) المصدر السابق، ص ١٣٧ .

(٥٩) ابن سعيد، ص ٢٧ .

(٦٠) المصدر السابق .

(٦١) Benjamin of Tudela, vol.1, p. 149

(٦٢) Ibn Jubayr, Travels, p. 36

(٦٣) ابن دقماق، ج ٤، صص ٤٠، ١٩٣؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٢٦٣؛ Casanova, "Foustat", pp. 96-102; Labib, p. 640

(٦٤) المقريزى، المواعظ ج ٢، ص. ٣٦٤؛ ابن دقماق، ج ٤، صص ٨٠، ١٩٣؛ Casanova, "Foustat", pp. 7-10, 96-97

(٦٥) ابن دقماق، ج ٤، صص ٣٧-٤٠ .

(٦٦) المصدر السابق، صــص. ٣٨، ١٩٨؛ Raymond and Wiet, p. 111, footnote 6؛ المقريــزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٤؛ Casanova, "Foustat", pp. 132-34

(٦٧) ابن سعيد، ص ٢٧.

(٦٨) ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٣؛ المقريزى، المــواعظ، ج ٢، ص ٣٦٤؛ Casanova, "Foustat", pp. 96-97

(٦٩) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٣٦٥؛ Casanova, "Foustat", pp. 212-13

(٧٠) Raymond and Wiet, p. 16

(٧١) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٩٣ .

(٧٢) Raymond and Wiet, p. 16

(٧٣) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٤٨٣؛ Casanova, "Foustat", pp. 103-104, 282 ؛ ابــن ميــسر، صص. ٧٦-٧٧؛ تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٤، ج ١، ص ٣٣ .

(٧٤) ابن ميسر، صص ١٢٦-٢٧، هامش ٤٢٣ .

(٧٥) المقريزى، المواعظ، ج ١، صص ٤٥٠- ٤٥١ .

(٧٦) Casanova, "Foustat", pp. 219-22

(٧٧) ابن دقماق، ج ٤، ص ١٢؛ المقريزى، المواعظ، ج ٢، صص ٧٨-٧٩ .

(٧٨) المقريزى، المواعظ، ج ٢، ص ٧٩ .

(٧٩) المصدر السابق.

(٨٠) Casanova, "Foustat", p. 220

(٨١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مج ٣، ج ٢، صص ٩٨-٩٩ .

(٨٢) المصدر السابق، مج ٤، ج ١، ص ٣٣ .

(٨٣) المصدر السابق .

(٨٤) Casanova, "Foustat", pp. 92-94, 222-24

(٨٥) Lane-Poole, p. 48

(٨٦) Benjamin of Tudela, p. 150

(٨٧) Casanova, "Fousat", p. 93

(٨٨) Ibid., pp. 221, 223-4 ؛ المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٤٧٦ .

(٨٩) المقريزى، المواعظ، ج ١، صص ١٠٤-١٠٥؛ Casanova, "Foustat", p. 224

(٩٠) المقريزى، المواعظ، ج ١، ص ٤٧٦ .

(٩١) Casanova, "Foustat", p. 224

(٩٢) Ehrenkreutz, pp. 101- 102

(٩٣) المقريزى، المواعظ، ج ١، صص ١٠٤-١٠٥ .

(٩٤) المصدر السابق.

(٩٥) Casanova, "Foustat", pp. 82-85

(٩٦) ابن دقماق، ج ٤، ص ٩٦ .

الفصل التاسع

استنتاجات عامة

شهد التاريخ الطبوغرافي للقاهرة والفسطاط في أواخر العصر الفاطمى والعصر الأيوبى تقلص مساحة تلك المنطقة وليس اتساعها. فالقاهرة التى بناها جوهر كانت مجمعًا إداريًا عسكريًّا محاطًا بسور، بحيث غطى هذا المجمع على التدهور التدريجى للعواصم الإسلامية الثلاث السابقة: الفسطاط والعسكر والقطائع. على أن هذا التجمع الحضرى شهد انحسارًا شديدًا، بعد ذلك بقرن خلال عهد المستنصر، بسبب تكرار المجاعات وما نجم عنها من اضطرابات اجتماعية؛ حيث تلاشت العسكر والقطائع تقريبًا، وتقلصت مساحة الفسطاط كثيرًا. وقد أدت إعادة البناء التى قام بها بدر الجمالى وزيادته المحدودة في سور القاهرة، إلى جانب فتحه، ولو جزئيًا، للمدينة لسكنى العوام، إلى المزيد من تقليص السكان فيما بقى من مناطق مهدمة في العواصم الثلاث السابقة، مع سماحه بهجرتهم إلى داخل القاهرة. وقد اقتصرت محاولات إعادة تسكين المناطق الجنوبية فى عهد الآمر والحافظ على الشارع الأعظم وامتداده الشرقى إلى الفسطاط. أما الامتدادات الحقيقية، القليلة، للمدينة في عهد الفاطميين – بخلاف القاهرة نفسها – فقد كانت في حارات الجند خارج بوابات المدينة الشمالية والجنوبية.

وعلى الرغم من أن حريق الفسطاط (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) - الذى يُعتقد أن شاور كان وراءه فى إطار تدابيره الدفاعية ضد الصليبيين - قد وقع بالفعل، فقد بالغ المقريزى كثيرًا في تصوير آثاره، باستثناء وصوله إلى مناطق الميناء التي كانت لا تزال نشطة في الفسطاط، وربما لم يضف الحريق كثيرًا إلى المناطق المهدمة بالفعل، والتى زاد من بؤسها المجاعات التى وقعت فى زمن المستنصر، ثم جاء صلاح الدين ليسلم بالأمر الواقع ويخطط لإقامة سور مثلث الأضلاع، قاعدته القلعة، ليضم القاهرة والمناطق المأهولة فى الفسطاط، متغاضيًا عن المناطق المهدمة في العواصم السابقة. هذا السور، الذى لم يكتب له التمام، أحاط بأكثر المناطق المأهولة في القاهرة والفسطاط، أى مدينة القاهرة المسورة في الأصل ومنطقة الميناء بالفسطاط.

ظلت الكتلة السكانية مركزة فى تلك المناطق خلال العصر الأيوبى، الذى امتد لثمانين عامًا. وفى نهاية ذاك العصر كانت المساحة المأهولة في القاهرة والفسطاط أقل من تلك التى كانت عليها فى بداية عهد المستنصر. ومعظم مناطق العسكر والقطائع التى كانت مهدمة فى عهد المستنصر لم تُقصد لسكنى كثيرة في أواخر العصر الفاطمى أو طوال العصر الأيوبى. إن أحداث التدمير، مثل تلك التى وقعت فى حريق الفسطاط كانت قليلة، وربما أعيد ما تهدم لحاله سريعًا. ولكن كانت هناك أحداث كارثية امتدت آثارها زمنًا أطول. فحرق صلاح الدين لحارة المنصورية والمناطق المتاخمة لها خارج باب زويلة سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م خلَّف دمارًا هائلاً، كما أن ما بقى أو أعيد بناؤه من حارات الجند شمال بركة الفيل وشمال شرقها انهار خلال عامى المجاعة ٥٩٧-٥٩٨ هـ /١٢٠١- ١٢٠٢ م. والقاهرة والفسطاط ضربتهما مجاعات مدمرة فى هاتين السنتين، بالإضافة إلى مجاعات و/ أو انتشار أوبئة في ٥٧٣ هـ / ١١٧٧-١١٧٨ و ٦٣٣هـ / ١٢٣٥-١٢٣٦ م. هذا بالإضافة إلى أن عدد سكان المقس، الذى كان قد تقلص

فعليًا في مجاعة ٥٩٧-٥٩٨ هـ / ١٢٠١ - ١٢٠٢ م، تقلص أكثر فأكثر مع انتهاء لعب المقس لدور الميناء بفعل تراكم الطمي.

لا يعنى هذا عدم وجود أى مناطق أعيد استيطانها أو استحدثت فيها السكنى فى العصر الأيوبى؛ فالعديد من المشارقة الذين فروا إلى مصر أمام مذابح المغول استقروا فى الحسينية وحول بركة الفيل، وعلى ضفاف الخليج جنوبى القاهرة. كذلك استغلت الأراضى الغرينية الجديدة التى تكونت في اللوق وشمال المقس في الزراعة والتنزه. على أن تلك المناطق الغرينية، باستثناء بولاق، ظلت خلواً، نسبيًا، من السكان حتى مجيء الحملة الفرنسية. وشملت مشروعات التعمير و/أو انتقال السكان تركز النشاط حول قبر الإمام الشافعى الذى أعاد الملك الكامل بناءه، وإنشاء الخدمات التى تحتاجها قلعة صلاح الدين وقلعة الملك الصالح فى الروضة بالقرب منهما، مع ما صحب ذلك من استقرار القائمين على تلك الخدمات فى تلك المناطق.

وقد كانت آثار تلك الإنشاءات قصيرة الأجل نسبيًا، فقد أدى تحول تركز القرافة نحو المنطقة المحيطة بقبر الإمام الشافعى إلى ترك الجزء الآخر منها هملاً. كذلك اجتذبت إنشاءات الملك الكامل فى قلعة الجبل بعض الأسواق، التى يحتاجها العسكر، إلى الرميلة، بينما اجتذب إنشاء قلعة الروضة خدمات مشابهة، بالإضافة إلى استقرار الأمراء على شاطئ الفسطاط. على أن ذلك كان من باب تتبع مصدر الرزق؛ فالتطور الحقيقى للدرب الأحمر بدأ مع المماليك البحرية، بينما اختفت الزيادة فى النشاط والمنشآت التجارية التى شهدتها الفسطاط مع إهمال قلعة الروضة بعد وفاة الملك الصالح بفترة وجيزة.

كانت القاهرة الفاطمية تمثل مجمعًا ملكيًّا، يتسم ببعض التقـديس، للخلفـاء ورجالهم وحاشيتهم، وبعض الوحدات العسكرية. وعلى الـرغم مـن أن المدينـة فُتحت، جزئيًّا على الأقل، في عهد بدر الجمالي، فقد ظل مجمـع القـصر نفـسه محافظًا على عزلة أواخر الخلفاء الفاطميين. وهي عزلة لـم يطلبهـا الأيوبيـون باستثناء الملك الصالح. وقد فقدت القصور الفاطمية مكانتها، بوصفها بقايا النظـام القديم – وهو أمر مفهوم – حيث أقام سلاطين الأيوبيين في دار الوزارة، حتى تـم بناء القلعة فسكنها الملك الكامل. على أن القلعة، رغم ما توفره من عزلة، بنيت في الأساس لأغراض دفاعية؛ إذ إن الأيوبيين لم يدَّعوا لأنفسهم تقديسًا، ولم تكن رغبة الملك الصالح في الانعزال في قلعته مع مماليكه، إلا رغبة شخصية، عزَّزها افتتانه بالنيل، فنأى بنفسه عن الرعيَّة ببناء قلعته النيلية وسكناها.

حظيت قصبة القاهرة والجزء الخاص بالميناء في الفـسطاط، ذي الكثافـة السكانية العالية، بنصيب الأسد من العمائر الدينية والتجارية في القاهرة والفـسطاط في عهد الفاطميين. تلك كانت الحال أيضًا في عهد الأيوبيين؛ إذ حلت أسواق محل أسواق، وأدخلت المؤسسات الدينية السنية الجديدة لتمحو آثار الدعوة الفاطمية فـي معاقلها. وظلت الفسطاط الميناء الرئيسي ومركز الصناعة، بأسـواقها ومـساجدها ومدارسها المنتشرة حول جامع عمرو، مركز المدينة منذ الفتح الإسلامي.

الملاحق

ملحق

قائمة المنشآت بأرقامها فى كل خريطة

خريطة ١

١ – حمام ابن أبى الدم

٢ – حمام درى

٣ – حمام ابن قرقة

٤ – حمام السلطان

٥ – حمام الجيوشى

٦ – حمام الساباط

٧ – حمام تتر

٨ – حمام الكويك

٩ – حمام الخشيبة

١٠ – حمام الرصاصى

١١ – حمام القاضى

١٢ – حمام طغريك (١)

١٣ – حمام طغريك (٢)

١٤ – حمام عُجَينة

١٥ – حمام الفاضل

١٦ – حمام الصوفية

١٧ – حمام كرجى

١٨ – حمام لؤلؤ

١٩ – حمام القفاصين

٢٠ – حمام الجوينى

٢١ – حمام ابن عبود

٢٢ – حمام السيدة العمة (١)

٢٣ – حمام السيدة العمة (٢)

٢٤ – حمام السلطان

٢٥ – حمام ابن علكان

٢٦ – المدرسة القطبية

٢٧ – جامع المؤيد شيخ

٢٨ – المشهد الحسينى

٢٩ – المدرسة السيوفية

٣٠ – المدرسة العاشورية

٣١ – المدرسة الفاضلية

٣٢ – المدرسة الصاحبية

٣٣ – المدرسة الأزكشية

٣٤ – المدرسة السيفية

٣٥ – المدرسة الغزنوية

٣٦ – المدرسة المسرورية

٣٧ – المدرسة الشريفية

٣٨ – دار الحديث الكاملية

٣٩ – المدرسة الصيرمية

٤٠ – المدرسة الفخرية

٤١ – المدرسة الصالحية

٤٢ - المدرسة القطبية (فى حارة زويلة)
٤٣ - الجامع الأزهر
٤٤ - جامع الحاكم
٤٥ - مسجد فخر الدين بن قزل
٤٦ - الخانقاه الصالحية
٤٧ - رباط صفى الدين بن شكر
٤٨ - سوق الشوايين
٤٩ - سويقة الصاحب
٥٠ - سوق الشماعين
٥١ - سوق باب الزهومة
٥٢ - سوق المحايريين
٥٣ - سوق البندقانيين
٥٤ - سوق حارة برجوان
٥٥ - سوق باب الفتوح
٥٦ - سوق السلاح
٥٧ - سويقة أمير الجيوش
٥٨ - سوق المهامزيين
٥٩ - سوق الشرابشيين
٦٠ - سوق بين القصرين
٦١ - سويقة البلشون
٦٢ - سوق الجمالون الصغير
٦٣ - سويقة المسعودى
٦٤ - الصاغة

٦٥ – سوق البياطرة

٦٦ – قيسارية ابن قريش

٦٧ – قيسارية ابن أبى أسامة

٦٨ – قيسارية ابن يحيى

٦٩ – قيسارية بجوار مدرسة الغورى

٧٠ – قيسارية الشرب

٧١ – قيسارية الفاضل

٧٢ – قيسارية جهاركس

٧٣ – قيسارية الفائزى

٧٤ – خان منكورش

٧٥ – خان السبيل

٧٦ – خان مسرور (١)

٧٧ – خان مسرور (٢)

٧٨ – مدرسة الغورى

٧٩ – ربع الملك الكامل

٨٠ – دار الوزارة

٨١ – خزانة البنود

٨٢ – حبس المعونة

٨٣ – خزانة الشمائل

٨٤ – قصر الحجازية

٨٥ – قصر أولاد الشيخ

٨٦ – دار القاضى الفاضل

خريطة ٢

٨٧ – مسجد الصالح طلائع

٨٨ – قنطرة باب الخرق

٨٩ – قنطرة الموسكى

٩٠ – حوض ابن حنس

خريطة ٣

٩١ – دار الملك

٩٢ – دار التمر (الدار الفاضلية)

٩٣ – شون بالقرب من فم الخليج

٩٤ – شون وأهراء يوسف

٩٥ – الربع العادلى

٩٦ – فندق الكارم (الصغير)

٩٧ – فندق الكارم (الكبير)

٩٨ – قيسارية الصالح

٩٩ – قيسارية ابن الأرسوفى الكبرى

١٠٠ – قيسارية ابن الأرسوفى الصغرى

١٠١ – المدرسة التقوية

١٠٢ – فندق النخلة

١٠٣ – قبر فخر الفارسى

١٠٤ – باب مصر

١٠٥ – حمام الكعكى

١٠٦ - حمام السيدة

١٠٧ - حمام بالممصوصة

١٠٨ - مدرسة ابن الأرسوفى

١٠٩ - مدرسة العادل

١١٠ - مدرسة ابن رشيق

١١١ - جامع المقياس

١١٢ - قبر ابن ثعلب

١١٣ - قبر الخلفاء العباسيين

١١٤ - قبر شجر الدر

المراجع

'Abd al-Latif al-Baghdadi. *Relation de l'Egypte.* DeSacy transl. Paris: 1810.

Abu Salih al-Armani. *The Churches and Monasteries of Egypt.* Evetts and Butler ed. Oxford: 1895.

Abu Shamah. *Kitab al-rawdatayn.* Vol. 1. Cairo: 1871.

Bahgat, Aly Bey and Albert Gabriel. *Fouilles d'al-Foustât.* Paris: 1921. *Album de photographies.* Cairo: 1928.

Benjamin of Tudela. *The Itinerary of Benjamin of Tudela.* Asher transl. 2 vols. London: 1840. Adler edition, London: 1907

Berchem, Max van. "Matériaux pour un Corpus Inscriptionem Arabicarum, part 1: Egypte." *Mémoires de la Mission Archéologique Française au Caire.* Vol. 19.

Cahen, Claude. "Ayyubids" in *The Encylopaedia of Islam.* 2d ed. Vol. 1. Leiden: 1960.

Casanova, Paul. "Les derniers Fatimides." *Mémoires de la Mission Archéologique Française au Caire.* Vol. 6, fasc. 3.

________. "Essai de reconstitution topographique de la ville d'al-Foustat ou Misr." *Mémoires de la Mission Archéologique Française au Caire.* Vol. 35, fasc. 1–3. Cairo: 1913–1919.

________. "Histoire et description de la citadelle du Caire." *Mémoires de la Mission Archéologique Française au Caire.* Vol. 6, fasc. 4–5. Cairo: 1894–1897.

Clerget, Marcel. *Le Caire* (2 vols.). Cairo: 1934.

Creswell, K. A. C. *The Muslim Architecture of Egypt.* Vol. 1. Oxford: 1952; Vol. 2. Oxford: 1959.

Description de l'Egypte. Paris: 1820–1830.

Ehrenkreutz, Andrew S. *Saladin.* Albany: 1972.

History of the Patriarchs of the Egyptian Church. Vol. 3, parts 2–3; vol. 4, parts 1–2. Cairo: 1970–1974.

Humphreys, R. Stephen. *From Saladin to the Mongols: the Ayyubids of Damascus, 1193–1260.* Albany: 1977.

Ibn Duqmaq. *Al-Intisar.* Vols. 4–5. Cairo: 1893.

Ibn Hawqal, Abu al-Qasim. *Configuration de la terre.* Kramers and Wiet transl. 2 vols. Paris: 1964.

Ibn Jubayr. *Riblat Ibn Jubayr.* Beirut: 1964.

________. *The Travels of Ibn Jubayr.* Broadhurst transl. London: 1952.

_______. *Voyages.* Gaudefroy-Demombynes transl. (4 vols.). Paris: 1949.

Ibn Khallikan, Shams al-Din. *Ibn Khallikan's Biographical Dictionary.* De Slane transl. (4 vols.). Paris and London: 1843–1871.

Ibn Muyassar. *Al-Muntaqa min Akhbar Misr.* Cairo: 1981.

Ibn Sa'id al-Maghribi, 'Ali ibn Musa. *Nujum al-zahira fi hula hadrat al-Qahira.* Nassar ed. Cairo: 1970.

Ibn Wasil. *Mufarrij al-kurub.* Shayyal ed. (5 vols.). Cairo: 1953–1977.

al-Idrisi, Muhammad. *Geographie.* Jaubert transl. Paris: 1836–1840.

Kubiak, Wladislaw. "The Burning of Misr al-Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence." *Africana Bulletin.* 25 (1976): 51–64.

Labib, Subhi Y. "Karimi" in *The Encyclopaedia of Islam.* 2d ed. Vol. 4. Leiden: 1978.

Lapidus, Ira. "Ayyubid Religious Policy and the Development of the Schools of Law in Cairo." *Colloque internationale sur l'histoire du Caire.* Cairo. 27 March–5 April, 1969. Cairo: 1972. 272–86.

Lane–Poole, Stanley. *The Story of Cairo.* London: 1924.

Laoust, Henri. "Le Hanbalisme sous le califat de Baghdad." *Revue des études Islamiques.* (1959): 67–128.

al-Maqrizi, Ahmad ibn 'Ali. *Kitab al-mawa'iz wa-al-i'tibar (Khitat).* 2 vols. Cairo: 1853.

_______. *Kitab al-suluk.* Ziyadah ed. 2 vols. Cairo: 1934–42. Also Blochet transl. *Revue de l'Orient Latin* 8 (1900–1901): 165–212, 501–553; 9 (1902): 6–163, 466–530; 10 (1903–1904): 248–371;11 (1905–1908): 195–239.

_______. *Ittiaz al-hunafa'.* 3 vols. Cairo: 1947

Massignon, Louis. "La cité des morts au Caire." *Bulletin de l'Institut Français de l'Archéologie Orientale* 57 (1958): 25–79.

al-Mawardi. *Les statuts gouvernementaux.* Fagnan transl. Algiers: 1915.

al-Muqaddasi, Muhammad. *Ahsan al-taqasim.* De Goeje ed. Leiden: 1906.

Nasir-i Khusraw. *Sefer Nameh.* Schefer transl. Paris: 1881.

Pederson, J. "Masdjid" in *The Encyclopaedia of Islam.* 1st ed. vol. 3 (1936): 315–89.

al-Qalqashandi, Abu al-'Abbas Ahmad ibn 'Ali. *Subh al-a'sha.* Cairo: 1964.

Ravaisse, Paul. "Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire d'après Makrizi." *Mémoires de la Mission Archéologique Française au Caire,* vol.1, fasc. 3. 1881–1884.

Raymond, André. "La localisation des bains publics au Caire au quinzième siècle d'après les Hitat de Maqrizi." *Bulletin d'études Orientales* 30 (1978): 347–60.

_______. "Les porteurs d'eau." *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* 57 (1958): 183–202.

Raymond, André and Gaston Wiet. *Les marchés du Caire*. Cairo: 1979.

Répertoire chronologique d'épigraphie Arabe. 16 vols. 1932–64.

Salmon, Georges. "Etudes sur la topographie du Caire."*Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* 7 (1902): 1–123.

Scanlon, George T. "Fustat Expedition: Preliminary Report 1964." *Journal of the American Research Center in Egypt* 4 (1965): 9ff.

________. "Fustat Expeditions: Preliminary Report 1965." Part 1. *Journal of the American Research Center in Egypt* 5 (1966): 83–112. Part 2. *Journal of the American Research Center in Egypt* 6 (1967): 65–86.

Survey of Egypt. *Map of Cairo Showing Mohammadan Monuments*. 2 sheets. Cairo: 1949.

al-Suyuti, Jalal al-Din. *Husn al-muhadara*. 2 vols. 1967–1968.

Yaqut al-Rumi. *Jacut's Geographisches Woerterbuch*. Wustenfeld ed. 6 vols. Leipzig: 1866–1873.

المؤلف فى سطور :

نيل دى . ماكنزى :

حصل على الدكتوراه فى التاريخ من جامعة ميتشيجان ، ويعمل الآن باحثًا حرًا .

المترجم فى سطور :

عثمان مصطفى عثمان :

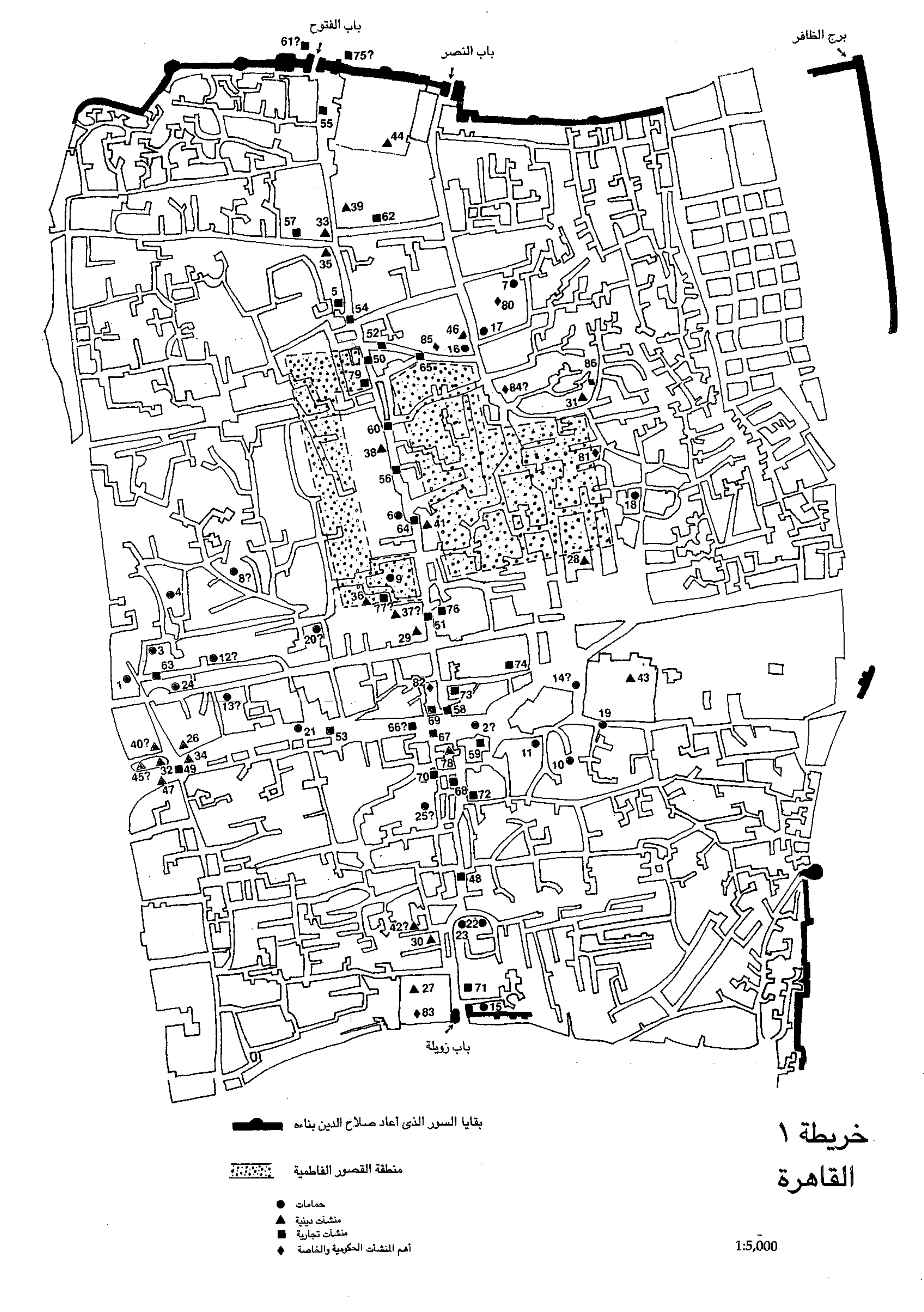
تخرج فى كلية الآداب قسم المكتبات والوثائق ، ثم درس الحضارة المصرية القديمة ، ثم هندسة البرمجيات ، فكان هذا التنوع فى الخلفيات العلمية خير عون له فى ولوج بحار الترجمة ، على تنوع مشاربها .

له ترجمات عديدة فى الدوريات الثقافية الدولية مثـــل : رســـالة اليونـــسكو، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، ديوجين ، وغيرها .

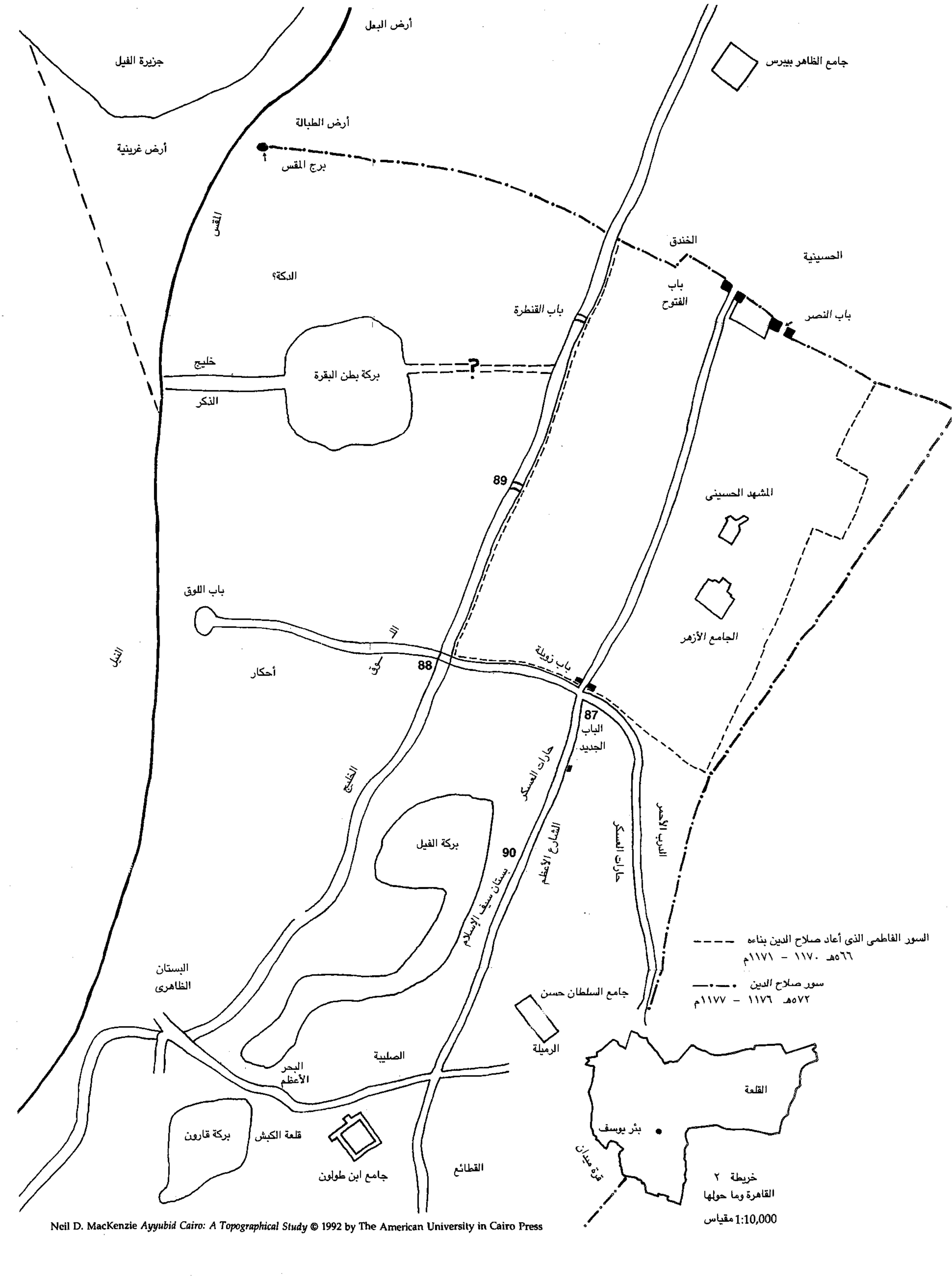
شارك فى ترجمة عدة تقارير من إصدارات وكالات الأمم المتحدة المختلفة.

قام بترجمة عدة كتب فى مجالات الأرشـــيف ، والحـــضارة الإســـلامية ، والحضارة المصرية القديمة .

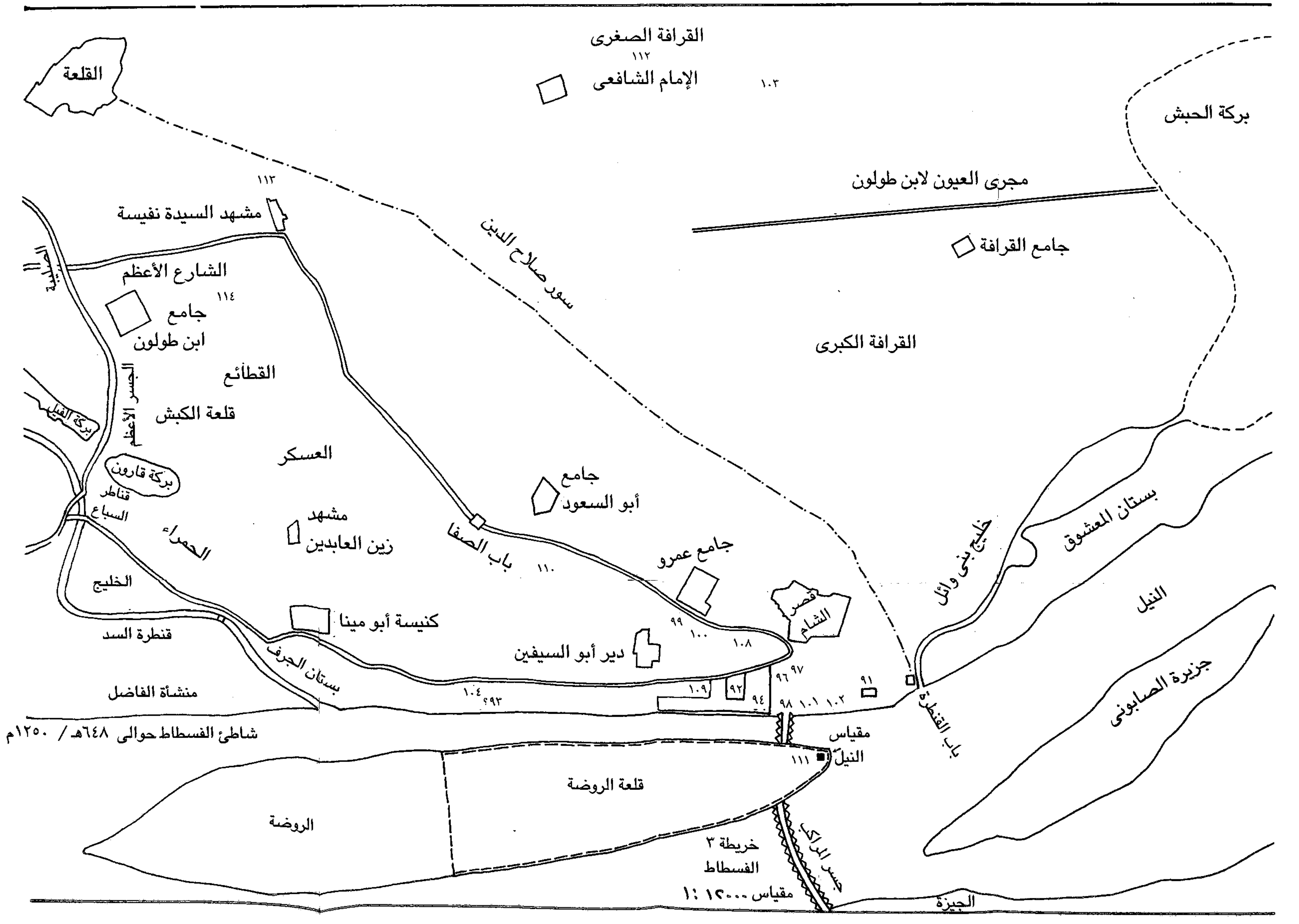
الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى
الإشـراف الفنــى : حســـــن كــامـــل



باب الفتوح
باب النصر
برج الظافر
باب زويلة
بقايا السور الذى أعاد صلاح الدين بناءه
منطقة القصور الفاطمية
حمامات
منشآت دينية
منشآت تجارية
أهم المنشآت الحكومية والخاصة
خريطة ١
القاهرة
1:5,000



أرض البعل
جزيرة الفيل
جامع الظاهر بيبرس
أرض الطبالة
أرض غرينية
برج المقس
المقس
الخندق
الحسينية
الدكة؟
باب
الفتوح
باب القنطرة
باب النصر
خليج
بركة بطن البقرة
الذكر
?
89
المشهد الحسيني
باب اللوق
الجامع الأزهر
النيل
أحكار
88
باب زويلة
87
الباب
الجديد
حارات العسكر
الخليج
بركة الفيل
90
بستان سيف الإسلام
الشارع الأعظم
حارات العسكر
الدرب الأحمر
السور الفاطمى الذى أعاد صلاح الدين بناءه
٥٦٦هـ ١١٧٠ - ١١٧١م
سور صلاح الدين
٥٧٢هـ ١١٧٦ - ١١٧٧م
البستان
الظاهرى
جامع السلطان حسن
الرميلة
الصليبية
البحر
الأعظم
القلعة
بركة قارون
قلعة الكبش
بئر يوسف
قرة ميدان
جامع ابن طولون
القطائع
خريطة ٢
القاهرة وما حولها
1:10,000 مقياس



القرافة الصغرى
١١٢
الإمام الشافعى
١٠٣
القلعة
بركة الحبش
مجرى العيون لابن طولون
١١٣
مشهد السيدة نفيسة
سور صلاح الدين
جامع القرافة
الشارع الأعظم
١١٤
جامع
ابن طولون
القرافة الكبرى
القطائع
الجسر الأعظم
قلعة الكبش
بركة الفيل
العسكر
بركة قارون
قناطر
السباع
جامع
أبو السعود
مشهد
زين العابدين
الحمراء
باب الصفا
١١٠
جامع عمرو
خليج بنى وائل
بستان المعشوق
الخليج
قصر
الشام
النيل
كنيسة أبو مينا
قنطرة السد
٩٩
١٠٠
١٠٨
دير أبو السيفين
بستان الجرف
٩٧
٩٦
٩١
جزيرة الصابونى
منشأة الفاضل
١٠٤
٩٣؟
١٠٩
٩٢
٩٤
٩٨
١٠١
١٠٢
باب القنطرة
شاطئ الفسطاط حوالى ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م
مقياس
النيل
١١١
قلعة الروضة
الروضة
خريطة ٣
الفسطاط
جسر المراكب
مقياس ١٢٠٠٠:١
الجيزة